الياسمين الأحمر
(يا مال الشام)..

الياسمين الأحمر
(يا مال الشام)..

تأليف:

كريم أمين



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
2015 م - 1437 هـ

ردمك 978-614-01-1745-7

تـوزيـــع



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

تصميم الغلاف:

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1-961+)

إهداء

في عَصْرٍ يومُهُ كساعتهِ، وهو كَشهرٍ، والشَّهرُ يوازي صقلَ سَنة.

فيه أصبحَ الأخضر الأمريكي لُغةً سائدةً، وحوصِرت الكَرامة والمحُبة مِن قِبل جبّاري الأرض.

توقّفت مصانعُ الجَمال عن إنتاج الإنسانيّة، واستهلكَ البشرُ الكُره مُرغمين وراضين.

في عَصرٍ تاهت فيه ملامحُنا ونبضت قلوبنا بدقّاتٍ مِن الزّيف، فأصبحت التجارة حتّى في السّعادة.

يصعّب عليك بل يُستحال العثور على مَن يُحبّك بلا مُقابلٍ، أو أن تُحاط بامرأتين جليلتين عظيمتين كأمّي التي تملأ عالمي رحمة وكـــ هي.. تلك الفتاة البيروتية الذكيّة النفيسة في زمَن الأقنعة المُعلّبة.

الأولى حملتك تسعًا فترُبّيك دهرًا وتكتمُ المشاقَ في قلبها الكبير لترسم ابتسامة حقيقة غير مُصطنعة في حياتك.

والثانية بقدر ما أحببتها وأحبّتني ويومًا ما نَمت بيننا مشاعرٌ استثنائية مُقدّسة، بقدر ما أدعو لها أن تُرزق في حياتها القادمة مزيدًا من النور والبهاء رغم تباعُد الخُطى بيننا.

إلى أمّي العزيزة السيدة لطيفة خليل.. شُكرًا لكِ من أعماقي النقيّة أطالَ اللهُ في عُمركِ.

إلى الأرزة البيروتية مـريـم.. شُكرًا لكِ كثيرًا بحجمِ ما كان مِن أُلفةٍ.

إلى الذين يشعرون بقسوةِ الحياة أو كانوا سببًا في ضياع السلام..

خُلقنا مِن نورٍ وماءٍ وتُرابٍ، اخترتُ أن أعيشَ بالمحبّةِ والضياءِ، لكنّ لما أكثركم اختار العيشَ في الوَحلِ.

كريم أمين

(1)

1

- «ريما، ريّوم، يا ريما.
- نَعم إِمي، بكِ شي؟
- الله يرضى عليك يا بنتي تعي ساعديني في ها الأغراض، بدِّي جهّزها بسرعة كرمال جارنا أبو بتول رح يِفل اليوم عَشيّة، لعند بيّك وخيّك بالإمارات وما بدنا نتأخر عليه؛ ريما، يا ريما، يا ربّي تضرب ها البنت، ليش ما بدها تيجي، دخيلك يا الله من عمايلها، ريما يا رييييما!
- أي يا إم أحمد بدّك شي؟
- آهَ والله بَدّي ياك، إلي زمان عم عيّطلك، وما بعرف شو فيه، تعي لعندي.. هلأ هلأ.
- ييبي علينا، عم بدرُس، ها السنة بدّي خلصها بأي طريقة لروح لعند خيّ وبيّ.
- عم تدرُسي ما غيرو!
- إهَ والله هِلِكت منهُ، إمي دخيلك مُحمد.. مشان الله تركيني ما تصرخي فيني بدّي ركزّ شوي، إف شو ها العيشة».

استُفزّت الأم ثُريّا من الابنة بعد هذا التّجاهُل المُتعمّد، فذهبت إليها لتباغتها دونَ توقّع منها.

اقتحمت عليها باب غرفتها غير المؤصد.. فقد نسيت الأخيرة أن

تؤمِّن خلوتها مِن صدمة المُفاجأة وسرعتها. لَمْ تنتفضُ مِن مكانها، بل فضّلت الحيلة معها!

لِذا تلحَّفت غِطاءها الأزرق ذا المُربَّعات المُستطيلة الخيطية.. المُزبرجة بالترتر الملوَّن فوق رسوماتها الطفولية الجميلة.

لَمْ تُبدِ مِنها ولو طرفًا، حتّى أصابع قدميها الصغيرة المكسوّة بجوربٍ سميكٍ من الصوف، على شكل قُفّاز تملكُ مثلهُ يداها اللتان فردتهما متوازيتين على حافةِ السَّرير أعلى رأسها، لتكونا كأناملها السُّفلية تمامًا، وضعت إلى جوارها على «الكمودينو» الخشبيّ العتيق كتابها الذي كانت تحمله وتقرأ فيه قبل لحظات بنهم وشغف كبيرين.

كَشفت عنها جزءًا من الغِطاء.. ناحية وسادة نومها لتجد قدميها؛ تحرّكت خطوة واحدة مؤخرة السرير.. كذلك وجدتُهما!

صرخت فيها، فأزاحته كلّهُ..

وعرَّتها مِن حصنها المُتهافت الذي ظنت أنه قد أنجاها مِن المُساءلة.

قالت بدهاءِ الأم وخبرتها:

- أبهذهِ السُّرعةِ غشيكِ النُّعاسُ؟!

وكان صوتُكِ ووقاحتكِ معي قبل لحظات يزعجان الصُّم والأموات معًا؛ وكنتِ عندَ النومِ تُفضِّلين بقعة الضوء الآتية من «الأباجورة»، على المِصباح العُلوي في السَّقفِ، ولا تُحبيّنَ دفنَ رأسكِ كالنعام..

وإن كان الصقيع في أقصى درجات عتوّه وسطوته، لأنك تجدين صعوبة في التنفّس داخل الأماكن المُغلقة، فكيف تدفنين رأسك تحت الغطاء الذي يمنع تسرب الهواء.

مع هذا واصلت إتقانَ دورها، محافظةً على تقمّص ذهول المفزوع من أحلى أحلامه، على وقع المفاجأة التي أيقظتها بطريقة جبرية.

فركَت عينيها النجلاوين ذواتي اللون العسلي الزاهي، وهي تسألها بصوتٍ خفيض:

- ما سِرُّ كلّ هذا الضجيج يا أمّاه، هل قامت القيامة؟

أبُعثّ الخَلقُ مِن القبور؟

كي أُحرمَ مِن لذة النوم وهدأته؟

ردّت عليها بغضبٍ، يَصحَبُ كلماتٍ شَفَت غيظها، فاستقرَّ ليساعدها على كتمه:

- لا قامت ولا قعدت يا ابنة الأبالسة..

ليقع عليك سور الصين العظيم من قمم جباله الشامخة، كي أرى فيكِ يومًا أبيض يمنحني سرورًا، وأعوّض تعب السنين الخوالي وما هو آتٍ معك.

سخرت من كلام أمها.. وواصلت ادعاءها وقد اعتدلت لتقعد نصف قعدة، واضعة كلتا يديها على خصرها الرَّشيق:

- «ليش بالله شو عملت أنا لهيك حكي بلا طعمي»؟

أليس مِن حقّي أن أستريح، وألوذ بخلوةٍ مع نفسي الباحثة عن الجمال؟

أيعدُّ ذلكَ من المُحرَّمات أيضًا؟

حملقت إليها، خاصة مع هذه الوضعية التي لطالما نصحتها ألا تستخدمها، نظرًا لامتهانها من قبل فتيات السوء عديمات التربية.

ففطنت إلى مكنون نظرتها، وأنزلت كَفيّها سريعًا إلى جنبيها، مُبتسمة كبادرة للخجل، وأوشكت على الانفجار ضحكًا..

أيقنت أن أمها فضحت لعبتها وخداعها الذي لم تُجِد صِناعة حبكته.

وجَّهت أنظارها العابسة إلى الكتاب، والتفتت إليه أيضًا، ملأها

أملٌ غامض ألاّ تتجه أولًا لتنقضّ عليه سائلة إياها عن محتواه، فعندها ستهلك لا محالة.

اشتعل الأمر بينهما. الأم ثريا ذات العينين الحادتين بلونهما الأزرق الداكن، تتكفل دائمًا بحمل كلمات للناظر إليهما، فيفهم إن كان من المُقرّبين، وقد جعلتهما تلتقيان بعيني ابنتها التي تسمّرت مكانها.

أصبحتا على لوحة من الليل المُخملي الذي وقف جبرًا مُرحّبا بدورتي الشفق والغسق، كلتاهما تُفكّرُ.. ما الذي يجب عليها أن تفعله بمثاليةٍ واحترافية حتّى تُضيّع على الأخرى سبق التقدم، فهو وحده الذي سيُحدد من التي ستفوز دون الأخرى بأحقيّة التَّصرُّفِ، لكونها ستصبح مُتفرّدة بالحجة الراجحة وما سيليها من زهو الانتشاء وفرض الرأي والفعل.

2

كانت ريما قد استعارت هذا الكتاب محل النزاع.. من المكتبة الظاهرية بالشام القديمة، «التي أنشئت في ولاية السلطان المملوكي الظاهر بيبرس، لهذا سُمّيت باسمه، فقد كان مُحبًّا للعلم وأهله بكل صنوفه وآدابه، على الرغم مِن أميّته المُطلقة، وأخذ على عاتقه نشر المعرفة في كل الربوع والأقطار، من خلال مركز حُكمه وسلطانه في القاهرة، لذا عُمِّمَتْ المدارس الظاهرية في عهدهِ على جميع الأمصار..

فقد رأى أن بداية صنع النهضة هي الإنسان، وبجوار العدل الاجتماعي والأمن والاستقرار يجب أن يعلو الكتاب، الذي به ترتقي العقول..

ليصبحَ تحت إمرته شعب قويّ.. مُتَّقدَ الذكاء.. يسهلُ اقتياده والانتصار به على الأعداء المُتربّصين، لا شعب جاهل مهمل للمعرفة،

فلا يُمكن أن يُكوّن العقل إلا بنور القراءة والتّعلم نهلًا من مشكاة العلم».

3

بعد صراعٍ كبير مع جنود أمها من أساتذة في كُلِّيتها بمن فيهم أمناء المكتبات داخلَ جامعة دمشق، تمكّنت ريما من الحصول عليه رُغم محاولات إثناء والدتها في السابق.. التي ألّفتْ قصةً من وحي خيالها، لتقنعهم.. شارحة لهم بجهد دون كلل أو ملل ضرورة أن لا تقرأ ابنتها ريما أيّ كتابٍ خارج نصّ دراستها الدينية:

- كان خالها الذي يرافقها في صغرها يكبرها بخمس سنوات فقط، شاركها الطفولة بكل ما فيها من جمال وبراءة.

أخي هذا كان قارئًا مُميزًا، وظهرت عليه مُبكِّرًا بوادر موهبة أدبية في حبك القصص الواقعية والأسطورية، هذا الحب العميق كان سبب حتفه وانتهاء عمره قبل بلوغه الشباب. ففي يوم ما حاكَ لنا القدرُ مأساة أليمة، وكانت ريما بصحبته.

ذهبا إلى ريف دمشق لعشقه طبيعته الساحرة، وهناك كان يقرأ باستمرار الكُتب القديمة التي يُحصّلها أولًا بأوّل مِن المعارف، حتى المقالات والأقصوصات والأشعار على صفحات الجرائد.. يحتفظ بها كي يسمعها لابنتي التي لا تفارقه.. وترافقه أينما حطّت أقدامه.. بسعادةٍ حدَّ الانتشاء.

هُناكَ تعرَّفا إلى فتاةٍ أهلها مِن مُزارعي الحقول، ظلت تنتظرهما بشغف طليعة كلّ صباحٍ لتشارك ريما حكايات خالها، وكانت تُحضر لهما طعامًا وشرابًا وفاكهةً من بيت عائلتها الثرية. أحبّتهما كثيرًا وأحبّاها، وذات لحظة مقطوعة الأمل.. ضئيلة النور.. كثيفة الظُلّمة..

أُصيبت هذه الفتاة الريفيّة الرقيقة في فخذها.. جرَّاء لدغةِ حيّة

بعد أن غشيها النَّعاسُ عقب استمتاعها بوجبةٍ دسمةٍ مِن حكايات أخي.

استيقظت صائحة من الألم والوجع، تبكي من شدة وقسوة السُّم الذي يسري في أعضائها وهو على وشك القضاء عليها.

انتفضت ريما التي كانت تحمل رأس الفتاة وتداعب شعرها.. كَوْن الأخيرة كانت مُستلقية في حجرها. ووقفَ أخي مُرتبكًا مذهولًا.. غيرَ عارفٍ بسرِّ صراخها، عاجزًا عن إيجاد حلّ لتلك الأزمة وكأنهُ أصيب بشلل تام، ولولا أن رأيا الحيّة تفرّ هاربة.. لمَا عرفا لماذا تبكي وما الذي أصابها.

4

تصرَّفت ريما على سجيتها، فركضت مهرولة نحو بيت البنت القريب.. الموشكة على الاحتضار.. لعلّهم يفعلونَ شيئًا حيالَ هذا الزّعاف الذي يهدد جسد المسكينة كُلَّهُ.

على دَرج البيت استقبلها الأبُّ والأمُ والأخُ والعمُّ، وكانوا قد سمعوا نداء الابنة وصوتها المميز وهي تستغيث؛ التقت بهم ريما فلم يبالوا بها، بل حملوا بنادقهم الآلية على عجل، مُستشعرين أن ابنتهم في خطر، وراودتهم فكرة واحدة..

«ربما تعرّض لها وحشٌ بريٌّ».

حاولت جاهدة شرح الأمر وملابساته لهم، وهي تستجمع أنفاسها المُتقطعة من الركض والفزع، تنطق بكلمة مفهومة وعشرات مُطلسَمة.

وللأسف لم ينصتوا لها ظنًّا أنهم بذلك يستغلونَ عاملَ الوقتِ على أكمل صورة لإغاثة ملهوفتهم. ما باء بفشل ريما في جعلهم يبحثون عن مَصل للسُّمِ.. وهو الذي تحتاجه المُحتضرة فحسب كي يتمّ إنقاذها.

5

اقتادتهم إلى مكان الواقعة، وحدث ما لا يُمكن تفسيره أو فهمه حتّى اللحظة!

حاولت ريما للمرة الأخيرة أن توضح لهم.. طرحوها أرضًا مُبعدين إياها لتصرخ مُستغيثة بالفتاة الريفية لتنطق بالصدق الذي سيبرئ لا محالة ساحة خالها.

إلا أنَّ هالة الموت كانت أكثر حِصارًا للفتاة وقواها العقلية والعضوية مِن كآبة وحضور المشهد الكارثي الواقع.

استسلمت إلى غياهبه لا تقوى على النُطق بحرفٍ، ترى بعينيها المفتوحة كوربِ بابِ دُكّان بِضعَهُم.. عشرات ، هي نظرة الوداع فحسب، والتي يختلطُ فيها الشتات مع اليقين. أصبحت لا تُميّز بينهم، حتّى غيَّبتْ آخرتُهَا أولاهَا..

تلاشى وعيُها كاملًا، ورافقهُ نبضُ قلبها.. لتموت الحياة الدُّنيا في جسدها وتغيْبُ عنها إلى الأبد.

6

انقضّوا على أخي المُستضعف البريء الذي كان في ذهول وصدمة تامّين، رفعوهُ من قُرب فخذها، كان يحاول مصّ السُّمِّ وشفطه بفمه لعله ينقذها فحسب.

ظنُّوهُ، بعد أن رأوا على ثيابه ووجهه دمَ الفتاة، أنه في وضع مُخلٍّ معها، يستبيحُ شرفها. أوسعوهُ ضربًا دونَ أن يجد أداة للمقاومة مُدافِعًا عن نفسهِ، صوَّبوا أسلحتهم تجاههُ.. ودفعة واحدة.. أطلقوا عليه عشرات الأعيرة النارية، ليقتلوه غير آسفين عليه.. مظلومًا مقهورًا.

7

لم تفعل ابنتي ريما شيئًا وقتئذ سوى أنها أُصيبت بصدمة نفسية وعصبيّة شديدة الوطأة، ومالت على خالها آخذةً من يديه كتابه الذي كان يحمله ويقرأ لهما مِنه، وقد تلطّخَ بدمائه الزكيّة، ضمته إلى صدرها مُحتضنة إياه لأشهر وأشهر دونَ أن تنبس ببنت شفّة.

أصيبت بعجز كُليّ في النُطقِ لمدة سبع سنوات على الرغم من محاولات أهل البنت الريفية، الذين ندموا أشدَّ الندم على فعلتهم بعدما علموا سبب وفاة ابنتهم الحقيقي.

كانوا يجلسونَ بالساعات أمامها معتذرين محاولين إخراجها مما هي فيه، حتّى نصحهم طبيبٌ نفسي.. بوجوب إخراجها من أسباب الحُزن رويدًا رويدًا، وأهمها.. منع زيارة قتلة خالها.. وأيضًا.. عدم قراءة الأدب بشكل عام.. فربما ينتشلها ذلك من المرض مع مرور الوقت فتُشفَى.

8

استغلت ريما فرصة تعيين أمين جديد بالمكتبة الظاهرية، لم يكُن على دراية بقصَّتها، ولم تصل له أمُّها حتى الآن.

أصبح مصدر استعارتها لكل ما هو مميز وجديد خاصة ما تُفضّلهُ مِن دواوين الشعر العمودي والحُر، والروايات العالمية ذات الطابع الرومانسي الممزوج بالخيال. باحثة في ذلك عن ملاذ تلجأ إليه هاربة من الواقع.. الذي تعيش فيه كسجينة؛ يُحيطُ بها كثير من المُحرّماتِ والقيود الباعثة في الجوهر على الانحراف ولا تَفيد تطبيق ما فُرض عليها إلا ظاهرًا.

تُريدُ أن تشعر بإنسانيتها التي لم تعرفها مطلقًا.. والتمتع بالحرية

المُطلقة.. ما دامت لا تخرق حدًّا من حدود الله.

رأت أن من حقها الانطلاق في الحياة، التي لن تُقيم فيها سوى مرّة واحدة، مُستعينة برأي جلال الدين الرومي في «الجنس الرقيق» كحجّة كونية قوية..

«للمرأة حضور خفي لا يراه ويهتدي به إلا رجلٌ متفتحٌ عارف، فهناك نوع آخر من الرجال بداخلهم حيوانٌ محبوسٌ، ليت هؤلاء يقوّمون أنفسهم أولًا، ليتهم يعرفون أن المحبة هي التي تجعلنا بشرًا، أما الشهوة والحميّة.. فلربما كانت المرأة نورًا من نور الله، ربما كانت خلاقة وليست مخلوقة، ربما هي ليست مجرد ذلك الشكل الأنثوي الناعم الذي تراه».

ظلّت ريما دائمًا، رغم تحليقها فكريًا، محبوسة واقعيًا.. لا تفهم من الذي أعطى غيرها دومًا حقّ مصادرة حريتها، ولماذا الحظ دائمًا لا يوافِق دربها.

9

كانت الأمُّ ثريا أسرع منها.. لحركتها الخاطفة.. ساعدها في ذلك جسدها النحيف الذي لم يكوّن الزمن فيه تضاريس خاملة؛ انقضّت أولًا على الكتاب، وقبل أن تُقلّب صفحاته باحثة فيه عن هادٍ يقودها إلى الحقيقة، لكونها لا تصدّق ابنتها التي قالت لها مُرتبكة:

- هذا كِتابٌ في مادة الفقه الإسلامي.

تبدَّلت نظرات الحيرة والدهشة التي كانت عليها إلى أخرى، مُنتظرة خيطَ اليقين بداخلها والذي يدفعها لعدم الاعتراف بما تفوّهت

به، وأن محتوى الكتاب هو الفصل.

همَّت بفتحه.. فبادرت إلى انتشاله وخطفه منها.. صرخَت فيها وأمرتها أن تضع يديها إلى جانبها وتعود إلى مكانها.. ثم قالت وهي تُفتّت تحفظها:

- من هذا الذي على غلاف الكتاب، تلك الصورة ليست غريبة عن ذهني؟
- بالطبع يا أمّي، هذا دكتور مُحاضر في جامعتي، بالتأكيد أنكِ التقيتِ به ذات مرة، وذاكرتك لم تساعدكِ بَعد على استعادة اسمه.
- دكتور في الجامعة!.. لا، لقد رأيته في مكان آخر، كما أن أساتذة الجامعات لا يضعون صورهم على الأغلفة، فهم لا يتباهون بعلمهم كما يفعل الشعراء والأدباء، أنتِ تكذبينَ.
- أنا لم أكذب.
- بلى تكذبين.

ارتفعتْ نبرةُ صوتيهما، حتّى أسمعت الجيران، الذين تجمّعوا على باب منزلهم، ليفضّوا تلك المُشاجرة المُعتادة، ويخلّصوا الابنة من أمها.

توجّهت ريما نحو شبّاك الغرفة المُطل على الشارع فأغلقته، وبابها المُطل على باحة المنزل الداخلية المُطعّمة بالياسمين وشجر النارنج.

قالت لها ثُريًا رافعة أحد حاجبيها المُقطّبين لوجهها العبوس:

- أتغلقين النوافذ لتمنعي الناس عن سماع فضائحك؟

وقعت عيناها على صور تحوي وردًا وفتاة شبه عاريه وسط إحدى أوراق الكتاب المُتنازع عليه.. مُحاطة بالكلمات على شكل قلب.

لم تنطق ريما بشيء، فقط.. شرعَت في البُكاء. فاجأتها بصفعةٍ

قوية على خدها كردّ فعل..

- هذا كتابٌ لنزار قبّاني، تذكّرتُ شكلَهُ، أليسَ من العيب أن تستثمري أميّتي، يا لك من فتاةٍ قبيحة.

(2)

يطيرُ وصديقهُ إلى إمارة «أبوظبي» للمُشاركة في فاعليات مُسابقة «شاعر المليون».

حظيا بتلك الفرصة النادرة، لموهبتهما في قرض الشِّعرِ.. كذلك احترافية الأدب وأصوله المُتعلقة بقوة الخيال والمعرفة واللغة، «ثلاثية الإبداع وسبب إثراء أي عمل أدبي وبنائه جمالًا وبلاغة».

فور وصولهما إلى الغرفة بفندق الإقامة التي وفرتها لهما اللجنة المُنظِّمة، دار بينهما حديثٌ مطوّلٌ يملؤه التناقضُ:

- أليست دمشقُ ابنة سورية جنّة الله في الأرض.. أجملُ من تلك المدينة الكرتونية يا صديقي؟

يضحك مُندهشًا ويردُّ عليه ساخرًا من حديثه، بثقلٍ في نطق حرف الكاف:

- كرتونية! «أبوظبي ودُبي» وبقيّة الإمارات السبع تعتبرها كالكرتون.
- وما العجبُ في ذلك حتّى تهزأ من كلماتي!؟

كل هذا الزّخم في العُمران قِشرة حضارة، أمَّا المُدن في وطننا الغالي.. فتحملُ كلَّ الأزمنة، وتطوي في عبقها بجناحين أساطير تشهدها، وواقع يلمسها.

- أولًا: كل ما تراهُ أمامك ولم تشاهده بعد ليس وليدَ الصُّدفةِ، ولم يُخطَّط له عبر قرون وقرون، إنما الدهشة تكمُن في الفترة الزمنية القصيرة التي توحّدت تلك الدولة فيها، لتقوم على أنقاض صحراء بِكر، وهذا هو الإبداع المُعجز!

ثانيًا: وراء هذا المجد الذي تدعوه بالكرتوني حكاية عظيمة لرجلٍ شامخٍ مُحّبٍّ لأرضه.. وليس كبقيّة حكّام المنطقة، أسَّس لبنة كلّ هذا بحكمةٍ وفن فريدين.

ثُمّ يُقهقه بابتسامة، تُتبعها تنهيدة، فيسأله المعنى من هذا، والربط بينهما وبين الرجل المذكور ومن يكون، فيريحه من مظانّ الحيرة، ليقصّ عليه حكاية كاملة، أسماها «الصقر والمدينة الكرتونية»..

- «ينزل من على جواده، يربطه في إحدى النخلات التي غرسها بيديه قبل سنوات، ثم يضع له الماء والطعام، فلم يعتد أن يشاركه أحد في الاعتناء بالحيوانات، كما لم يفُته الاعتناء بالإنسان.

يجلس على صخرةٍ واقعةٍ في مساحة شاسعة من الرّمال العذراء، لمدينة عذراء سُميت «دُبي». يأتي صديقه من دولة عربية شقيقة، «أمير وملياردير ورجل أعمال في آن».

يستقبلهُ بمحبّة.. ثم يُخيّره بين الجلوس في الخيمة أو عند الطاولة أو معه على الصخرة، يختار أن يجلسا على الطاولة للنقاش في مجموعة أعمال مُشتركة يهمُّ أن يُنجزها معه ومع بلاده الفتية حديثة النشأة.

يسألُ الأميرُ الشيخَ الجليل:

- أين صقرك؟

الشيخ الجليل:

- انظر فوقك.. ستجده.

رجل الأعمال:

- يا الله لماذا أطلقته على هذا النحو إنه يُحلِّق عاليًا على غير العادة.
- نعم، إنه يحاول الوصول إلى عنان السماء كأفكاري تمامًا، ولهذا أدرّبه على اجتياز الآماد.. فلربما يأتي يومٌ لا يستطيع أن يُحلق فيه

حتّى لمسافة قصيرة.

- لقاؤنا هذه المرة مختلفٌ تمامًا عن سابقيه، كأنك تفكر في أمر ما لا أعرفه ولم نتفق عليه فيما مضى.
- صدقت. لقد غيَّرت وجهتي وتفكيري كليًا وسأتجه إلى عالم آخر وأعمال أخرى غير التي قررت أن أشاركك فيها.

يُحدّق إليه، تنتابه الدهشة ويبدو عليه الغضب، يُنادي على خادمه ليحضر له بعض الماء.

يحضر.. يشربه مُتمالكًا غيظه مُبديًا له بسمة مُصطنعة منفيّة من جدار القلب.. ثمّ يسأل عن السرّ الذي من أجله فكّرَ في فكّ الشراكة والمُخطَّط الذي سيلي ذلك؟

يشعر الشيخُ بالخلجات المضمورة في صدر الأمير، لديه حكمة وفراسة يستطيع من خلالهما أن يُقدِّر حجم القول الواقع في الأنفس وما تُظهره الملامح والعيون.

يضحك كي يمتصّ غضبه ثم يبدأ شارحا كلّ ما استخار فيه ربه وتوصَّل إليه عن قناعة ورضا:

- خُلقنا في الحياة يا عزيزي لا لكي نعيش فيها ونلهو مرحًا طولًا وعرضًا، ربما من حقنا أخذ قسطٍ من حظنا فيها، لكن الأصعب أنه حين يمنحك الله كل هذه النعم بالإضافة إلى ثروة عظيمة من النفط قد أرسلها لنا ولكم.. أن تحافظ عليها وتضعها حيث يجب أن تكون لا حيث يحب غيرك.

قاطعهُ الأميرُ مُستهجنًا:

- كأنك تعنيني وبلادي وحكومتي بالأمر؟

بابتسامة سلام وثقة يرد:

- بل أعني نفسي أولًا قبل أن أنصحك وغيرك.

- تالله إن ما تضمر لعظيم، قله رحمك الله فإني في شوق.

يُقهقه كونه أثار فضوله:

- هو كذلك، بل وأعظم مما تتخيّل، أحلم بأن تتحول هذه الصحاري في تلك الإمارة وكل الإمارات المُتحدة إلى قمم شهباء تفوق في حداثتها ما عند كل بلاد العرب والعجم، أن تأتيها كل شعوب الدنيا حاملة إليها ثقافاتها المُتعددة بل وتراثها البائد والحالي.

أحلم أن لا تضيع ثروات البلاد في الملذات فحسب وأن لا يكون شعبي مُجرد واجهة مُعرَّاة، ولعبة في أيدي الإيديولوجيات والتقلبات العالمية، بل تكون له ثقافته وعلومه، أن يُحيي ما فات في ثوب الحاضر وما هو آتٍ.

- كأن سموَّك أيها الأمير الشيخ تبحث عن مدينة فاضلة، لم يفعلها أفلاطون، أتراك فاعلها في عصر اقتناص الفرص هذا والسرعة المطلقة التي لا تدعك حتى تأكل وجبتك في هناء؟!

- لا أطمح في مدينة فاضلة خيالية تظل حبيسة في قلب شخص واحد أو مجموعة، بل هي مدينة تسعى للتفاضل، فإن وصلت ستصل بكل الدنيا إلى النور وإن لم تصل فحسبي أنني قد حاولت.

فكّرت مرارًا وتكرارًا في الأمر وما عليَّ إلا أن أطبق هذا حتى يوفقنا الله بعد ربطنا بين القول والفعل.

بوجوم يسأله:

- وما هي خططك يا صديقي؟
- وهل ستكون معي في ذلك؟
- سألتك عن الخطة فأنت تحدثت عن العناوين العريضة ولم تبح بجوهر ما تنوي فعله!
- أولًا: بناء مدينة عالمية وتتبعها في ذلك كل الإمارات.

ثانيًا: إنشاء صندوق مركزي إنساني لفقراء ومرضى العالم الذين يُعانون تردّي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية.. بعيدًا عن مُخططات السياسة وحساباتها الفردية النرجسية العُنصرية.

يُقاطعه:

- لكنك في ذلك ستبتعد كليًا عن الخطة التي وضعناها من قبل كمجلس «تعاون خليجي»، وقد يؤدي هذا لإفساد العلاقات بينك وبين الحكام العرب، بل وبين العالم بأكمله!
- كفانا تضخيمًا لثرواتنا على حساب شعوبنا وحقوقها في حياة كريمة عزيزة، بهذا فقط تُحكم الشعوب. لقد كفرت بكل ما تؤمنون به من تعاليم الرأسمالية التي تجعلنا كمصاصي الدماء تمامًا، أهذا هو الإسلام؟

يظل صامتًا يُحملق إليه مُتعجبًا، فيُتابع الشيخ حديثه..

- أزيدك من القصيدة بيتًا، إن هذا الحلم إن تحقق بإذن الله.. سأعمل على تنفيذه في كل مدينة عربية تكون مُتعاونة، ليس فيها أمثال حكومتك وأشباهك من الرجال.

يضحكان ويتبادلان الأحاديث الجانبية، فيخبره الشيخ مدى سروره لو أخذ بنصحه وتركَ ومَلِكَهُ سياسة القطيع، وأن تكون تجارتهم تنمية البلاد وتحفيز العباد لا إنشاء المحطات الفضائية التي تُشيع الخلاعة وفنادق العُراة.

هُنا يشعر الأمير الصديق بالضيق مما سمع ويشرع في الانصراف فيقوم ويسير خطوات بعدما استأذن من الشيخ بحجة تأخره عن موعد الطائرة.

لافتًا نظره إلى:

- آمل يا سمو الأمير.. أن يُنفذ هذا حقًا حتى لا تخسر أموالك

وشعبك فيما قد لا يدرّ عليك إلا الحسرة، ماذا لو أتت ريحٌ عاصفة أو حربٌ مُستنزفة، سيطيرُ كل هذا ويُصبح حطامًا!

يبتسم الشيخ فيقول بأريحيّة:

- إن كنت ترى أفلام كرتون أو لا تراها فلا بدّ أن تراها لسبب ما!

بدهشة وفضول:

- ما هو؟!

- الحركة في تلك الأفلام مبنية على ما ستفعله في كل لحظة بسرعة مُتناهية، لا في ما سيقع في المُستقبل البعيد، هكذا ستكون كالفيلم الكرتوني، مدينة كرتونية عظيمة سمّها ما شئتَ، لكنّها ستكون! بعد حين ستأتي إلى تلك الأرض في زيارتك القادمة أو بعد القادمة لأنك لا تكرر رحلاتك إلينا إلا بعد أعوام، فمُنتجعات أوروبا تسرقك منّا، وستجد نفسك في حاجة للعيش هُنا أبد الآبدين، أما عن شعبي فسأعمل برعاية المولى على أن يكون له قلبٌ وعقلٌ حقيقيان إنسانيان يتسعان للكون كله، وسترى.. ولتبلغ مملكتكم وملككم سلامي الحار».

(3)

1

ترتمي في أحضانه الدافئة كرمال بحرٍ تتلحفُها الشمسُ بآشعةٍ مِن حرير..

تودُّهُ من الشروق للغروب، ترتجفُ شوقًا، ترتعشُ ألمًا، يتساقط دمعُها مُنهمرًا، تُبلل ملوحتهُ جلبابه الأبيض الأنيق جهة قلبه، يتفاعل نبضه مع حرارة القطرات الهاربات من أحداقها، تحملُ في طياتها كثيرًا من العتبِ.. المُقابل منه بالأسئلة الحائرة الجامحة؛ يبعدها عن صدره محاولًا احتواءها..

خاصة أنّ بعضَ مَنْ كان في صالة استقبال مطار» أبو ظبي» بدأ ينظر إليهما، بنصف عين فضولية تارة، شامتة أخرى، زائغة ثالثة.

- أتبكي ابنة العقّاد؟ ويملأ الحُزن وجهها الصبوح؟

وينالُ منها الأسى إلى هذا الحدّ الذي معه تصعُب الضحكة، غير قادرة على اقتحام حصونه المنيعة، فتندثر ولا تبرد؟

ترد عليه ببطءِ طفلةٍ لا تعرفُ من الهجاء غير حروف ثانوية، بتلعثم خجلة:

- ومتى عرف السرورُ سبيلًا إلى أختك ريما يا ابن العقّاد؟

يتسمّر مكانه، تدهشه إجابتُها التي غيّرت اعتقاده حول كونها تفتقدهم ليس أكثر، ظلَّ لحظات ينظر إليها من خلال تصوّره القديم عنها، الذي تركها عليه قبل عقد من الزمن، مُسافرًا مع أبيه إلى الإمارات

العربية المُتحدة بلا عودةٍ تُذكر.

طفلة تقترب من الملائكية، تملأ مُحيط الأسرة الفارغ الممل بكثير من الضجيج المُحبب.. ضحكتها كانت ميزان السعادة عندهم، وصمتُها يُسدلُ عالمًا كئيبًا مليئًا بصور قبيحة عن القهر والتعاسة.

والآن لم يقف على الحقيقة الكاملة لما هي فيه، غير أنه قرر إنهاء هذا الموقف بأيّ شكلٍ، حتى لا تسوء حالتها، فيُصعِّبُ مِن مَهمة السيطرة عليه.

تبسَّمَ آخذًا بيديها، وبالثانية انحنى على حقيبة السفر قائلًا بهدوء وذكاء:

- حبيبتي علينا أن نرحل الآن من المطار، السائق ينتظرنا في الخارج تأخّرنا عليه.

2

وصل بها إلى البيت الذي يقيم فيه مع أبيه، سيطر الشوق على الضَّنى، كما أنستها المسافات جحيم الواقع الذي تعيشه، أرادت أن تتلذّذ باللحظة الراهنة فحسب، لعلها تتحول إلى برهة غير عابئة بما ستشعر به فور انتهاء إجازتها التي لم تبدأ بعد.. حين تقفل عائدة إلى الشام.

حاولت العبث مع سطوة السعادة الوقتية لتجبرها بعد عناء مُستعِر لهيبهُ إن آثرت الرحيل على البقاء في حياتها كجزء من سُنّة كونية ثابتة.

وألا تعصف بكل شيء جميل سيغمرها فرحًا هُنا، أو أقل تقدير لتصنع لها صندوقَ ذكرياتٍ أنيقٍ مُحصَّنٍ من نوبات الحُزن واليأس.

أول ما واجهها حين فُتحَ الباب هو صدمة الفراغ.. فقد توقّعت أن تجد أباها في انتظارها، إلاّ أنهُ للمرة الثانية يلطمُ أحاسيسها النقية

وشوقها اللامحدود بالدهشةِ النابعة من عدم إشباع ناظريها وحضنها من حضوره.

تجاوزت لهفتها بعذر عقل يحملهُ حكيم أراد جمع شتات مَن يُحِب، رُغم ارتكاب الآخر مذبحة كارثية التقصير والإهمال في حق ما بينهما من عشق. لتُمكّن لهفتها له، وخيّرت بينها وبينه بأملٍ من النور والصبر، فولّدت وبقوةٍ حُجّةَ الصمت الزهيد الذي لم تلق غيره.

راحت تبحث عنه بنهم، في كل الأركان، تغلقُ بابًا وتفتح آخر، تدخل وتخرج من مكان لآخر، البسمة المعقودة على وجهها بدأت تتخذ من الانزواء خليلًا.

سطَّرَ في روحها خطوطًا من الضيق والأسى، وسُرعان ما اختفت أي ملامح بريئة صادقة مع ضياع فرحة اللقاء به مُجددًا.

باديء ذي بدء كانت تظن أن امتناعه عن الترحيب بها عِلة مُسببة بالانشغال المُنهك في عمله، لكن الأمر غدا الآن مُختلفًا.. عندما تعبت في الوصول إلى بقية أثره مع محاولات الاقتفاء العديدة والتي باءت بالفشل الذريع.

ركضت نحو أخيها تبتغي حقيقة مُختلفة عن التي استبدت بوجدانها، فسألته وغصة ما بحلقها تنتظر توكيدًا ملموسًا كي تصدر أمرًا لردّ فعلٍ جموحٍ لا تعرف كيف يُمكن أن تكون عواقبه غير الحميدة، ترتقبُ جهرًا وسرًّا:

- أين العقَّادُ الكبير؟ أرجوك لا تخبرني أنه قد مات!

ردَّ عليها وهو يبتسم ممازحًا:

- ألا يكفيك المؤونة الصغير؟
- بلى حفظك الله لي أخي، لكن...

لم يدعها تكمل وقد ظنّ أنها زعلانة لأنه لم يكن في استقبالها، لم يغُص بالدرجة الكافية في أعماقها ليُدرك أنها ذهبت بخيالها المُتمرّد إلى أبعد من ذلك.

- أرجوك يا صغيرتي التمسي له المحبة، لقد حاول جاهدًا أن يوفّق بين أوقات فراغه وساعة هبوط طائرتك أرض المطار، إنه الآن في أستراليا.. في مهمة عمل.. يومان على الأرجح وسيعود منها.

تنفّست الصعداء، تُضيِّع أخيرًا مُندثرة أفكارها السوداوية، تضع أحد كفيّها على صدرها متمتمة بالحمد، فيلتفت إليها وهو مُنشغلٌ عنها بتحضير غداءٍ دسمٍ لها ويسألها:

- هل قُلتِ شيئًا أختاه؟
- مُطلقًا، أنا فقط أدعو لوالدنا بالعودة سالمًا من رحلته.

ابتسمت له، وتوجهت نحوه وطلبت منه ترك ما في يديه لتعدّه بدلًا منه.

امتنع لكونها ما زالت مُرهقة من السفر، ثّمَّ سرعان ما استسلم لإغرائها.. بعد أن ذكّرته بطعام أمهما الشهي في أيام الشام الخوالي.

3

معكم من سورية باسم مارديني في إحدى قصائده المُشاركة بمُسابقتنا الكبيرة شاعر المليون..

حبيبتي ما عادَ حبٌّ يُذكر
قتل الورد صار أكثر
لا تسألي عنه نبض القلوب
حتّى حكايا الحُلمِ المُزهّر
هذه الدنيا مقابر لنا

جنائزها الحزينة فزعٌ مُقرّر
مَنْ قال إن العشقَ جنّة
كيف والصَّرحُ الجميلُ دُمِّر
من قال إنّ الرُّوحَ تحيا
أنَّى والصفدُ في جيدها جُنزر
لا تأتيني وفاءً عودي جبرًا
احفظي حُبَّكِ لئلا يُهدر
أو باكية تجرِّينَ شكوى
قسوتي، فأنا لأجلك بكِ.. أغدر

يُصفِّق له الجمهورُ بحرارة، أمّا ريما التي كانت بينهم فظلّت لحظات عاجزة عن الحركة والنطق، فموهبته وكلماته لمست كيانها، على الرغم من أنها قارئة جيّدة للشعر، لكنها أول مرة في حياتها تحضر أمسية تسمع فيها الكلام وتلامسه وجهًا لوجه.

غاصت قليلًا وسرحت بعيدًا عن الواقع، وخزها أحمد العقاد أخوها سائلًا إياها:

- ألم يعجبك شِعره، أليست الأمسية كلها حلوة، أم وجودك هُنا لا يروقكِ فنرحل؟
- على العكس تمامًا يا أخي الأمرُ ممتعٌ للغاية.
- إذًا لمَ أراكِ مُسافرة كالبحَّارِ التائهِ بشراعٍ مُغتربة.
- ما هذا؟ أراكَ شاعرًا.. لِمَ لا تشارك هؤلاء؟
- إنها بضع كلمات هل حوّلتِها شعرًا، ليس كلَّ مَن يُسْمِعُ الآخرَ كلامًا من عسل، وغزلًا راقيًا يُصبح فحلًا في الأدب.
دعينا من هذا، ما أجبتِ على سؤالي.. ما بكِ؟

- لا شيء يا أخي، الجو رائعٌ وهو جديدٌ عليّ، هذه كلّ الحكاية، تعلم أنا محرومة واليوم عيدي..

تَظهر مُقدّمةُ شاعر المليون تحت الأضواء الكاشفة وتطلب من الحضور بطريقة مهذبة الإنصات كي يتقدم المُتسابق المنافس التالي للمسرح، ويلقي قصيدته، تهمّ في تعريفه على الجمهور لكنه يسرق منها الحضور ويقول لهم:

- هذه سابقة جديدة في هذا البرنامج لكنني أعتز بصديقي الشاعر باسم مارديني وبشعره لهذا أتمنى حقًا أن يحصل على الجائزة وحده، والآن أنا معكم مازن زيدان وقصيدة «أحيانًا»:

أحيانًا أنا هُنا وهُناكَ
يفتّشُ طيفي بشغفٍ عن مداكَ
يجتاز جموعَ الألم والسراب
يصبو في لقاك، يهرمُ بجفاك
أحيانا أركضُ وتحت أقدامي
وهمٌ، أمنِّي النفسَ برؤياكَ
أحيانا أبقى بلا أملٍ
لوعدك.. أبدًا لن أنساك
بين الوجوه الكئيبة العابسة
تعيشُ بداخلي عزيزة بسماك
لا أقدّمها لأحدٍ مهما تجلّى
وتحلّى، فأنا لا أريد سواكَ
أحميها حتى من نوباتي الحزينة
أراقصها كي تبقى في حماك

أحيانا أعيش منفيًّا ولا
أجري عليها سلطة الهلاك
أموجُ كالموج اليتيم، أهيمُ
في عصفِ أليم والخصم عيناك
فلمَ شوقي لك واللهفة
جراح موغلة وأشواك
ولم أصل حُبّي فيكَ والوفا
تراها رهنًا أبديًا يداك
أحيانا أحتاجُ الشعور بأنكَ
ملكي تحفظني، وأرنّمُ هواكَ
نقيم معًا تحتَ سحابة عشق
واحدة، أمطارها تلحفُ سماك
قمرها أنا أميرُ شِعرَهُ
الشّادي، لولاه ما أنار ضياك.

(4)

- يا الله ها نحنُ أخيرًا نلتقي، بعد سنين من وجد الغياب والغربة، لماذا كل ذلك العناء، ولِمَ لا تجمعنا الأرض الواحدة بكل ما فيها وعليها وإن كان العذاب، وسماء نستلهم من زينتها وصفاء مداها هدأة الروح. أمَّا عن رغد العيش فسنحصل عليه لا محالة من خلال القناعة والصبر اللذين أوصانا بهما الإله الأوحد..

راحة البال وسكون الجوارح اللذان إن أسلمت لهما الحال فستجني عطايا من السعادة الدائمة البِكر، أما ما نحنُ فيه الآن فمجرّد قشرة غرائزية مزعومة، عاجلًا أم آجلًا، ستطيحنا.. ولن تبقى لنا سوى عشرات الذكريات المؤلمة المصحوبة بتساؤلاتٍ أكثر ندمًا تغرسُ في اللحظة ألف آه.. وأملًا مقطّعة أوصاله.. ميتٌ ذكره مُنذ أن أهملنا شكواه المملوءة حروفها بكثير من استغاثات العودة قبل قدوم اللارجوع!

الأبُّ العقاد يُفنّد شتات ابنته ياسمين التي لم تعقد فرحة رؤيتها له لسانها فتُكفهِ ولو مؤقتًا بوح جموح استبدّ بها طويلًا:

- وهل هناك أحد من البشر يُحبّ أن يضع كيانه الضعيف الهش أمام ريح عاتية؟ لقد أُجبرنا على هذه الحياة ولا خَيار آخر لنا. انظري يا دُرَّتي الفريدة الجميلة، القمرُ يَطلعُ مساءً وبزوغ النجوم مثله وكذلك يفعل السكون في الكون، لا يكون إلا ليلًا، الشمس نهارًا.. العمل والشقاء صباحًا.. من يُمكنهُ تغيير تلك السُّنن؟
- إلى أي شيء تريد أن تصل يا أبي بتصريحك هذا؟ مع كامل

احترامي لرأيك ورؤيتك إلا أنك أشبه بالذي وضع الماء في إناء مثقوب رغبة في المحافظة عليه من التبخُّرِ أو التسرّب، مع علمه تمام العلم بالعِلّة. شتّان بين ما نختاره وما يُختار لنا، ما ندبره ونريده وما يُدبّر ويُراد لنا، آية النهار وصنوها الليل إنما هما جوهريّتان أكثر منهما مكانيّكتين. فمن الممكن أن تقطع مسافة جغرافية بطائرتك ليصبح نهارك ليلًا والعكس، إنك لست مجبورًا أو مقيدًا بقانون التسخير لتفعل الأدنى لا الأرقى.

الإنسان بوجه عام كائن يتحجج بالمسائل الظرفية، يواجه حياته المُنصرمة بالحُزن على الفرص التي ضاعت والآنية بترقب وخوف شديدين، من لفظة واحدة.. المجهول! وهي فضفاضة أكثر منها دقيقة، وهي تسويفية أكثر منها فعلية، وهي مُعجِزة هالكة أكثر من اتسامها بالحذر والحيطة ونشاط السّعي المتوكل لا المتواكل وهو إيمانٌ مُتكامل، نجاحٌ مبينٌ للمتحلّي به وفشلٌ ذريعٌ لغير المُستبصر بضيائه.

- أنا سعيدٌ جدًا لأنك على هذا المستوى الناضج فكريًا، لكن لماذا تناقضت مع عقلك في مَناحٍ مُتسعةٍ من كلماتك، قد يكون العالم بشأن الثقب في القارورة أذكى مما تخيلتِه، ربما أراد سقي الزروع أو إرواء ظمأ الحشرات التي يقضي عليها جحيم الصيف وهي تعيش في جحور أكثر ضيقًا من دائرة صغيرة تصنعها بالشراكة سبّابتك وإبهامك، ربما علم بخيرية ما لا نعرفهُ بنظرتنا الظاهرية.
- نعود إلى هجرتك وأمي فضلًا.
- نعود، لكن هوّني عليك يا حبيبتي، لا أفضّلك وأنتِ عابسة ثم أنها ليست هجرة إنما غربة يومًا ما ستنقضي.
- ههه، وما الفرق بينهما؟ لكما حوالى عقد على هذا الحال.. بل على العكس تمامًا فلو كانت هجرة لكنّا معكما فيها، أو على الأقل

نفقد الأمل في عودتكما.

- الرزق والحاجة.. تعلمين جيدًا كيف حالنا في سورية.
- الرزق! تعني المادة يا أبي، فكلُّ نعم الله رزق لكننا نبحث عن أدناها..
- أتدرسينَ الشريعة الإسلامية يا ابنتي أم الفلسفة، رأسك هكذا يُصقل بكثير من الأشياء المُقلقة غير المُريحة.
- ولماذا لجأت إلى هذا التشبيه يا سيدي؟ أمِن الدين أن نصمّ آذاننا ونعمي أبصارنا عن كل ما يُحيط بنا، ويشتّتنا تشتيتًا أبديًّا، خاصة إن كانت هذه الأمور مصيرية ومستمرة في إخراج آخر نفس وآهٍ لنا، أو بسمة في الحياة؟
- أقول لك مُجددًا إنني كنت مجبرًا على ذلك، صدّقيني.. كيف كان بإمكاني أن أؤمّن لكِ ولأمك ولأخيك، قبل أن يلتحق بي للعمل معي، متطلبات الحياة الأساسية وضروراتها، أقصى ما كُنّا نأكله الزيت والزعتر.. اللحم كان استثنائيًا في الأعياد التي لا تأتي. كثيرًا كان الدَيْن يخنقني كما لو كانت روحي تصل إلى حلقومي، لم أنم مرة في سلام وأمان، لأنَّ كلَّ كوابيس الدنيا تجتمع معي في حلم واحد، وبدلًا من أن تهجع روحي هادئة مطمئنة ما بين الحياة الدنيا والآخرة، كانت تُصلب على بُرجٍ عالٍ من أجل أن يُمارس الإنس والشياطين عليها لعبة الرماية بالقوس والرُّمح. عن أي عيش تتحدثين يا ابنتي؟ لقد كُنتُ في دمشق دمية ميتة في ثوب بشريٍّ.
- وهل حصلتَ على حياتك الآن؟ هل استرددت جُزءًا من نبضك هُنا؟ أم ما زلت تشعر بنفس الصور الهلامية لعرس الأشرار حول نزفكَ؟

صمت قليلًا، بدَت ملامحهُ لها حزينة مأسورة في صراعات شاحبة المعالم مقسومة إلى شطرين.. الكذب المُصطنع على نفسه محاولًا الاقتناع به ولو وهمًا، والاعتراف الكامل الكامن في وجدانه بأنه فشل باقتدار في لغز المُعادلة.

ردّ عليها بابتسامة مُزيّفة:

- الحمدُ لله.. الحياة هُنا إلى حدٍّ كبيرٍ راقت لي.

ابتسمت بازدراء، لكنها أظهرت خجلًا وانتقادًا ساخرًا منه مُركَّبًا في ذات الوقت، غير أنها تملّكت الكثير من الشجاعة لتقول لهُ:

- أنتَ تُكابر يا والدي، لم تحصل هُنا على أي سعادة تُذكر. لقد خلّفت زوجتك وراءك فأين غذاء الغريزة؟ وأهملت فلذة كبدك أنا. كنت قليل الاتصال، شحيح الكلام إن يومًا تذكرتنا وهاتفتنا.

ذات مرة قرأت لك في إحدى خطاباتك إلى خطيبتك الأولى التي لم يكن لك فيها نصيب.. عدم نيتك المُطلقة في مُفارقة الشام ولو حمّلوكَ الذهب في أيّ بُقعة كانت، فما السرُّ في أن تتحوّل رغباتنا وأمانينا العقائدية الراسخة فينا فجأة وتحيد عن سراطها إلى آخر معوّج مجهولة أهدافه؟

لا أجدُ مبررًا لهذا ولا لرجل يكسب النقود على حساب ما هو أهم منها. كلُّ شيء نسبي! صحيح أننا الآن لا نأكل الزعتر والزيت باستمرار بل أصبح الشواء لا يتوقف ليل نهار في بيتنا، لكننا افتقدنا جميعًا ما هو أجمل، افتقدنا نبض القلوب..

السَّعادة تلك التي كُنتَ تورثها لنا.. الحميمية التي ملأت أرجاء بيتنا الصغير بالمرح. ألم تُسمّني كناية عن مزهريات الياسمين الأبيض الطازج في باحة بيتنا الدائرية الصغيرة التي تُطلُ على السماء شامخة مثلها؟.. تطمح باستمرار كما النخل في معانقة سفوح الكون.

أتذكرُ القصة الأسطورية التي رَويتَ لي أحداثها بصدق وكنتُ شغوفة كما لو أنها حقيقة لا خيال..

إن عقود الياسمين كوفئت من قبل الشمس والقمر بهذا اللون، لكونها الحاصلة الوحيدة على جائزة أنقى وأصفى قلب، وذلك لتمنّيها حين تكبر وتصبح الأرض تحت أقدامها أن تفرز عطرها الزاكي في كُلِّ سحابة ستمطر أو تزور اليابسة بخفّة دونَ هطول، كي تمنح عشاق هذا العالم رائحة لا مثيل لها بدلًا من الحرّ والأتربة الخانقة.

استحالة أن يكون كل هذا سدىً، أين التضحية؟ لماذا إذًا من اللحظة الأولى إلى الآن لا تشركني وأمي في حياتك هُنا؟!

يقاطعها:

- هل ذاكرتك مشوّشة؟ ألم أعدك فور انتهائك هذا العام وحصولك على شهادتك العُليا، أني سأستقدمك لتعملي هُنا.
- دونَ أمي! ما ذنبها هذه المسكينة أن تفقدنا نحن الثلاثة وكأنها ثكلى، لتعيش وحيدة دون عون.
- غريب.
- ممّ؟
- أنت التي تقولين ذلك وتدافعين عنها وعن حقوقها في الحياة وهي التي لم تعاملك بالحسنى واللطف مرة واحدة، كما كنت تشتكين، بل كانت دائمة الغلظة والقسوة معك.
- هذه نكرةٌ وذاك حق، ولا يُمكن القياس أبدًا بهذه الصورة الضبابية. وكيف لأمٍّ وزوجة مثلها أن تقوم بكل أدوار العائلة: الأب.. الأم.. الأخ.. المُربيّة، أليس هذا عبأً ثقيلًا؟

لا أظن أنَّكَ شخصيًا تقوى على تحمّله يا أبي لو كُلِّفتَ به، ورغم ما أعانيه معها إلا أنني في نهاية المطاف أترجم كل هذا على أنّه محبّة

وحرص.

أمي تُريد المثالية بطريقتها وإن كانت بالصورة الخطأ، ولا يجب أن نوجّه اللوم لها وكلنا مسئولونَ مِنكَ، بل ما هو غير مفهوم هو كيف تعيشَ مقتنعًا بهذا النهج المجحف الجَافُ في التعامل معنا، ومعها بشكل خاص.. تلك إذًا قسمة ضيزى.

- ياسمين ابنتي..
- اسمي ريما! لقد مات اسمي الثاني بإهمالك له.
- إنها ليست زوجتي، حتّى أنتِ وأخوكِ لستما...
- ماذا تريدُ أن تقول، أكاد لا أفهمك، عفوًا لم أسمعك جيدًا، أعِدْ فضلًا، ولتكن كلماتك أكثر وضوحًا وصراحة.

صمتا لدقيقة واحدة، همّ بشرح الأمر لها وأنه ليس كما فهمت، فأشارت عليه بالتوقف وعدم الاقتراب منها ولمسها.

جمعت بعضَ أشيائها الخاصة بالتنزّه وخرجت إلى الشارع وهي تنتعل حذاءها سريعًا من شدّة الألم المستوطن في قلبها كطعنة خنجر مسموم.

ولّد الجنونُ صورًا في خيالها المصدوم من تصارعات ضبابية قاتلة كما لو كانت عارية في ظلام سماؤهُ غائمة وأرضه مقلقة وهي هائمة في المجهول اللامحدود والهالك، في انتظار غدر قطّاع الطرق أيّ لحظة للوثبِ عليها دفعة واحدة.

لم تلبس حجابها، خرجت إلى اللامكان.. رغم أحزانها بدت حلوة كعروس ليلة الزفاف.

حاول الذهاب معها، فطلبت منه في هدوء عدم اللحاق بها وأن يدعها وشأنها، وعلى الرغم من كل ذلك أجبرته أن يهدأ وأكدت له أنها

بخير لا محالة.

انفجرت في البكاء، ومشت في الطرقات قرابة غروب الشمس، تردّدت أقدامها المُرتعشة لجسد مُرتعد في حملها، ولولا إرادتها في تفريغ انفعالها الذي لا تعلم كم يتطلب منها سيرًا وإلى أي حدٍّ وقصد، لكانت وقعت مغشيًّا عليها.

كانت أشبه في حركتها بدخان أحد الصوامع التي تصنع الطوب الرملي في كثافة شديدة لامتلاك العامل جهدًا كافيًا لضخ المكان بالمواد الأولية لصنع القالب الأحمر، وأخرى خافتة شحيحة إن كان العامل كسولًا مُرتخيًا يبحث عن حجة في التعب كي لا ينتج.

هي الضدَّان معًا، إنها تظهر جزءًا مما في نفسها، كلما همّت في الصراخ تصمت وتكتمه ألمًا، وكلما رغبت في الموت حتفًا تُحارب بأسها بأدعية تُثبّت روحها.. فقوّة الإيمان فيها أكثر سطوة من النازِعات شرًّا.

(5)

1

يخرج باسم مارديني مع مازن زيدان بناءً على رغبة الأخير الذي شعر بالاختناق من ضيق الأماكن المُغلقة، طاوعه دون تفكير لأنه أيضًا يُحبُّ الآفاق المفتوحة المُطلة على الطبيعة المُطرزة بجمال صنيع الإنسان من مبانٍ شاهقة بطرازها المعماري المميز، والشَّوارع الرحبة النظيفة، التي تنتشر في كل ركن من «أبو ظبي» والتي تدلُ على إخلاص فني وفكري وتنظيم لبُناة هذه الساحات والمشرفين عليها.

يستريحان على مقعدٍ من الرخام المُطعَّم بطبقة زجاجيةٍ ناعمةٍ.. تشع منه بعض الألوان التي تضيء ليلًا بزهو وبهاء وكأنها مصنوعة من أحجار كريمة أو مواد فسفورية أو من كليهما.

يطلُّ هذا المقعد الأنيق على بحيرة صناعية صغيرة محمية يُمنع الصيد والسباحة فيها، تُحيط بها المساحات الخضراء الغنيّة بالزهور والورود النادرة من كل اتجاهٍ، لتُعطي انطباعًا آمنًا لتلك الأسماك التي لا تَجدُ غضاضةً في اللعب على سطح الماء والطير بحرية، قافزة مِن وإلى الشطآن لعلمها التام أن هذه البحيرة والروضة المُحيطة ملكًا خاصًا لها بصكٍّ شرعيٍّ من الوطن والمواطنين والغرباء، ممن يمتلأ المكان بزحامهم وفرحهم وكلامهم الصاخب.

يستفزّ زيدانُ صديقه مارديني الذي يُجيد الهدوء والتفكّر في حضرة الطبيعة بارتجاله شعرًا، في بداية الأمر لم يتفاعل معه وظنّ أنهُ يتدرب

على إلقاء إحدى قصائده التي ستكون في مراحل مسابقة شاعر المليون التالية.

لكنه عَدَلَ عن صبرهِ وتركه يتفرّد بالنظم وحده، خاصة حين اجتمع حولهما لفيفٌ من زوَّارِ المكان الذين علموا بحضورهما لكونهما أصبحا مشهورين وقد استحسنوا شعرهما في الأيام الأولى لفاعليات المُسابقة.

نهضَ مازن زيدان واقفًا أمامه بشموخٍ، فصفّق له:

- نعم هذا هو صديقي الذي عهدته، لقد أعاد لنا أيامنا الخوالي في غوطة دمشق وريفها.

يضحك جهرًا ويردُّ عليه مُشمِّرًا أكمامَ قميصِهِ الرَّمادي الكلاسيكي:

- أنتَ أولًا لأنك الطالب، والبيّنة على من ادّعى، فهيّا هات ما عندك أسمعنا لحين أنشِّط قريحتي.

يكوّن الناسُ دائرة حولهما، فرحين بهذا التحدي فهي أجواء فريدة من نوعها، ليبدأ:

أيها النازل فرحًا ديار زايد
طيَّبت أميرًا ماشيًا أو قاعد
هُنا تُقامُ مآدبُ العِشقِ زمنًا
الكرمُ شيمتهم والحبُّ والد
أرضٌ أجرى اللهُ فيها نورًا
فالجمال آيةٌ والشَّعبُ حامِد

يصفقون بحرارةٍ بعد هذه المُغازلة، فيسرقُ باسم مارديني منه البُساط:

سَلِ الأممَ عن رجلٍ مثله

تعجزُ لسان المُجيب وفكره
هو الشريفُ في قومهِ العَلي
إذا أعطى اكتفيت أبدًا بجوده
هو القويُّ الناصِرُ للضعيفِ
إنْ هبَّ لباطلٍ محا جذره
زايدٌ أسموهُ خيرًا، ظلموه لأنَّهُ
حوى الدُّرر النوادر في قلبه

أثنى الحضور عليه، وتغامز بعضهم بأن باسم أجود شعرًا، ومال بعضهم الآخر إلى مازن، إلا أنهم جميعًا حيّوا فيهما هذه الروح الألقة بينهما من جانب، ومن آخر «محبتهما الخالصة لأبي الإمارات والإماراتيين الشيخ زايد رحمه الله».

ثُم طلبوا منهما مُناظرة ارتجالية أخرى عن موضوع الحُب والغزل، خاصة أن معظم الجمهور كان ثنائي الهوى رجلًا وامرأة، حبيبان.. زوجان.. يحملان أرقّ المشاعر، يُرحِّبُ باسم ويبدأ هذه المرة:

أراكَ في خيالي أجملُ مما أراكَ
تجمعُ من الحُسنِ بذور العُشَّاقِ
فنساءُ الأرض لم يكن دونكِ شيئًا
وأنا لولاكِ ما عرفتُ حُبًّا سواك
فيا عُمري لا تغضبي في صمتي
لا تمنحي الغيرة حقّ شَّكِ وامتلاك
فعند هذه الحالة أنا أفكر فيكِ
كيف أمنحك السعادة كلّ ما هُناك

قذفته النساءُ الحاضرات بالورد الذي معهن مُبتسماتٍ، فيتدخل مازنُ قائلًا:

- معشر الرجال المساكين سأرتجل فيكم شعرًا مُناهضًا لزوجاتكن، فصديقي استحوذ على ورودهن، وآمل أن أجد حماسة منكم كما فعلن مع باسم..

وهل بغيركَ في هذه الحياة أعيشُ
أغفو على الأرائك وأنت الحشيش
حين أمرحُ بدلالٍ بين الروضِ
أكون فراشة وأنتَ الأمن والشاويشُ
أنفق كما شئتَ مِن نقودكَ وجهدكَ
فأصبح ملكة وتشحذ أنت كالحرافيش
أحبُّكَ ولا تظنّ أن هذه نوبة هزلٍ
فهي الحياة وغيركَ «مليش».

ينتشي الرجالُ من شدة الفرح والغرور، يُطعَّمُ كلَّ ذلك بلمحةِ كيدٍ كاملة الأركان، يصيحُ نفرٌ منهم إعجابًا وإجلالًا بما ألقاهُ مازنُ زيدان، يشعرون بزهو الانتصار المؤقت المصحوب بثقة زائدة بددتها إحدى الزوجات الحاضرات نيابة عنهم جميعًا بقولها:

- هل تحسبونَ أنكم أحسنتم صنعًا، على العكس تمامًا، فتلك الأشعار التي زادتكم نشوة وعزّزت مكانتكم.. ما هي إلا دليلٌ على عظمتنا ومحبتنا ووفائنا لكُم معشر الرجال.

يتدخّل باسمُ مارديني مؤيدًا لكليهما:

- تالله إننا دونكن لا شيء، المرأة أصلُ الحياة!

يثور بعضُ الرجال معترضين عليه، غير أنه يطلبُ منهم التحلي بالصبر ليواصل حديثه، فيفعلون مجبرين..

أول ما فعله الأبُ آدمُ حين نزل الأرض.. أنه غدا باحثًا عن الأم حواء التي دونها لن تنفعه الأنهار الجارية والجنات البكر في الدنيا، فجمال الحياة مهما يبلغ لن يكون مثل الجنة السماوية.. لكن الأرض قبل أن يدمرها البشر كانت تسرقُ الألبابَ والعقولَ، وإن أردتم التأكد من قولي فاذهبوا باحثين عن مكان لم يمسسهُ بشر..

يُقاطعه أحدُهم ثانية:

- أيها الشاعرُ لا تذهب بنا بعيدًا بسحر ومعسول خيالك الجامح، عُدْ إلى الفكرة الأولى، فحواء سبب كل ما آلت إليه البشرية لإخراجها أبينا من الجنة من أجل تفاحة لا تسمن ولا تُغني من جوع، فكيف لها أن تكون هي المُكمِّلُ وهي المنقوصة في كل شيء، حتى أكثر أهل النار من صنفها؟!

يضحكُ ساخرًا مجيبًا إياه، مُفنّدًا كلماته:

- أولًا ليست حواء بمخرجة آدم من النعيم، وإن صحّ قولك فهذا دليلٌ على أنها أكثر كمالًا منه، لكونها في هذا الموضوع.. المؤثرة بالأمر والفعل وهو مُجرّدُ رد فعل.

ونزولها من الفراديس العلوية ليس السبب فيه الإغواء الثنائي من الشيطان لها ومنها لآدم، فهذه رؤية قاصرة جدًا تكلّم بها مُحبّو الإفتاء من فضاءات الخيال المريض.

إنما لكون الشيطان مُنذ أن رأى السيد آدم فوق أول سرير نام عليه إنسان قبل بداية الخلق.. حقد عليه من النظرة الأولى، لما تميّزَ به من جمال وتمتُّعهُ بتلك الرعاية الشاملة بدءًا من الله وختامًا بالملائكة.

ثم ما أتبع ذلك من أحداث وشواهد ملموسة، كعصيان إبليس

الصريح لأمر الخالقِ في السّجودَ لآدمَ، وهو خير دليل على أنه قرر أن لا يدعه يهنأ بعيش في الجنة، ثُمَّ أن الحقد كبُرَ في نفسه وأصبح لامحدودًا عندما وجد له خليلة يفوق جمالها الآسر ما متّع به نظره من ملائكة وحور تؤانسه، تحميه من نفسه، وتطيعه إن أمر.

فكان أول من حسد وتمنّى زوال النعمة التي بين يدي آدم، وكان أول من دبّر وخطط لإقصائه عن هذا النعيم وإبعاده عن تلك الراحة وكل جميل، فما كان من الله وهو العالم إلا أن فصلَ هذا بتحدٍّ كبيرٍ لأنه لا يعرف الظلم بل كتب على نفسه العدل.

فهيأ آدم وحواء لهذا الاختبار الكبير وأمهل الشيطان ليوم البعث، مع إعطاء الأوَّلينِ القوَّةَ الكاملة الكامنة لمواجهة الأخير، الذي لم يجد في نفسه إلا الكبر مُعرقلًا بشرِّهِ طريقَ الخير بدلًا من التوبة عن الكبيرة التي نَمَتْ في داخله حتى عُدَّتْ كارثة لا أمل فيها.

ثانيًا: لننظر جميعًا لحال الرجل مع المرأة إلا من رحم ربي، هي السَّراء والرخاء، شاكرة حامدة مِعطاءة بلا حدٍّ، لو غابت عن البيت الأسري ليوم واحد يُصبح صومعة مهجورة.. تعمّ فيه الفوضى ويصارعُ الموتُ الحياةَ حتى ينتصر.

أما لو حدث العكس بلا شكٍّ فإنها ستقوم بالدورين الأبوي والتربوي على أكمل وجه كأنّ شيئًا لم يكُن. وكم من امرأة طموح لا يقف زوجها إلى جانبها بل يكون حجر عثرة أمام نجاحها.. لنقص ما في نفسه أو لغيرة؟

كلاهما غير مُحبّب لأنه لا يُدرك أن رفعتها تعني رفعته، في حين أننا نجدها تفرح لفرحه وتحزن لحزنه، تدعمه في المشكلات، تتحمله وتقوّيه حين يعتريه عارض فكري أو اقتصادي في الحياة، تفعل كل هذا بكامل عزيمتها ودعواتها التي لا تتوقف في كل لحظة.

ثالثًا: أي عظمةٍ تلك التي تعيش بها المرأة؟.. لقد تخطَّت في تضحيتها الملائكة، وأي عُقدٍ وحدّةٍ التي تُعرقلُ مشروعَ الرجل في بناء حياة حميمة بسبب تلك النظرة التي يشمل بها المرأة بدلًا من الاحتواء.

أخيرًا: لو أن أكثر أهل النار من النساء فذلك لأن الرجال لم يعملو بجهدٍ ومحبّةٍ ورحمةٍ في انتشالهنَّ من جهنم! وبما أن معشر الرجال يمنحون لأنفسهم حقّ القوامة المُتفرِّدة بلا فهم عميق لمعناها..

فإني أرى أن من حق النساء أن يُحمِّلنَ يوم الحساب الرجالَ الكاملة عن كل شيء وقع لَهُنَّ في الدنيا وتكون حجة لا ثغور فيها، وتدخلهم الفراديس. وبهذا تصبح الجنة ملكًا لهنّ والنار أكثرها من الرجال!

ولأننا نضع أنفسنا دائمًا في المحل الرفيع ونقرر ونتأوَّل لمن الجنة ستكون ولمن النار، دون النظر بتفكّر في حقيقة أن كثرة النساء، لأنهن أضعاف أضعاف عدد الرجال، قد يكون هو السبب الرئيس في تلك المُعادلة، خاصة في ظل وجود أكثرية من الصنفين ذكر وأنثى غير مؤمنين بالله على الأرض.

لهذا وجب استحقاق الرجل لتصدّر المشهدين في السماء وحده.. حبذا أن يكون الرجل الشرقي المُكابر الظالم الجهول.

أنهى كلامه بالشكر للجميع على أنهم أنصتوا له كل هذا الوقت، فصفّق له بعضهم.. وتحفّظ بعضهم الآخر على كلامه القاسي العنصري عن الرجال.

احتضنه صديقه مازن زيدان، وحاول مُناقشة المُعترضَ دفاعًا عن وجهة نظره. لكن سُمع صوتٌ نسائيٌ رقيقٌ من بين الحاضرات:

- ألیست تلك هي الحقيقة؟ إنك لم تخطئ ولو في كلمة واحدة أيها الفيلسوف باسم، أنت لست شاعرًا فحسب، لقد تكلمت بلسان كل

امرأة تشعر بالقهر والظلم في هذه الأوطان العفنة.

انصرف بعضهم غاضبًا، التفَّ قسمٌ آخر حول الشاعرين بقلم ومُفكّرةٍ صغيرة رغبة في توقيعهما كذكرى يحتفظون بها في صندوق مُقتنياتهم.

2

انفضَّ الجمع وبقيا وحيدين إلا أن باسمًا كان طوال هذا الوقت مُنشغلًا باللحظة التي سيحظى فيها بقلم وورقة تلك الفتاة التي شقّت الصفوف وشاركته الحوار مؤيدة لوجهة نظره دون أن يكون هناك سابق معرفة بينهما، لكنها لم تفعل وفضّلت الذهاب والمُضي قدمًا في طريقها الذي قطعته باحثة عن ملاذ تختلي فيه بنفسها فحسب، ولولا أنها رأتهما في المسابقة لما شاركت حديثهما وواصلت المسير مُنفردة.

وخزهُ مازنُ بابتسامة مكر:

- أعلم في ما تُفكّر، لقد سلبت لُبَّكَ، معك حق فجمالها أخَّاذ، وأظن أنها سورية النشأة والهوى، ها هي هُناك فالحق بها. هذا يومنا فمنذ جئنا إلى ها هُنا لم نحظَ بامرأةٍ استثنائية مثلها، عدا المُعجبات اللواتي لا يُردن مِنا سوى توقيع بلا موعد غرامي يُذكر.

تسمّر باسم مكانه وقد اعتلت وجهه حُمرَةُ غضبٍ، كان رد فعله غير متوقّع. ذكّرهُ مازن ثانية بما قال، لكونه لم يقف على سبب زعل صديقه، غير أن باسم صرخ فيه:

- أهذا من أخلاق الشعراء؟ دعها وشأنها.. عُد إلى موقعك بجانبي.

لكن مازن اتخذَ الأمرَ على أنه مُزحة، فتركه متّجهًا إلى الفتاة ليُنفِّذ غايته.

(6)

1

يُقلِّدُ مَشيتَهَا الأنثوية المُحتشمة المُتأنقة.. لا تشعرُ بالخطوات التي تتبَعها.

الفاصل المكاني وإن كان رحبًا إلا أن الزماني والروحاني أوسع وأرحب، هي في ملكوتٍ خاص تُصارعُ عتوَّ الأحزان التي ولدت من رحم المجهول، الذي غدا حاضرًا مُطبقًا على أنفاسها بشكلٍ ممنهج.

كمُرتحل أحبَّ أرضًا ما.. فقرّرَ أن يستوطن هذا الفراغ الشاسع في ضياع روحها الخصبة، إلا أنها لم تفوّت عليه فرحة التمكين وبسط هيمنته على كل ممتلكاتها التي بسبب تساهلها وتأوّدها الشديد من فرط التوجّع أضاعتها.

أخذ يقلص المسافة بينهما رويدًا رويدًا، حتى أصبح بينها وبينه أقل من متر واحد، فلو قرَّب يده لمسَّ جسدها، ولو مال عليها قيد أنملة لعانق خصره خصرها.

استباحَ كُلَّ خصوصيّتها بصمتها على الدنو منها، بدأ يرتجل شعرًا ظنًا منه أن هذه الطريقة ستخضعها له، وأنها راضية متوافقة مع كلّ ما تسمع.

بل أخذ يُخيل إليه أنها مسرورة بما يفعل، وأن أيّ فتاة محلها مهما طمحت في مغازلة رجل فلن تكون كحضوره الشعري الفذ.

استمرّ الوضع على ما هو عليه لدقائق حتّى بدأت تتعجّب من

نظرات بعض الناس التي ترمقها، حين يمرون إلى جانبها.

كانت تبادلهم النظرات نفسها لتصوّرها أنهم عنصريون، وأنها غريبة عن هذه الأرض.. وجلّهم مثلها غريب لكنه من تلك الطبقة الأوروبية التي ترى نفسها في مكانة أعلى من العرب!

استشعر باسم ماريني الخطر على صديقه مازن والفتاة الرائعة وأنها حقًا لا تستحق هذا المصير الذي تواجهه، هرول مُسرعًا حتى أصبح على بُعد مسافة تُمكِّنهُ مِن زجره ونهيه عمَّا يفعل. عادت إلى واقعها على صوت باسم الذي ارتبطت به فسيولوجيًا قبل قليل، بترنّم.. حين تداخلت معه في نقاش واحد.

توقفت عن المسير، والتفتت إليه.. آملة أن لا يكون بينها وبينه أيُّ حجاب، غير أن مازن كان حجر العثرة الواقف وراءها دونَ ألفة، بلا حياءٍ يُذكر. أزاحت عن عينيها بأصابعها الرقيقة الصغيرة نظارتها الشمسية، ذات اللون البُنيّ الداكن.. ثبّتتها فوق رأسها على شعرها الكثيف، وأدركت أن استغراب الناس ما كان إلا من الوضع الحرج الذي وضعها فيه.

ابتسم مازن لها في بداية الأمر، فاستهجنت فعله وقد عقدت الدهشة لسانها، وما إن رأت في حركاته المُهتزة وضحكته الصفراء مُقدِّمات مُتحرشٍ لا يخجل من فعله.. حتّى ثارت عليه، مُنهالة على مسامعه بكلماتٍ مهذّبة حادة.. عظيمة المغزى.. أوقع على نفسه، لو شعر بها، من انهيار ناطحة سحاب فوق رأسه.

كان ردّ فعله غير متوقّع فبدلًا من أن يعود عن غيَّه تمادى في مضايقتها، ما عظّمَ في نفسها رغبة في إذلاله كلاميًّا، فهو لم يستمع لصوت العقل ولم يحفظ مكانته، وصورته التي يجب أن يكون عليها

كرجل ثقافة.. مُفترضة أنه من مُتصدّري تعظيم شعائر الأخلاق والقيم.

قالت باحترام والغيظ يشعّ من عينيها مُتحليّة بالثبات الانفعالي إلى أقصى درجة:

- هل رأيتَ يومًا أن السماء يُمكن أن تكون أرضًا والأرض فضاء؟

ارتعد قليلًا لكن ليس رغبة في الابتعاد عنها إنما من ثقل كلامها الواقع على مسامعه، إذ بدت أمامه الفكرة كبيرة كما الآفاق، وراحَ يصغرُ أمامَ نفسه، لم يجبها ولو همسًا فواصلت سلخه كشاةٍ حانت لحظة نهايتها..

- أنا رأيتُ ذلكَ حين يتخلّى الرجلُ عن نخوته من أجل شهوته، فيلوّثَ عقلّهُ الذي هو سماؤه لتكون غريزته في ناظريه كالثُّريَّا وتصبح قيمته تحت أقدامه كالثَّرى.

للحظات صمتَ، رغب في العدول عن طريقها خاصة مع صرخات صديقه باسم المُستمرة في ترك كل هذا، إلا أنه وبعد الاستجابة بخطوتين للوراء استدار مُجددًا..

وبعد تنفسّها الصعداء لشعورها أن تلك الأزمة قد انتهت، رمقتهُ باستغرابٍ رافعة أحد حاجبيها، تترقب ما يريد قوله مستعدّة لأيِّ رد فعلٍ.

- أنتُنَّ خُلقتنّ لنا..

متى شئناكُن..

أين رغبناكُنّ..

فينبغي أن تخضعي لما أريد لأنها أوامر وليست طلبات رهن إشارتكُنَّ أو محل تفكير مِنكُنَّ رفضًا أو قبولًا.

صُعقت وتسمّرت في مكانها مما سمعت منه، الأدهى والأمرّ أنها رأت خلف ابتسامته الساخرة الخبيثة صدق قوله وأنه لا يمازحها.

هزَّت رأسها جهة اليمين ثمّ اليسار، كناية عن استهجانها واستغرابها

الكاملين، أعقبت هذا بابتسامة هزلية مكتومة الصوت، ثم استدارت عن جهته ملوحة بيدها اليُمنى رغبة منها في الذهاب، وقالت بألم:

- كفاكَ هُراءً، فهذا أغرب كلام تلقته جوارحي في حياتي كلها. يا رجل، الزنادقة أنفسهم يستحون من نطق ذلك لامرأةٍ بطريقة مُباشرة، هداك الله سواء السبيل.

لم يدعها وشأنها، تحرّك تجاهها ليكون نصب عينيها، حاول استمالتها برقة لكنها كانت في كل مرة تلزم اتجاهًا آخر لتفلت من مضايقته التي لا حدّ لها.

إلى أن أغضب فعله الشاذ هذا صديقه الشاعر باسم مارديني الذي وجد أمامه مأزقًا حقيقيًا، إلا أن قيمه ومبادئه دفعاه إلى حسم الأمر سريعًا، فإذا به فجأة يتدخل بينهما لفصلهما عن هذا الهُراء الذي يهذي به:

- ماذا تفعل يا صديقي؟ أتمنعني عنها؟ أتفضلها عليّ؟ نعم، نعم.. يبدو أنها أغوتك بمعسول كلامها، لا تفرحي كثيرًا فإنه سيفعل معك ما أريدهُ منكِ الآن لكن بطريقة لطيفة، إننا متشابهان فلا تغرّنك حكمته.
- مازن اصمت، ثكلتك أمك.. ما الذي تثرثر به؟ ماذا حلّ بك؟ هل أصابك الجنون؟
- لا بل اجتاحني الفتون، جمال قدّها المياس وخصرها المعقود بعود الناي الرشيق، ووجهها النقي وبشرتها الملساء.
- أنت وقح يا هذا.
- وأنتِ قطة شامية عنيدة أطمع في ترويضها على أريكتي الناعمة.
- استغفر ربك يا رجل ما كل هذه الرغبات المُحرّمة؟
- باسمَ! لآخرَ مرّةٍ تنحّ جانبًا وإلا ستجد مني ما لا يسرّك ولا تتمنّى

حدوثهُ لك.

- يا الله أوَصَلنا إلى هذا الحدّ؟
- وأكثر إن لم تدعني أتفرغ لها.
- هذا من عاشر المُستحيلات.. ولو أن القيامة قامت الآن فلن أمكنك من ذلك، سأحميها بروحي مُفتديًا إياها منك، رادًا شيطانك لأعيدك إلى رشدك.

سادت حالة من الصمت بينهما، بدأت ياسمين في الشعور بالخوف تروح في التلاشي.. واختناق ثقتها في نفسها.

ازدادت الدنيا في عينيها ظلامًا وانخفض وميض الأمل الذي كانت تستعينُ به على مرارة الحياة.

للحظة تمنّت في أن تنشق الأرض وتبتلعها أو تفيض ماء فتقلها إلى عالم تكون فيه وحدها دون أن تخشى الهلاك..

وجد أنّ باسم يُمثِّل العقبة الوحيدة أمامه فاقترب منه، ثم خدعه بعدما أوهمه أنه سيمضي معه، وبطريقة مباغتة دفعه بقوة أرضًا ليستفرد بريما التي اغرورقت عيناها بالدموع حُزنًا واندهاشًا مما ترى. في البداية لم تقاومه وقالت بألم:

- أهكذا فعل يرضي ابن وطني وعروبتي وإسلامي وإنسانيتي؟

وكأنها لم تقل شيئا، أصبح بينهما حاجز ضعيف بلمسة واحدة منه سيجاوزه وملابسها التي تسترها. هبَّ باسمُ مُسرعًا بعدما استعاد وعيه جزئيًا على إثر اصطدامه بأحد أعمدة الإنارة، لينتقم لنفسه ولهذه الفتاة من ذلك الصديق الذي بدا له أنه قد فقد عقله.

وقبل أن يفعل، وأن يَشُقَّ مازن قميصها إلى نصفين كي يتسلّق هضاب جسدها الأبيض ومسطحاته، كوحش عملاق يريد اعتلاء أعلى قمم العالم، ولا يهمه كم سيخّلف وراءه من ضحايا وخراب.

تجلّدت واستقوت من حيث لا تدري عليه، وأنزلت بوجهه عدة صفعات كصاعقةٍ رعدية برقية عملت على تقسيم شجرة عملاقة.

وما إن استنفدت كل قواها ولم تعد قادرة على مواصلة هذا أكثر من ذلك، ظنّ أنه قد نجح أخيرا في الحصول على ما يريد وأنه تركها تفعل ذلك لتفرغ انفعالاتها وترضخ مُستسلمة لجموحه دون أدنى مقاومة.

2

فجأة وجدَ لتوّه يديه اللتين وضعهما في جيبه وهو سعيدٌ بلطماتها وكأنها تعزفُ على أوتار غريزته الحيوانية.. مكبّلتين.. حُرِمَت الحُريّة من قبل شرطيين، وصلا موقع الحدث لتوّهما صدفة، وأنقذاها كمن يرمي بنفسه على جسم أحد العابرين في طريق سريع ويجنّبه دهس وسحق إحدى السيّارات السريعة لهُ.

اقتاد رجلا الشرطة الثلاثة إلى قسم شُرطة «بين الجسرين» بالعاصمة ليقفا على ملابسات الأمر كله على الرغم من محاولة باسم شرحَ الموقف لهما رغبة في ألا يأخذا ريما معهما، موضحًا لهما من الجاني ومن المجني عليه ولكن!

3

خمس ساعات من الانتظار داخل الحبس الاحتياطي، رُوحانيًا.. اخترقت سهام ريما من نظراتها المتوحشة جميع ملامح مازن إلا أنه ما كان يبدي أيَّ رد فعل وكأنه عاد إلى رشده، حتى أصبح على وضعية الصمت المُتبلِّد، بلا أي اندهاشٍ ولا خوف مما وقع ومن المجهول.

أخذت تبادل باسم العتب الصامت ولسان حالها لا يُلقي سوى

سؤالين.. لِمَ؟ وكيف أنتما صديقان!

أكثر من مرة حاول باسم المضي قُدمًا إليها والحديث معها ليهدئ من روعها مُعتذرًا لها، لكنه كان يتراجع خشية أن يسبب لها صدمة نفسية جديدة لا يُحمد عقباها، خاصة إن كانت تظنه شريكًا فعليًّا لمازن في ما وقع لها.

أتى والدها وأخوها صدفة، والتقيا بها داخل مركز الشرطة، فقد كانا يبحثان عنها لقلقهما عليها. لقد أغلقت في السّابق هاتفها المحمول كما أنها لم تعُد إلى البيت وأصبح الوقت بعد مُنتصف الليل. حاولا التحدث معها، امتنعت والتزمت البكاء قليلًا.

اطّلعا من الشرطي المُكلّف بالتحفظ عليها عن السبب الفعلي لاحتجازها، فأعطاهما محضرَ الأحداث المكتوب، ناظرًا إليها بشيء من الاحتقار تارة والشفقة أخرى.

أخذ العقاد يقرأ ثم فجأة وضع يده على قلبه الذي آلمه بشدّة وجلسَ جبرًا. لم يسأله أحمد ما الذي جاء فيه وأتعبه وإنما استلّه من بين يديه وأخذ يُطالعه ليقف على حقيقة الأمر.

لم يُصدّق وقال للشرطي بثقةٍ:

- الياسمين أختي.. ربما لا يُمكن أن تأتي شيئًا مثل هذا يا حضرة الشُرطي، من المؤكد أن هناك خطأ ما.
- ربما نعم وربما لا، سيّد أحمد، فها هُم ثلاثتهم أمامك، ولهم رأيان متناقضان، ونحن من جهةِ نظرنا لا يُمكن إلا أن نصدق ما رأيناه واقعًا أمامنا، حيث كانت أختك تعتدي على الشاعر مازن زيدان بقوة وقد كان مكتوف الأيدي لا يردّ حتى صفعاتها.

نطقت لتدافع عن نفسها، فهي تحب دائمًا أن تكون في أبهى صورة

أمام أخيها، لما بينهما من مودةٍ واحترام:

- لا يا أخي كل هذا افتراء، الحقيقة أن هذا الرجل كان يحاول...
- ما بكِ ياسمين، أكملي ماذا كان يُريد أن يفعل؟

يهبّ باسم كأسد جسور فيتدخل قائلًا:

- إنه صديقي وبالطبع يعرفنا الجميع، وكل ما في الأمر أنه حاول سرقة حقيبتها الشخصية لرهان كان بيننا ولعبة على إمكانية خروجنا على المألوف وفعل شيء جنوني لنضحك ونمرح.

الشُّرطيُّ بحزمٍ:

- مِن فضلك أستاذ باسم، الزم الصمت لأن شهادتك مجروحة، ولا يؤخذ بها لأنك شريك رئيس لها في سرقة الشاعر مازن الذي قمت أنت أيضا بالاعتداء عليه، وقد اعترف عليك وأنكما لستما صديقين، وعليه فأنت متورطٌ معها في تلك الجريمة، وكما شرحت سلفًا روايته أصدق حديثًا لأننا وجدناه في وضعية المجني عليه لا الجاني.

الأبُّ العقاد:

- ما كُل هذا الكلام الفارغ والعاري عن الحقيقة، مُستحيل أن تُقدم ابنتي على مثل هذا الفعل المشين.

ثم يلتفت إلى الشاعر مازن فيجدهُ قد استغرق في النوم، فيواصل حديثه:

- انظروا إلى حال هذا المُدّعي؟ أهذا شكلُ رجل طبيعي، من المؤكد أنه مخمور ويهرف بقول الزور والبهتان على الشرفاء.

الشُّرطيُّ:

- للأسف نحنُ لا نتعامل بالهيئة، وإن بدا لي قول الصدق منك والملائكية التي تشعُّ من ابنتك دليلًا على براءتها، لكنك بلا شك

تعرف أيها السيد.. هو القانون.. القانون فحسب.

- أما هُناك من حلٍّ إذًا حضرة المُحترم؟
- هناك بكل تأكيد للقانون دائمًا روح، أن يتنازل الشاعر مازن زيدان عن الشكوى المُقدمة منه وبالتالي نرفع التهمة عن ابنتك والشاعر باسم مارديني، وما بوسعنا شيء الآن سوى انتظاره إلى أن يستيقظ من نومه فقد أُنهك من شدة الألم. وسنرى هل يكون رحيمًا أم يلزم حقه المشروع، وعندها ستظل ابنتك مُحتجزة حتّى يأخذ العدلُ مجراه.

تثور ريما وتتكلم بالحقيقة، التي أخفاها باسم حفاظًا على سمعتها رغم محاولاته إثناءها كي لا تفعل:

- يا حضرة الشرطيّ إنَّ هذا الرجل عديمُ الأخلاق كان يتحرّش بي جنسيًّا جهارًا نهارًا في الطريق العام، من فضلك أيها الشاعر الخلوق باسم توقّف عن منعي، لماذا نُداري ونخاف من مثل هذه الأمور وإظهارها علانية.

أنا لا لوم عليّ.. إنما يقعُ على ذلك الذئب الذي تجرّد من كل إنسانية وضمير. يجب أن تواجه المرأة الشرقية تلك الوحوش بقوّةٍ وحزمٍ لا أن تهرب من الحقيقة، وعلى المُجتمع ألا يدفن رأسه كالنعام. والله بعد اليوم، لن أصبح المرأة العربية التي ينظر لها الحيوان الغريزي على أنها دمية، وسأقتصُّ من أيّ رجل غير شريف تغرُّهُ قوته بطريقتي الخاصة.

أبوها:

- رغم حزني لسماع هذا لكنني سعيدٌ بك يا ابنتي، ما رأيك في قولها أيها الشرطي؟

يومِئ برأسه، ويفرد ظهره مُستندًا على مقعده، مُدخلًا رأسه بين كفيه المُتشابكين:

- هذا لن يقدّم ولن يؤخر شيئًا، وكلاهما خطبة عصماء فحسب.

تغضب كثيرًا، تتجه نحو مازن لتوقظه، تنهال عليه ضربًا لعله يفيق من غفلته ويعترف بالحقيقة، يمنعونها وبقوّة يبعدونها عنه..

4

يدخل فجأة إلى المركز رجلٌ بهيُّ الطلّةِ، وقورٌ في العقد السّادس من عمره، يُربِّت كتف العقّاد الكبير، يعدهُ بحل المشاكل مهما تكلّف الأمر.

يظل للحظات ناظرًا إلى ريما، مبهورًا بجمالها الأخَّاذ، كاد أن يتورط في إيصال مشاعر غير نبيلة لها، لولا أن تداركَ الأمرَ وذهب إلى الشرطي الذي رحّبَ به كثيرًا لسابق معرفة به، أو ربما لكونه مواطنًا يحمل جنسيته نفسها.

دقائق معدودات بعد نقاش قصير مهموس دار بينهما، عاد إليهم يحمل في يديه كأس ماءٍ كبيرة ليسكبه على رأس مازن زيدان الذي استيقظ من سباته مفزوعًا مُندهشًا.

(7)

1

والآن يا عشاق الشعر والقصيد، تبدأ فعاليات الختام، والتي على إثرها سيُتوّج شاعر جديد، وينضم إلى قائمة الشرف المليونية، مع الشاعر العراقي محمّد الجبُّور..

جئتُ من وطني قاصدًا وطني
فاكتشفتُ أنني غريبٌ بلا وطنِ
عِراقي صارَ فراقًا، واختناقًا
دَمٌ يُراقُ، من دون إسلامٍ ولا وثنِ
الكلُّ هابيلُ، طامعٌ يطمعُ في
طامعٍ، الكلُّ وحشٌ كاسِرٌ همجي
نحنُ أُمَّةٌ الرحمةِ، نتسوَّل القسوة
صدقاتنا نُتبِعها بالأذى والمَنِّ
عربٌ ولساننا أعجمي ويا ليتنا
مِثلهم، فقط نبرعُ في اللهو والطربِ
عربٌ وندّعي الحضارةَ وهيَ
قِشرةٌ، ونتباهى بالظلم والجهلِ
جئتُ مِن وطني قاصدًا وطني
واكتشفتُ أنّي أبحث عنهُ وَحدي
عن أرض هبطَ فيها الوحيُ

والآن تسكنها الشياطين بكلِّ حدٍّ
غُزاةٌ يتظاهرونَ بالسَّترِ المُقنّعِ
جُفاةٌ قلوبهم شتّى كالعَفنِ
أأحفادَ الملائكةِ أم الطغاةِ
فلماذا العدلُ فيكم بالجور والألمِ
ولماذا كلما بنينا بالحبِّ جِسرًا
قطعتموهُ، أبدلتموه بحبلٍ من الوهنِ
فبأيّ ذنبٍ وأدتم المودة بيننا؟
وبأيّ حقٍّ تستمرونَ وهمًا بالعنتِ
جئتُ مِن وطني قاصدًا وطني
فوجدتُ العراقَ وحدهُ سَكني

يُصفِّقونَ له بحرارةٍ وبعضهم يدمعُ، والآخر يبكي وطرفٌ أخير يًصيبهُ الصمتُ، فما انحنى لهم وما شكرهم، على تلك الحفاوة.

تتدخّل مُقدّمة الأمسية لتأخذ منه الميكروفون وتتدارك الأمر، غير أنه ينهاها ويخبرها أن في حوزته بضع كلمات أخريات، فتنزل على رغبته ظنًا منها أن القصيدة لم تنتهِ بعد، فيقول لهم بصوتٍ مبحوح يغتاله الألم والتنكّر من الذات:

- هذا جُل ما يُمكنكم فعله معشر العرب.. نُصفّق.. نبكي.. نصيح.. نُغرِّدُ كالعصافير، إلخ إلخ.. باختصار شديد هذا كله سمرٌ في نهاية المطاف، أو ربما تعاطف من نوع العزف على الجراح، وحجم النزيف في بلاد العراقين لن تدركوه أبدًا إلا إذا...

على أي حالة لا أدري ماذا ينتظركم وينتظرنا غدًا، أما عن تلك المُسابقة.. فأنا واثقٌ من الحصول على مركزها الأول، لكنني لن أواصل

أكثر فيها ولن أنافس، فالمنافسة ظُلمُ بيّن يُهدر حق بلادي، ففوزي بها وعدمه لن يغير شيئًا.. أنا مُنسحبٌ!.. وشكرًا لكم.

قالَ الناسُ بثرثرة.. مُشيدين بصدق ما قاله تمامًا وأنَّهُ أصاب كبد الحقيقة. تدخلت مقدمة المسابقة بالأمر فورًا كي تريح عقدة الجمهور التي مرّت على ألسنتهم في هول المفاجأة، فمحمد الجبور أرادوه بالفعل أن يحصل على المركز الأول لجودة شعره وموهبته، بالتالي لم يفكر أحدهم في كم المُعاناة التي حوتها كلماته، إنما أخذوا يتباحثون بهمس عن سرِّ انسحابه ليس أكثر.

«فعلوا مثل المحتار حين قتل اليهودُ مئة فلسطيني وطبيب أسنان واحدًا، فتهافت العالم على سبب قتل الطبيب وتجاهلوا المئة الآخرين».

- وبعد أن سرق الشاعر العراقي المُنسحب الألباب فإننا نأمل أن يفعلها أيضا شاعر السعودية فزاع فاهكم معكم..

تمادي في غيِّكِ فلن أحب غيرك
موجي كالبحر مع ألف رجل مثلكِ
قابليهم سِرًّا في المدائِن
اسكري، وزّعي عليهم شاهي قُبَلكِ
أو ضاجيعهم بنشوة، نوحي كا
لعاهرات، فما هواي إلا لقلبكِ
لستُ زعيمَ الملائكة البيض النوارس
لكنني أنتظر توبة ترفعها يديكِ
فمهما قال الناسُ عنِّكِ وشاهدوا
ومهما رجموكِ وأعادوا للحياة رُوحَكِ

فأنا أؤمن أن الله سيسمع لي
وأنكِ يومًا ما ستُقبِّحي فعلكِ.

يُصفِّقُ بعضهم، يسخرُ الآخر، يثرثر الأكثرية..
والآن مع الشاعرة المصرية وأول عنصر نسائي يصل إلى النهائيات، الجميلة الفصيحة.. يارا أيّوب.. ابنة الكنانة..

وجهكَ يُحاصرني في السِّماءِ والدّنى
أهو الشمسُ أم القمرُ أم العُلا
يا صاحب الحضور البهي كالنجمِ
الزَّاهي العليِّ في قلبي والنُّهى
تبسّم، فما جئنا لهذي الحياة
لنحزن، وكيف تفعل وألقاكَ بمُنى
تجمّل وامرح، كفراشة تلهو مع
زهر طامح القمر، الشواهل والثُّرى
وجهكَ يحمني، أماني مِن الضياعِ
والسرابِ الغرور والزين والسُّدى
فكُن يا حبيبي قلعتي، إن رخّ الظلامُ
زلَّتي، كُن مِنعتي والحِمَى
فلكم عِشتُ في هذا الزمان
أنتظركَ دهرًا، ولكم صبرتَ بالرضى
تجمّل، وتأمل كونَ المُحبّينَ فإنَّ
الإلهَ بناهُ بالأمل والنور والنَّدَى
كُن حارسي يا سيدي، مِن خطوبِ

الحياة التي الحُبُّ فيها أنت، لا العِدا
ووجهكَ فدائي ودُرَّتي إن ناءَ
الأخلاّءُ عنّي فكُن لأكون لكَ الفِدا.

2

تعود ريما العقَّاد إلى الشام على الطائرة نفسها التي استقلها الشاعران الصديقان، باسم ومازن.. حلَّقت بهم في سماءِ الإمارات وهي مُشرَعةٌ في وداعها. كانت ريما مُنذ أن اعتلتها مُشتتة مُسندة برأسها المثقل بالمُشكلات على نافذتها، يجلسان على المقعدين المُقابلين لها، بعد مُمانعة من مازن الذي من جانبه شعر بالحماقة والندم على ما ارتكبهُ في حقها سالفًا، ومن آخر لا يُريد أن يواجه ردَّ فعلها إن هي رأته بعد انتهائها من رياضة التأمل التي أخذتها بعيدًا.

غير أن مازن الذي أسرَّ في نفسه وجوب مواجهة للأمر ليصرَّ على الاعتذار المُباشر لها.

لذا راح من خلال مكانه يُشير لها بيديه خجلًا.. وكأنه طفلٌ يحاول لفت انتباه أحدهم ليلعب معه، أو يُداري بسمة براءة في ثنايا خيبة أمله بعد شعوره بالذنب على إثر المُشاجرة.

فقالت بصوتٍ حاد:

- ما بِك، ألن تجلس وتكُفَّ عن هذه التصرفات الصبيانية؟ مازن أيها الشاعر الضائع التائه.. هذه طائرة وليست سيارة نقل عام حتَّى تُبدِّل مقعدك كما تشاء.

يجلسان أخيرًا في هدوءٍ تام، تسود حالةٌ من الصمتِ على الثلاثة، حتى كسرَتها امرأة خليجية عجوز كانت نائمة منذ بداية الرحلة..

فتحت عينيها لتجدهما أمامها، ظلّت تُحدّق إليهما لدقائق، مبتسمة

بسعادة. بادر مازن سائلًا إياها عن سرّ هذا التركيز الشديد فيهما، فردّت عليه بحماسة:

- وهل يُخفى القمَر؟ فما بالك بشاعرين (موزَّين) رائعين، أنا جئتُ من مكة المُكرمة خصيصًا لأجل المُسابقة، وقد أعجبتُ بكما كثيرًا، لكن قولا لي، لماذا انسحب هذا الشاعر العراقي؟ والله كان جيدًا.. هروبه غير مفهوم ومُحزن حقًّا.

ظلّت تُثرثر كثيرًا حتى كلاّ وملاًّ منها، فمال مازنُ على باسم.

- إنها خرفة.
- صهٍ فإنها إن سمعتكَ.. ستقتلك.

تضحك الياسمين ريما، على وقوعهما في هذا المأزق. يخز باسمٌ مازنَ، ويأمره بالتصرُّفِ مع هذا الابتلاء. قاطعتهما:

- هيَّا قُل لي شِعرًا يا مازن، أريد قصيدة غزلية، وإن أجدتَ فلك عندي هِبَةٌ سارة.. أموال لا تُعدُّ، كل ما تطلب، سيكون بين يديك..

لم يجد نفسه إلا متورطًا معها، وقد كان هذا أكبر جميل يقدمه إلى صديقه كي تخلو له ساحة النقاش مع ريما..

- نيابة عنه أقدِّمُ اعتذاري، أيتها الفاضلة.
- ولم كل هذا أيها الشاعر المُحترم السامق، فما فاتَ ماتَ، فلا تعبأ بما يؤرق بالك واطلع على صفحة الغد والصَّفحِ.
- صدِّقيني أنا شخصيًا ما كنت أعلم بقصته مُطلقًا لأنني وقتئذ ما كنت معه، من الصحيح أنه تصرّف بحماقةٍ فريدة، لكن مَن على هذه الكُرة الأرضية لا يُخطئ؟
- هذه الصورة من الفعل لا تُسمَّى خطأ أخي الأستاذ باسم، إنما إثمٌ وخطيئة. كيفَ لرجلٍ راشدٍ جاء من بلده إلى بلد آخر كي يُمثِّل مُثقفي وطنه وشعبه أن ينزل إلى هذا المستوى الوضيع من

الشهوانية المُفرطة؟

لم أفهم حتى اللحظة.. فتاة روسية بدلًا من أن تضاجعه كما اتفقا معًا على ذلك، تضع له ثلاث حبّات من المُخدر والمنوم، فقام من نومه لاعنًا حظه ومشى معك وجاراك شعرًا أمام العامة، كل هذا وما انتهى مفعول هذه الأشياء، وما شعرتَ أنَّهُ مخمور، أو قد سيطرَ عليه هوسٌ ما؟ ولم يكفِه فأراد أن يقضي ليلته الحمراء التي حرمته منها الشقراء معي، وابتدأها في الشارع..

- أمرٌ مؤسفٌ حقًا.. أنا أعرف مازن جيدًا، وصدمتي فيه كانت أكبر منكِ صدّقيني. وها أنت وكما قلتِ قبل هُنيهة، لندعَ الذكريات جانبًا، وننعم بالغفران، كي تستمر الحياة.
- أعتذر منك، كونك تعرفه جيدًا فهذه حقيقة غير كاملة وأحيانًا تكون وهمًا، فأنا ظللت طوال عمري أظن أن والديَّ دمي من دمهما ولحمي من لحمهما، ونطفتي ورحي من شقائقكهما، واتضح لي أن الصور وحدها لا تكفي الحقائق.
- عفوًا ماذا قلتِ؟
- سمعتَني يا أستاذ، على أي حال الحمد لله على تدخل السيد الصالح العنزي الذي لولا حيلته لظل كل منّا في محبسه حتّى اللحظة، بسبب تصرف صديقك الأرعن، وكنت ستخسر المُسابقة لا محالة لتغيّبكَ عنها، وبدلًا من أن ينادوك بشاعر المليون سيكتب عنك في الصُّحف.. الشاعر المسجون.. ههههه.
- أضحك الله سنّك، أعود وأذكرك بشيء، صديقي هذا ليس أنانيًا ولا حاقدًا عليّ، فلا يعقل أن يفعل ذلك!..
- نعم قلها، ها أنت لا تستطيع أن تنطقها لأن الحقائق للأسف مُرَّة في الحلق، وتتعثر في طريقها للنور، وأنا هذه المرة أقول لك

ستعيش طوال عمرك تظن أنك تعرف كل شيء وفجأة تتكشَّفُ لك الحقائق رويدًا رويدًا، وتعرف أنك لم تعرف شيئًا بعد. وقد يكون حقًّا ما لا تقدر على الاعتراف به أنه صنع هذا من أجل منعك من الحصول على الجائزة لكونه يعلم علم اليقين أنك الأخطر عليه.

- ربما يكون معك حق، لكن في حالات غير حالة صديقي، كما أن الله قد كتب لي الحصول على المركز الأول. ففي كل الأحوال ما كنت سأخسر شيئًا لأنهُ قد خُطَّ ورُفِع القلم.
- نعم رُبما، أحسنتَ، ما بين شكٍّ ويقين تأتي هذه الكلمة دائمًا، إنها حيلة وردٌّ دبلوماسي رائعٌ، وفي آنٍ مُقلق.
- سيدة ياسمين، تعاملي مع هذا الموضوع بالحب. تضحك ساخرة وتسأله:
- حُب؟ عن أي حُبٍّ تتحدث أنت، من أيّ إطلالة شُرفة ترى العالم أيها الشاعرُ، أها.. نسيتُ أنكم دائمًا محلّقونَ بعيدًا عن العناصر البشرية.
- عفوًا.. هذا يكفي، جملة واحدة فقط يجب أن أخبرك بها، لا يضرُ القمرَ إن كان بازغًا وغير المُبصرين يوهمونَ الناس أنه مُجرّد قنديلَ. فالحبُّ رحمة ورفق وقيمٌ ثابتة، جعلهما الله للأرواح النقية التي تتوق إلى الجمال.

3

حدّقت إليه وهي لا تصدقُ ثورته عليها، لكنها كانت ذات وقع لطيف على روحها.. هامت في نظرات عينيه اللامعتين الحاملة في بحورها أشرعة من الأمن والدفء والسلوى، رأت من خلالهما عالمًا جديدًا ما كانت تعرفه من قبل، لولا التقائه.

من الوهلة الأولى حاولت ترجمة هذا الاتصال في داخل نفسها والذي تدكُّ دقاتُه حصونَها المنيعة، وتعصف بتفكيرها الريحُ عن الأشياء والبشر والأماكن، إنها الآن تسطرُ حروفًا جديدة في تاريخ الإنسان البديع. أن يقسو عليها وترى قسوته محبّة، وأن يعنفها وتشعر وكأنه يحنو عليها ويربّت كتفها، وأن يضرب بينهما بسور من جفاء وتحسّ أنها مرمية في أحضانه وهو يمشط بيديه خصلات شعرها.

أوشكت الرحلة على الوصول، ودنت الطائرة مِن الهبوط بعد ساعات من التحليق، مازن والمرأة الخليجية قد ملّ كلاهما من الآخر.. فناما. باسم وريما يطلان بالعين من النافذة على مساحات سورية الخضراء، ومن وقت لآخر يختلسان نظرات إعجاب خاطفة وترقّب، وبين فينة وأخرى يتعامد نورهما الذاتي النبيل معًا، ويدور سِرًا بانعجانٍ دون حديث منطوق عبر الطلاسم.. نقاشٌ من الألق والألفة في اللاوعي، الذي يملكُ وحدهُ دونَ قلبيهما أو عقليهما الفصل في إذابة رواسب مشاجرات الأمس وتحطيمها وبناء آمال للغد، وتسخير قيد الضياع ليصبح بينهما طائرا حُر.

(8)

1

بعد أشهر من ترك كُلًا منهما مقعده ومفارقة وجههما للآخر بوداعٍ زائفٍ، تخللتهُ بسمةُ أملٍ في اللقاء، كانت ريما تذهب خلسة كالعادة إلى كل أمسية شعرية يُحييها باسم مارديني في أي مدينة كانت، مُتحججةً لأمها التي أصبحت تتجنبها كثيرًا لجفاءٍ ما استقرَّ أعماقها، جفاء عادت به الإبنة ولا تُدرك كنهه كاملًا..

لقد شاعَ ذكرُ باسم وأصبح من المطلوبين لإحياء الثقافة في سورية كلها بعد أن طار اسمه في المحافل الأدبية العالمية.

كانت تتماهى بين جمهوره الكبير، ملتزمة الجلوس في الصفوف الخلفية دائمًا كي لا يلمحها فيلاحقها. أمَّا هو فقد كان بمثابة جبل من الأحزان يتحرّك على الأرض وفي كل الأمكنة. سكنت فؤاده وأصبح أسيرًا لها، لا يستطيع أن ينساها ويحب غيرها لأنّ صورتها ونظرات عينيها وحديثهما معًا، كل ذلك لم يفارقه لحظة.

كذلك لم يتمكن كل هذه الفترة من أن يلتقي بها ولو صدفة أو عمدًا على الرُّغم من محاولاته الدؤوبة في البحث عنها والوصول إليها لأنها لم ترشده إلى مكان إقامتها. ولولا أنه مّيَّزّ لهجتها وأنها حضرية من قلب الشام القديمة لكان تفتيشه عنها والعثور عليها بمثابة أحد مستحيلات الكون.

لم ييأس لكنه في الوقت نفسه ورويدًا رويدًا بدأ في التباطؤ بعدما

فارقه النهمُ. فكم مِن أسرة تعيش بين جدران المنازل العتيقة، وكم من روح تتنفس من هواء بردى الآسر. وظلّ يعاني من عدم الاستدلال عليها في تلك المدينة الصاخبة الحافلة بالأشكال والألوان، مِن ضجيج وسكون البشر المستمتعين بالحياة ها هُنا.. دمشقُ.

2

في مساء يوم مُقمر لمحها بين الحضور بعد أن دقَّ قلبُهُ خافقًا مُعلمًا إياه أن مُعذبته التي ترتع فيه منذ زمن تلمعُ بتوهّجٍ بين الصفوف، وعليه أن يستجيب ولا يُضيّع هذه الفرصة الذهبية.

شكرَ جمهوره الذي انهال عليه فور رؤيته بالتصفيق والتهليل والورد، ثُمَّ وقف للحظات.. مُحدثًا سابقة من نوعها في الأدب خاصة كونه مشهورًا. أراد أن يستفزها وبعد أن ينتهي تتوجه إليه مُرغمةً وتسأله بفضول والذي يعلم توافرهُ فيها وأنه سيقودها إليه فقال:

- اليوم هو أسعدُ يوم في حياتي على الإطلاق، أمَّا عن السبب فاسمحوا لي الاحتفاظ به، ولهذا فأنا سأطوي صحائفَ شِعري وألقي عليكم قصيدة.. لَكَمْ أحبّها لشاعر سورية الأول السيد نزار قبّاني.

بعد أن ثرثر الجميع ثم سكنوا بدأ..

«هذي دمشقُ وهذي الكأس والرّاحُ

إنّي أحبُّ وبعضُ الحُبِّ ذبّاحُ

أنا الدمشقيُّ ولو شرحتمُ جسدي

لسالَ مِنهُ عناقيدٌ وتفّاحُ

إلى أن وصل وذكر اسمها الواقع في الأبيات التالية..

للياسمين حقولٌ في منازلنا
وقطةُ البيت تغفو حين ترتاحُ
هُنا جذري هُنا قلبي هُنا لُغتي
فهل أوضحُ هل في العشقِ إيضاحُ
كَم من دمشقيّة باعت أساورها
حتى أغازلها والشِّعرُ مُفتاحُ»

كانت أول من هبّ من مكانه، ركضت مُسرعة في صمت المُعجبين الذين أثارهم تصرفها المُفاجئ، توقّف عن الإلقاء، موجهًا حديثه إلى من هو في جوارها:

- هل ذهبت تلك الفتاة غاضبة باكية أم سعيدة مُبتسمة؟
- بل باكية مُبتسمة.
- إذن لا عليكم يا سادة، الحمدُ لله أنها فرحة، ربما كانت من عُشّاق نزار.

وواصل الإلقاء بسرعة وهو الوحيد الذي يعرفُ سِرَّ ردّ فعلها.

انتهى وهرول مسرعًا إلى الخارج دون توقيع واحد لمُعجبيه لعلّه يلحق بها.

3

مَشى بترقُّبٍ يبحثُ عنها في كُلّ رُكنٍ وزاوية، يُطاردُ الوجوهَ بكل تعابيرها، حزينة.. فرحة.. صامتة.. حتى أنه لمحها في هيئة فتاة تشتري بعض الحلوى، وما إنْ اقتربَ منها ليربّت كتفها.. حتى استدارت له مُستغربة من تصرفه.. اعتذر لها.. قَبِلَتْهُ..

بعد لحظات من انصرافه كانت تحاول جاهدة أن تتذكر هذا الوجه

فهو مألوفٌ إليها، وما إن استعادته من صندوق النسيان، وعرفت أنها فوّتت فرصة عظيمة لتحرم نفسها من بعض أبيات الغزل.. لعنت حظها، غير أنها سُرعان ما تعايشت مع الأمر الواقع ومضت في طريقها مع الحلوى مُستمتعة بطعمها اللذيذ.

أخيرًا بعد قُرابة الساعة، وهو يُفتّش عنها.. ها هي تتجلّى في المشهد وتمُر من جانبه آتية من ورائه، تتعمّد مُلامسة جسده الواقف مُتسمِّرًا يُصارع بأسه في امتلاك قواه.

ما إن انتبه حتّى دخلت أولًا إلى حديقة تشرينية غنّاء بقلب دمشق النابض فلحق بها على استحياء وإقدامٍ وتلهُّف معًا، جلس إلى جوارها على المقعد نفسه، صامتًا مثلها. يفصلُ بينهما فراغُ المكان الذي لا يتجاوز الخمسين سنتمترًا. حطَّمت هذا القيد لتجيب على سؤالٍ همّ أن يلفظه لكنها أوقفته في حلقومه:

- نعم.. كنتَ تبحث عنّي بلهفةٍ وأنا خلفك أراقبُ هذا الجنونَ فيكَ وأضحك من الداخل بنبرة عالية تؤرق مضاجع الأموات في الكهوف، غير أنها مكتومة المظهر كي لا تسمعني، لكنني على أي حال لم أتركك حتّى الضياع وما كنتُ لأسمح أن تصل إلى مرحلة اليأس.
- أمرٌ جميل ومضنٍ، لكن هذا التصرُّف صبيانيّ. ماذا لو تبدّلت مشاعري وتبدّدَ تقديري تجاهك وأسقطتكِ من أولوياتي بمنهجك القاسي هذا؟

أظلُ باحثًا عنك منذ أن عُدنا، وأنت تحضرين أمسياتي الشعرية وما حاولتِ مرة أن تبادري وتسألي نفسك ماذا أصنع دونكِ، أليست تلك أنانية مُفرطة؟

أنت كسالكي دروب الحُبِّ.. يشتعلُ اللهبُ في قلبِ أحدهِما، يرتجف خجلًا لرؤية الآخر.

وفي البداية يمتنع الطرف الثاني، ويواجه محبة الأوّل بعاصفة ثلجية أو ترابية أو بُركانية، والعجيب أنّهُ بعد حين مع ميلُ قلب المُمتنع.. قد يتبادلُ كلاهما الأدوار لو أنّ رغبة الأول خفتت، فيصبح الطرف الثاني متسولًا على باب الأول ليقدّم لهُ العرض من جديد، أو لو كان الحب صادقًا مُستمرًا.. فإنّ السعدُ يغزو مدائن كليهما، ويتساوى الأمران في الحدوث كالحياة والموت تماما.

- رُبما من وجهة نظرك هي كذلك، لكن الأمر يختلف عندي لأن لديّ أسبابي الخاصة التي منعتني كل هذ الوقت أن أروي ظمأك.. كما كنتُ أرتوي من رؤيتك.
- ما أعلمه أنك غير متزوجة، أو حتى في الطريق إلى ذلك.
- أتكون الظروف رهنًا لهذه الطرق فقط! دعكَ من هذا.
- بل هذا لبّ الموضوع.
- أليست حديقة تشرين أجمل حدائق الدّنيا؟
- هي كذلك لو أنك معي فيها!
- ها أنا الآن معكَ، ألا تراني؟
- لا، نحن غريبان، جئنا المقعدَ، أنت تحاولين الهروب، وأنا أحاول البقاء، فلسنا معًا.
- هروبي الذي تراهُ يُحطّم آمال بقائك الآن رحمة لكَ، وغدًا ستُدرك الفرق، أمّا لو تعلَّقت بجعلي أبدية في حياتك ستصبح هذه الحقيقة التي تظنها جميلة الآن في الآتي جحيمًا.
- أكادُ لا أفهمك.

- ليس بالضرورة.. بعد إذنك، يجب أن أذهب.

أمسك يديها مُضطرًا، فنظرت إليه مُندهشة، لمحَ في عينيها عكس ما تدّعي.. لمح رغبة في البقاء تحمل في طياتها عدة كلمات محدودات..

أحبُّكَ..

لا تدعني..

أنا ضائعة..

أنا في حاجة إليكَ.

لم تقاومه.. وبعدما انتصبت جلست، وسقطَ بعضُ دمعِها.

- لا تُعطِ مجالًا لضيقة الصدرِ أرجوكِ، قد أبكتكِ بعد الاختناق.
- وماذا يجب أن أقول لكَ، أنا لستُ أنا.. وأبي الذي هُناكَ ليس أبي! أحببتُكَ حقًّا، لكنْ لديّ عرضٌ بالزواج مِن غيركَ كما توقّعت..
- زوَااااج، وعرض!

عامة بهدوء سيدتي، فنّدي فكرة تلو الأخرى.. معي ستزول كلّ تلالِ الهم هذه عن قلبك.

- أيُجدي هذا نفعًا، فبوحي لكَ لن يُغيّر من الواقع شيئًا.
- وصمتُكِ أيضًا لَن يُغيّر شيئًا.. جرّبي فالخسارة مطروحة، لكن نسبة التغيير راجحة ولو كانت أقل.

بانَ في كلماته لها إصرارُ المُحبِّ الذي يمسكُ واثقًا زمام عصا سحرية.. بها سيعمل على إراحة محبوبه..

وبالفعل ارتكزت مكانها مُسلّمة له رُوحَها لعله ينتشلها من هذا الضياع.. وفجأة انفجرت في الكلام بعد تقطّعٍ:

- سيّد باسم علمت أن أبي ليس أبي وربما أخي كذلك، حتّى أمي أخاف ألا تكون، والأفكار السوداويّة تُفسِّر لي أنّي لقيطة، لا أصل

لي.. هل يُعقَل بعد هذه السنينَ من اليقين والحقيقة اكتشفُ أن كلَّ هذا وهم! تخيَّل للحظة ما الرجل الذي كُنت ترى وجهه إلى جانبك، حانيًا عليك ليل نهار، وحين اغترابه.. أحتضن صورته بألم وشوق أملًا في عودته.. تخيّل أن يكون كل هذا سرابًا، أن يكون الأخ الذي يحملك على كتفه في الصِّغرِ ويجوبُ بكَ الطُرقات لترى العالم من خلال نافذة كتفهِ، تخيل أن لا يكون أخاك.. تخيل الأم التي من شدّةِ حُبها وخوفها عليك تمنعُ عنكَ تقريبًا نصفَ متاع الدنيا كي ترشدك للصواب بإخلاص كامل.. تخيّل فجأة أنها ربما ليست أمك.

وهي في قمّة الغضبِ والشتات وعلى الرغم من أنها تبوح لهُ وكأنها كانت تُحدّث نفسها، ما ساعدها على المواصلة، حتّى ابتسمَ بنغمةٍ عذبةٍ رقيقةٍ، استفزّها فعله بتحفُّزٍ:

- وما المُضحك في ذلك، هل أسمعتك نكتة؟
- على العكس تمامًا. ولكن أنا أتعجّبُ كيف لحسناءٍ مثلك أن تعيش بكل هذه الموروثات التي تُعيقُ استمتاعك بالحياة ولا تتخلصين منها، إنما تتركينها في دعةٍ تُحاربك لتقضي عليكِ.
- أتخلّصُ منها، نعم أمرٌ بسيطٌ للغاية.. لحظة واحدة أعطِ أمرًا لنفسي المُبرمجة كحاسب إلكتروني بإزالة كل هذا الهم، بضغطةِ زِر.
- لا أسخر.. سأوضّح دلالة احتجاجي حتّى لا تنقمي عليّ.. ما رأيك في قطعة الشكولاتة من فئة الحجم الكبير؟

تتبسّم وترد عليه بخجل، فقد كسرَ حاجزَ الحُزنِ بداخلها لتبدأ مرحلة الاحتواء:

- لذيذة وشهيّة، أحبها كثيرًا.
- رائعٌ، هل تأكلينها مرة واحدة؟

- لا كيف ذلك؟.. إنما المُتعة في التقامها جزءًا جُزءًا، وقطعة قطعة، حتى النهاية مع القهوة الغنية بالحليب.. فإنَّ طعمها سيكونُ مميزًا.
- نعم تلك هي كل الحكاية، المُتعة في تعاطيها قطعة قطعة وإلا أفسدت الشراهة عليك هذا الشُّعور، وهكذا الحياة أيضًا، ريما.. أو ياسمين.. إن أردت السعادة فيها وتجاوز الصعاب فيجب عليك التَّعايُشَ اللحظي معها ومع مشاكلها، أتراحها وأفراحها.

لا أريدُ إثقالَ كاهلكِ بالماضي والحاضر والمُستقبل معًا، إنما الحاضر فحسب، لخطتك الحالية فحسب.. لا الآنية ولا البُرهة المُنصرمة.

4

يسودُ الصمتُ بينهما مرة ثانية، هي تُفكِّرُ في كلامه الفلسفي العميق الذي تأثرت به، وهو يبحث عن مدخل ليُصارحها بإعجابه بها وأنَّهُ يتمنّاها شريكة له في الدنيا.

هذه المرة تكسرُ حِصنًا قد ضُربَ بينهما.. الصّمت!

أشارت إلى شجرةِ صفصاف جميلة ودنت مِن القاعدِ أمامها، لتقول فرحة:

- اللهَّ ما أجملها.. انظر إليها كيف تتدلّى كثُريات الذهب، وعلى لسان واحدٍ في اللحظة نفسها معًا:
- لأنّ فصلَ الخريف قد حلّ فاللون الأصفر يسودُ.

ضَحكا بصوتٍ عالٍ.. أخذها من يديها بعد تقديم طلب لها وهو واقفٌ قُرابة النصف دقيقة، لتوافق فَرحة على مَضَضٍ.. ذهبَ بها إلى حيث هذه الشجرة التي تعلق بأغصانها المُتماهية على الجُدران وصولًا إلى المِقعد ليُحاطا بعصافير من الكناري، وقبل أن يصلا أخبرته أنها

ستطير.. وأخبرها أنها لن تفعل.. دخل معها في تحدٍّ ربحتهُ هي، فقد حلّقت بعيدًا فور اقترابهما..

ظلّت تضحك من أعماقها، وهو سعيدٌ بذلك، سألته لتفاجئهُ:

- كم امرأة تعشقُكَ أيها الشَّاعر؟ وكَم تُحب أيُّها المشهورُ المغرور؟
- مغرور!
- بلى.. قرأتُ ذاتَ مرةٍ أن الشَّاعرَ الناجحُ هو في الأصل نرجسيٌّ كي يتمكّن من الحفاظ على كينونة موهبته واختلاق كلمات جديدة فريدة للون يليق به ويميّزه دونَ غيره.
- صدقَ مَن قال.
- إذن اعترف..
- تصمّمينَ؟
- بلى وأكثر.
- تُحبّني الكثيرات، لكن يُمكننا ترجمة هذا بلفظةٍ أخرى بين هلالين «مُعجبات».. ولكن المهم أنا من أهوى وليس من يهواني!..
- وعن هذا أسأل.. وأكرر أنت مَنْ تهوى؟
- وما الذي سيُفيدك لو قلت لك؟ على ما يبدو أنه لا نصيبٌ بيننا، فلمَ لا نشرع في حياة أخرى؟
- إذن مَن سعيدة الحظ هذه؟ التي بكَ ستعلو ثمّ تُحطّمكَ باحثة عن غيركَ لتتعس، إنها حقًا مجنونة.

يضحك ناظرًا إليها بعجبٍ:

- أتعتقدين ذلك؟ مجنونة.. ربما.. لكنها ذكية وعقلُها مُتّقد.
- إذًا لنُجرّب، لا تدع شيئًا يمنعكَ، ألم تقُل لي إن على الإنسان أن يبحث عن مصدر سعادته لحظة بلحظةٍ، قُلها فربما تُغيّر وجهتها، وربما كانت تنتظرك.

- أردتُ فعل ذلك ولكن...
- لكن تمنعك المُعطيات، ربما معكَ حق، أنا لو كنت مكانك لما خضّتُ هذه التجربة كلها بهموم التعب والشقاء والوجع، أعلم أنكَ تُريد امرأة تُلهمك، تمحو أحزانك ولا تُصيبكَ بالكآبة متى لمحتها.
- ومن قال إنها على تلك الصورة الضبابية، على العكس تمامًا، هي أجمل وأروع فتاة قابلتها في الحياة، رفيعة المقام.. كبيرةُ الشَّأن.
- شوَّقتني، كشوقِ الظلامِ للنور، مَن تكون؟
- إنها...

تستنطقهُ بفضول وشوق..

- أنتِ سيدة ريما، آنسة ياسمينا، فهل تقبلين بي لأكونَ أبديًّا لكِ، مُقيمًا في محراب عينيك؟

(9)

1

في البلد الوحيد الذي ما خاضَ غمار الحربين العالميتين الأولى والثانية، سويسرا، وفي كهوفِ مصارفهِ الهلامية تقبعُ راكدة كالأموات لسنوات طوال.. مُعطَّرة مُعتّقة كنبيذ إسبانيّ أحمر.. جُلُّ الحسابات السريّة من نقود والمسؤولين العرب وكنوزهم، لتكون شاهدة على ضمائر عمّرها الخرابُ فاستولت على أقواتِ شعوبها ومُقدّرات أراضٍ.. ينامُ عاريًّا، ويسجنُ بكسرة خُبز، ويموتُ جوعًا.. مُستضعفها وفقيرها.

أمَّا مقرّ اتحاد كُرة القدم العالمي «فيفا» فقد كانت فيه «الهنوف» رئيسة بعثة دولة قطر، تنتظرُ على مقعدها المُشتعل جمرًا تحتها مِن شدّة رعشات جسدها المُهتز، بعينين شاخصتين كهاتين اللتين تلمعان مِن شدّة الطلاء في أحد الأصنام الإغريقية.

تتشابك يداها، مبسوطتين أعلى الكفّين المضمومين.. اللذين يلتقيان متعرّقين، ليُغطّيا أسفل أنفها مرورًا بفمها المُثرثر بأدعيةٍ أشبه بطلاسم المعابد البوذية؛ وإلى جوارها صديقتها «فيروز سُليمان» وهي صحفية مصرية ومُديرة إحدى الجمعيّات المعنية بالدفاع عن حقوق الإنسان عامة والشأن النسائي خاصة.

مُندهشة.. تُطالِعُ انفعالاتِ رفيقتها التي لم تكُن على هذا النحو مِن «الهَطل» النَّاجم مِن فرط سعادتها لتلهّفِ وجدانها لإفصاح المُنظّمة عن خبر استضافة بلادها لكأس العالم عام 2022..!

فمُنذ أن كانتا معًا في كلية الإعلام بجامعة القاهرة لم تلحظ عليها هذا الزيف المُقنّع.. مرورًا بتخرجهما.. وصولًا لتلك اللحظات التي دعتها فيها لتشاركها هذا العُرس الفريد من نوعه، لكون حصول قطر على تلك الفرصة هي الأولى لدولة عربية.

استعرضت بدقَّةٍ كبيرةٍ سينما ذكريات سنواتها الخوالي معًا..

احتارت..

جلس عقلُها وقلبُها في خليج نفسها مُتصارعين، بعد خُطبٍ رنَّانة وحُججٍ تفتقدُ للمنطق تارة وأخرى تُعلنهُ.. راية بيضاء لملك مُنتصر.

رغم هذا كُلّه ما تجلّت الصورة، ضبابية كثيفة كعشق السحاب على التلال المتأخمة للثلج، والسرابُ المُعانق لغابات السكون الظليلة، في الآماد المُدلل الموحِش مؤانستهُ من ملل الانتظار.

فقررت ألا تحكُم عليها إلا بعد مُناقشتها حين تخرجُ من انتشائها المُسْكِر، ممَّا يُسهِّلُ عليها القطعَ جذريًا.

2

عقب الانتهاء من احتفالات البُهرج الخدَّاع، توجها معًا إلى أحد مطاعم مدينة زيوريخ يُسمَّى مطعم الأرز «Restaurant Le Cedre» اللبناني. جلست الهنوف تُثرثر عن ثمار هذا الإنجاز العظيم، واتخذت فيروز زاوية في حنايا صمتها المُطبق صديقة بديلة لها..

- تنظيم كأس العالم، أتدركينَ ما معنى ذلك فيروزتي؟
- مممممم.
- المجد.. التاريخ.. الإبداع.
- المجد والتاريخ والإبداع!
- ممَّ تتعجبينَ، بل أكثر من ذلك. الكلماتُ تفلتت منّي ولا أجدُ

مَزيدًا.

- أنا.. أنا منبهرة بحجم الفجيعة يا هنوف ليس أقل!
- أعرفُ كم أنتِ جائعة.. ها قد أتى النادل.
- «مبروك.. دخيل الله هاد شي عظيم كتير ست هنوف، رح يشرِّف كل الأمة العربيي، شو بدكُن، مشاوي ولا إشيا خفيفى».
- «حبيبي إنت.. يؤبرني العسل، شو مهضوم، شكرًا إلك ولكل الشعب اللبناني».

تهمس فيروز لها:

- ألا تخجلين؟ تتغزلينَ بشابٍ غريب.. ماذا لو فهمك بصورة خاطئة؟

تُبادلها «الوشوشة»:

- هؤلاء بمثابة أصدقاء فأنا شبه مقيمة في سويسرا، هل نسيت تفاصيل حياة صديقتك، ثمّ أن هذا كله مُجرّد مزح.

يشعُر النادل اللبناني بحرج، يُظهر حضوره بسعلةٍ مكتومةٍ مبحوحة، تبتسم له الهنوف ثمّ فيروز وتطلب منه أن يدوّن طلبها أولًا:

- ما يروق لكِ يروق لي يا صديقتي.
- «موعود بعيونك أنا، موعود، وشو قطعت كرمالُن ضياع وجرود».
- «تكرم عينك ست هنوف، أحلى صحنين عليا عنّا بالمحل إلكُن، بدك شي تاني؟».
- «لا هيك منيح، ما بيصير ناخد شي تاني مع عليا، يخربيت عيونك يا عليا شو حلوين».
- هناك خطورة على قواكِ العقلية صديقتي، فقد رُفع عنك القلم بسبب الفرحة.
- لنعِش يا عزيزتي فلا شيء في هذه الدنيا يستحق.

- أحدُ الأمرين، إما كلاكما مجنون أو مجنون بحق السَّماء.
- لِمَ؟
- أهناك طعام يُدعى علياء.
- ههههه، بلى فهذا اتفاق بيني وبين النادل، بالفعل ذاك اسمه ولكنني أفضِّلُ غناءَ تلك الأغنية للسيدة فيروز التي أنت على اسمها، لا بدّ أن نكون استثنائيتين في كل شيء، حتّى في المأكل.
- هذا ليس استثناءً، هذا دوران حول شيء واحد.
- ألا وهو؟
- لا أجد ما أقوله الآن رُبما سندرك كنهه مع الوقت، لنعود للحديث عن تنظيمكم كأس العالم.

يبدأ وجه الهنوف في العبوس إثر شعورها الخفي عبر حاستها السادسة أن صديقتها قد تبدّلت فلا ترى ضحكاتها إلا رمزًا، فتستغل فيروز الفرصة لتحاورها عمّا يدور في خلدها ويفزعها كون الأولى.. «تعيش داخل حلقات مُفرغة من التفاهة فحسب، أو هكذا تعتقد».

- ما أكثر أمنّية ترغبينَ في تحقيقها الآن يا هنوف؟
- التهام صحن «الشاورما» اللبناني، ومِن بعدِهِ انتهاكَ فحولةِ أحدِ المُغتّرين بوسامتهم وقوتهم.

تدخلُ فيروز في نوبةِ اندهاش مصحوبة بصدمة، بثُلثي فتحة فمٍ وحملقة مُكتملة لعينين لامعتين من هولِ المُفاجأة، تمامًا ككائن حيٍّ وقفَ عندَ رأسه ملكُ الموتِ مُباغتًا إياه.. مُشرعًا دونَ إذن مُسبق في سَلبِ روحهِ لتموت الدّنيا فيه.

تحاولُ تجاهل ما سمعته، لتجد لها سببًا مُناسبًا أو لعلها تهذي..

- نعم.. الآن فهمتُ يا نوفَ أنّ أغنية البوسطة للسيدة فيروز هي

صحن «الشاورما» ويوجد على هذه القائمة باسم عليا.

- ههههه، من الجيّد أنكِ تجاهلت رغبتي الجامحة الثانية، فهي المُفضلة دائمًا بعد مجيئي إلى هُنا.
- شيءٌ لا يُعقل.. أأنتِ الهنوف!.. تلك البنت الخجول التي كانت تنظر أرضًا إذا ما كلّمها شابٌ ولو ألقى السلام فحسب.
- ما مُشكلتك يا فيروز.. ها.. أخبريني ثمّة عُقدة نفسية تجاه الشباب تقيم في داخلك.
- بالفعل ثمّة عُقدة، فقد كُنت أتخيّل أن المبادئ لا تتجزأ، وأن ما تربّينا عليه من قيم يظل معنا.
- ههههه، تجلسين في أوروبا وتحدثينني عن القيم والمبادئ وهذا الكلام الفارغ، استمتعي بحياتك ووفّري وعظك، عيشي كل يوم إن تمكّنتِ من ذلك مع شاب، رافقيه صباحًا في ربوع هذه الجنان الخضراء ليذوب شوقًا فيكِ، وغادريه ليلًا وحيدًا من فراشه الأحمر المُشتعل، بعد امتصاص كل قواه ورغباته، ليموت عليكِ فراقًا.
- لقد نجحَ الغرب بالفعل في جعلنا آل العرب في خندق الأسر بلا استثناء.
- الأسر!
- بلى.. أعنيها.
- تجلسين في بلادهم وتنتقدينهم؟
- بل أجلس في أرض الله، وأنتقد العرب والعروبة.
- قُلتِ الغرب؟
- وقلتُ العرب. وحين تقيمين في حيٍّ من اللصوص وتفتحين بابكِ ليلًا بلا حراسة وتتوقعين صباحًا أن تبقى أغراضك بخير فهذا دربٌ من الجنون، فلن يبقى لكِ شيء بل ربما أنت نفسك

ستقسّمين قطعًا قطعًا وتوزّع أشلاءك على بعض المُختلفين على حصّة الغنائم فيما بينهم.

- تقولين كلامًا كبيرًا جدًا يا فيروز فأوضحي..
- الغربُ وإن كانَ لصًّا فلا يُمكن أن نلومه، لأنَّهُ يلعب ذلك باحترافية وذكاء شديدي الدّقة، بل يجب أن نلوم أنفسنا للتقليد الرخيص، والتمزيق غالي الثمن.
- أنتِ مُبالغة جدًا يا فيروزتي.
- وأنتِ تغيّرتِ كثيرا يا سيّدة هنوف، يبدو أن المناصب والأموال تُغيّب العقول والضمائر، تمحو كلّ ما كان في الروح من جمال وتجعلهُ مسخًا.
- ما دليلُكِ على ذلك؟
- نظرتك الخجول الآن بنصف عين مكسورة إليّ، بسمتُكِ الخافتة التي تحوي في الداخل كلمات استنكار، ولكنكِ تكابرين في الاعتراف بالحقيقة.
- تلك نفسي وذاك شأني وأنا أعلم به. لكن فكرة العروبة والغرب لم تُكمّليها لي.
- على رَسلكِ، لا تغضبي.. فكلُّ شيء في الحياة لا يبقى على حاله حتّى صداقتنا.
- خطيرٌ ومُحزن أن نفترق، أنا صديقتك المُفضلة.
- صديقتي المُفضلة حين كُنتِ كالماء الطاهر لا يبلغه إلا المُجتهد بعزّةٍ، أما وقد غدوتِ كأس خمر يرتشف الجميع منها على آهاتِ الرذيلة ونشوة المادة المُحرّمة، فقد قتلتني وقتلتِ نفسك قبل أن تقتلي أخوَّتنا، والآن دعيني أطلعك على ما هو أكبر منّي ومِنكِ وربما هو صورة كُبرى لما عليه أنا وأنت..

أمريكا تدخّلت في العراق في العام ألفين وثلاثة بحجَّة وجود سلاح نووي وكيميائي، فهل وجدت شيئًا؟

- لا.
- بلى وجدت.. كنوزه وخيراته من نفطٍ وآثار عمرها آلاف السنوات.. وذهب.. والأهم الكُتب التراثية والعلمية لتلك البلاد العظيمة.. حضارة ما وراء النهرين..

قبلها بريطانيا أدخلت عصابة بني صهيون إلى الأراضي الفلسطينية، بدعوى الحفاظ على المقدّسات جميعها وعلى رأسها البحث عن هيكل النبي سليمان أسفل المسجد الأقصى، فماذا حدث؟

- مممم.
- أقول لك يا نوف، لا حلّ السلام في الشرق ولا في العالم، وهم ما وجدوا الهيكل المزعوم، ولا هم أقاموا عدلًا، فما اختلفوا كثيرًا عن الحملات الإرهابية على الشرق باسم الصليب، والصليبُ منهم بُراء..

ثُمَّ أنهم جميعًا اتفقوا على شيء واحد فقط وخلّفوه لنا.. التخلف والجهل والمرض للشعوب العربية التي أكثرها تتسوّل على باب الصفوة المُزيفة من الساسة والملوك والرؤساء والأمراء الذين يسرقون أقواتهم.. ثُمَّ يمنّون عليهم بالفُتات من الرزق الذي به لا يسدّون حاجتهم بل يعيشون فحسب حتّى يتمكّنوا من استعبادهم، مُستخدمين نظرية «العصا والجزرة».

أما عن الغرب فلنتحدث ولا حرج، رغم كوني مُبهورة بالنجاحات العملاقة التي أثمرت حضارات حديثة عظيمة، وأممًا أصبحت كواكب كاليابان وألمانيا، غير أن سلوكهم الداخلي شيء وتجاه الشرق شيء

آخر، حيث أنهم يسمحون لك داخل حدودهم ممارسة كل شيء بحريّة بما فيه الشذوذ الأخلاقي والجنسي، وفي الشرق لا يسمحون لكِ بممارسة عباداتك النورانية ولا طقوس ديناتك السلمية، فكم من مؤامرة حيكت للقضاء على كُلّ عقل عربي، وآخر ما جنيناه هو أن الإنسان العربي المُنتمي إلى حضارة كالمصرية التي علّمت الدنيا كلّها أصبح كائنًا تشمئز منه كل الأرض في أخلاقه وقيمه ومحبّته.

- لحظة يا فيروز.. وما دخل الغرب في ذلك؟
- ههههه، كما جعلوا منكِ الهنوف التي تنام في أحضان الرجال يوميًا مع احترامي لمشاعرك ولا يهمني إن تأذيتِ أو لا، جعلوا من عقول البلد التي أفرزت أمهات عظيمات أنجبن رجالًا حصلوا على جوائز نوبل في كل مجالات الحياة كالأدب والعلم والسياسة.. أشباه رجال، بل أشباه أشباح.
- آلمتني كلماتك في حقّ نفسي، لكن كيف فعلوها.
- بسياسة الاستهلاك يا عزيزتي، يجب أن ندور في أفلاكهم حول شمسهم الوحيدة، فها نحنُ بعدما صدّرنا لهم كل النظريات الحديثة..

الطيران كان لعبّاس بن فرناس..

البصريات كانت للحسن بن الهيثم..

الطب كان للكندي..

الكيمياء كانت لجابر بن حيان..

والنظرية الخوارزمية التي بُني عليها نظام الشبكة العنكبوتية كانت لأحمد بن خوارزم، وغيرها..

حتّى شروح أرسطو في الفلسفة، والتي كانت أم العلوم قديمًا ومنها تفرّع كل ما أفاد الإنسانية، ما كانت لتصل إلينا لولا ابن رُشد وابن

سينا. ولولا مُسلمو الأندلس وعلماؤه ما كان كل هذا العلم ليصل، حتّى أن بعض المُستشرقين اعترف ضمنيًّا بأن كل العلوم الحديثة المتطورة قامت على بذور العلماء العرب وإنتاجهم.. هذا مثال بسيط والحديث يطول فيه.

3

ها هو طعامك قد أتى فالتهميه وحدك، ثّمّ اذهبي لمُضاجعة أحدهم لتخسري قطعة من روحك بإطفاء شهوتهم لعلك تصلين إلى كامل سعادتك المُزيّفة.

- إلى أين.. وأنتِ، وصداقتنا، حتّى حديثنا لم ينتهِ، كلميني عن بقيّة تاريخنا المجيد.
- صداقتنا!

أنا..

أنت..

أرأيتِ هي كلمات تعني الاتحاد، وقد افترقنا مع أولى رشفات أحدهم من شفتيك برضا شهوتك وجموحك غير الشّرعي. نحنُ صنوان، وما يشوبك الآن قد يعتريني في الغد وأنا لا أريد الوصول إلى هذا الطريق. أما عن استكمال نقاشي فاذهبي «للشيخ جوجل» مُحرِّك البحث الذي صنعه الغرب لنا ليحثّنا على المعرفة، فستجدين ملاذك من مصادرها الأصلية فعلماء الغرب بالرغم من مساوئهم غير أنهم لم يمارسوا شيئًا واحدًا نمارسه نحنُ ليلًا نهارًا..

- ألا وهو.
- صناعة الكذب على الناس وعلى أنفسنا.. لكن احذري أن تبحثي كما يفعل كثيرون عن كيفية ممارسة الجنس في أوضاع مميزة،

فهذا الشيء الوحيد الذي نُجيد القراءة فيه والتفتيش عنه ونتصدّر العالم به.

- فيروز انتظري، تعتصرين قلبي ألمًا.
- السيدة الهنوف.. وداعًا، هذا فراقُ بيني وبينك.

4

تحاول الإمساكِ بيديها.. يلتفتُ كُلّ من في المطعم إليهما.. تخفت الأصوات ثّمَّ تتلاشى ويطبقُ الصمت كما لو كانوا في محراب صلاة، أو في مسرح يتابعون آخر مشهد من أحد أعمال «وليم شكسبير» الكلاسيكية..

- دعي يدي، أحتاجها في الكتابة عن كأس العالم الذي ستقيمونه بعد عشر سنوات من الآن، إن أحيانا الله.. حقًّا يا للعجب!
- إن أفلتُّ يديك أعلم أني سأخسركِ إلى الأبد.
- أنتِ خسرتِ نفسكِ قبلي وانهزمتِ قبل أن أُهزمَ أنا فيكِ. قُلت لكِ دعي يدي.. بالمُناسبة وأنتِ تبحثين إذا بحثتِ حقًّا فانظري كم هي تكلفة الرشى التي دُفعت حتى تستضيف دويلتكم هذا التنظيم، وكم هي مليارات الدولارات التي ستُنفق على اللعبة والملاعب التي ستجرى عليها المُنافسات، كل هذا من أجل شهر من اللعب! هناك ملايين من البشر يحتاجون إلى خمسة في المئة بل واحد في

المئة من تكلفة ما ستنفقونه في شيء لن يُقدّم شيئًا للإنسانية سوى مزيد من الصراعات على لا شيء.

هؤلاء الفقراء في دولة كالصومال أو بقيّة أفريقيا أو المرضى أو أطفال الشوارع الذين في حاجة لمن يتبنّاهم وينفق عليهم ليتعلموا فلربما يصبحون علماء يفيدون الأمة.. بدلًا من أن يتحوّلوا إلى عدوانيين.. ثمّ

تحولونهم في الغد إلى مُجرمين، وتنعتونهم في المُستقبل بالإرهابيين لتستبيحوا دماءهم.

شعرت بالإحراج من الحضور، خاصة بعد ارتفاع نبرة صوت فيروز، فأفلتت يدها لتذهب بعيدًا عنها بعد أن رَمت ثمن ما احتسته من مشروب على الطاولة، وعلى وقع خطوات كعبها العالي، تصارعت دقّات قلب الهنوف التي سالت دموعها بانهمار كما لو أن أحد والديها قد توفّى.

أخفت رأسها من الحُزن بانحناءةٍ في نفسها بنصف جلستها على مقعد الطاولة وغابت عن الوعي، دخل بقيّة الزبائن في ثرثرتهم عن المشهد، استفاقت بعد دقائق وطلبت الحساب من النادل الذي غابت ضحكته لتختفي عن المشهد.. وترحل بعد دقائق كصديقتها، وبالأحرى، التي كانت صديقتها.

(10)

1

تتهِمها بشيءٍ مِنَ الجنونِ، بعودة الصدمةِ النفسيَّةِ في ثوبٍ مِنَ الحَبكِ القَصصيِّ، ذلكَ الذي تأثرتْ بهِ مِنْ خالِها المُمزق جسدهُ.. المُسافرة رُوحهُ.

تطرحُ عليها السؤالَ مِن جديدٍ، بصيغة أخرى أكثرَ إصرارًا بضرورةِ تلقّي الإجابة:

- أنا ابنةُ مَن؟
- دعي عنكِ هذه الخَيلاتِ، فأنا لا أفهم ولا أعرفُ لكِ سوى أبٍ واحدٍ.
- ألا وهو؟
- العقّاد الحدّاد، أنتِ ريما بنتُ العقّاد بن الحدّاد.
- أما وقد صرّحَ زوجُكِ بحقيقة غير تلك.. فماذا أفعلُ لكما؟
- وإن كانَ يا ابنتي.. أما سمعتِ قول الله عز وجّل.. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ...﴾ [المائدة، الآية: 101].
- صدق الله العظيم، ولكنّ لماذا كلكم على هذا النحو من التبرير المُطعّم بخبايا الفشل، الذي يُقدّم دائمًا قربانًا للعجز.
- لماذا أنتِ مُحتدةٌ معي على هذا النحو، ثمّ مَن تقصُدينَ بكلّكم؟
- أنتِ.. أبي.. أخي.. وحتّى الشيخَ تيسير.

- وما دخلُ عمّكِ بالأمر؟
- هو أيضًا يستخدم الآية نفسها في غير موضع للردّ على أي سؤال يريد الهروبَ منه أو لا يعرف يقينه، فتضعف حجتهُ.

2

تنتصبُ الأمُّ مكانها، تاركة أوراق «الملوخية» الطازجة التي كانت تقطّفها من أغصانها لتعدّها وجبة غداءٍ. يعتلي صمتُها فمها المجبور، ثُمَّ حولها تدور وهي جالسة على كُرسيٍّ خشبيٍّ هزّاز. لم تعبأ بها أوّل الأمر، حتّى طلبت منها أن تنهض لتفردَ جسدها، ظلّت تُتمتم بالحوقلة والحمدلة والبسملة والمشيئة..

- فزعتُ منكِ يا أمي.. ما بكِ؟ تحومينَ حولي كشرطيّ يشتبهُ في سيّارة مُفخّخة.
- لا شيء أحصّنكِ بعد مُعاينة قوامكِ الملفوف جمالًا، كيف أصبغه الله كعود السفرجل، ووجهكِ المُشعّ بهاءً في عيني، كأني تسمّرتُ لتوّي مندهشة في نافذتي.. أستقبل كلّ أقمار الكون التي خرجت من مدار كواكبها لتلتقي بي عندَ الآماد.

- والنتيجة؟

تعود إلى مكانها لتواصل القطف والقصف.. وقذفَ الكلماتِ التي كانت بمثابة قنبلة على مسامعِ ابنتها ريما..

- أصبحتِ عروسًا، لذا همَّ عمُّكِ بعقد قرانكِ على ابنه الشيخ رضوان.

يحمرُّ وجهها الأبيض ليميل إلى لون الشمس وقتَ غروبها، تنتفض من كُرسيّها بعد لحظات سلام وابتسام وانسجام ظنّت فيها أن أمها

تغازلها لوجه الله تعالى، أو إعجابَ أمٍّ بجمالِ ابنتها التي تحملُ بعضَ ملامحها الأخّاذة.

لم تفقه أن مثل هذه الكلمات لا تردّدها الأمهات إلا في حالة قرع أحدهم أبواب الزواج، جزّت على أسنانها وقالت، بشفتين نصف مفتوحتين وعينين لامعتين على وشك أن تمطرا كسحابةٍ مُحمّلةٍ بالسّخط:

- لا رضوان ولا رمضان ولا أقحوان.

وأردفت بغضب الآيس من الرحمة والتَّريُّثِ..

«مابدي انئِبر هلا، شو زواج وما زواج بها العُمر، واحد وعشرين سني.. كيف بدّي اتحمل ولدنة صغار ورجال هلاّ، وبعدين شو قصتكن، بتعرفوا عندي طموح وبدّي حقّقه».

تذهبُ مُغاضبة إلى غُرفتها، لتختلي بنفسها الحالمة المكسورة، عصفورة لقيطة الأبوين أطلت على العالم وحيدة لا أحد يُجبرُ بخاطرها، أو يحنو عليها ويسمع شكواها.

3

قرعَ عمُّها تيسير العقَّاد بابهم.. التحفت الأم حجابها وأزاحت ما كان في يديها جانبًا، ومالت على باب ابنتها المُغلق هامسة محاولة أثناءها عمّا هي فيه من عناد..

- عمِّك بالباب ينتظر الدخول، غيّري ثيابك وكوني أنيقة فلن أستقبله وحدي.

صمتت.. فكّرت ثُمّ أجابت..

- «ما بدّي قابل حدا.. اصطفلي فيه حلّوا عني يا...».

وقفت في باحةِ البيت خلف الباب الرئيسي، تتنفّسُ الصعداء

محاولة تغيير ملامحها العابسة حتّى لا يشعر أخو زوجها بشيء فيُكثر من الأسئلة، وفتحت له مُبتسمة.

- أهلًا بكَ شيخ تيسير، حلّت البركة.

مرّ من جوارها مُصطنعًا الاستحياء، وفتح باب غرفة استقبال الضيوف، وقبل أن يغلقه على نفسه أعلمته الأمُّ أنها ستغيب لدقائق لتحضّر الغداء هي وريما وستلتحقان به، ثمّ سألته بصوت خفيض:

- هل أتى معك أحد من عائلتك أو سيأتي بعد قليل؟
- لا، أنا وحدي.. أريدكما في موضوع مهم.. أخبري ريما أن تأتي قبلك لحين يجهز الطعام.

بعد شدٍّ وجذب بينهما، كانتا تتشابهان مع مدّ وجزر البحر الأبيض المتوسط في عتوّهِ قُبالة السواحل الأوروبية.. ذهبت ريما إلى عمِّها، وظنت الأم أنها فعلت إرضاءً ورضوخًا لها. إلا أنها أرادت أن تُنهي هذه القصة بذكاء.. قررت أن تواجههم جميعًا في هذا الموقف دون أن تنظر إلى أبعاده وثماره عليها وعلى عائلتها:

- أهلًا بالعزيزة ريما.
- مرحبًا!
- هكذا تحيّةٌ جافة دونَ عِناق؟
- أهلًا بك أيها الشيخ.
- لا أقصد جفاف الكلمات بُنيَّتي، بل برودة اللقاء.
- وماذا تُفيد حرارة الأجساد، وتخلو القلوب من المحبة؟
- المحبَّة؟ «يُقطّب حاجبيه مُندهشًا».
- المَحبّةُ يا عم، أما سمعتَ عنها في الدّين وعند المُثقّفين؟ خذ هذه لجُبران خليل جُبران في كتابه «النبيّ».

وطارت من مكانها نحو المكتبة التي كانت وراء موضع جلوس

عمّها لتلقي عليه النصّ كاملًا، مُتناولة إياه من الكتاب الذي فتحتهُ بفرحٍ وشغفٍ.. على الصفحة المعنية التي تحفظ مكانها عن ظهر قلب..

«إذا الحبّ أومأ إليكم فاتبعوه حتى وإن كانت مسالكه وعرة وكثيرة المزالق.

وإذا الحبّ لفّكم بجناحيه فاطمئنوا إليه، حتى وإن جرحتكم النصال المخبوءة تحت قوادمه.

وإذا الحبّ خاطبكم فصدّقوه، حتى وإن عبث صوته بأحلامكم كما تعبث ريحُ الشمال بأزهار الحديقة.

ومثلما يكون لكم الحبّ تاجًا، يكون لكم صليبًا.

فهو إذ يُنمّيكم يقلّمكم كذلك.

ومثلما يتسلق أعاليكم فيدغدغ أغصانكم اللدنة المرتعشة في الشمس، هكذا ينحدر إلى أعماقكم فيهزُّ جذوركم في الأرض هزًّا عنيفًا.

والحبّ يجمعكم إليه كما يجمع الحاصد السنابل، ثم يدرسكم ليعرّيَكم، ثم يغربلكم لينقيكم من أحساككم، ثم يطحنكم طحنًا، ثم يعجنكم عجنًا، ومن بعدها يتعهدكم بناره المقدّسة كيما يجعل منكم خبزًا مقدّسًا لوليمة الله السريّة المقدسة.

كلّ ذلك يفعله الحبّ فيكم، كيما تنكشف لكم أسرار قلوبكم فتصبحوا بعضًا من قلب الحياة.

إلا أنّكم، إذا ما ساوركم الخوف من متاعب الحبّ وآلامه، فرحتم تبتغون سلامه وهناءه لا غير، فخيرٌ لكم إذ ذاك أن تستروا عُريَّكم، وأن تبرحوا بيدر الحياة، ثم أن تعودوا إلى العالم الذي انعدمت فيه الفصول، حيث تضحكون، ولكن بعض ضحككم لا كلّه.

وحيث تبكون، ولكن من غير أن تذرفوا كلّ ما في مآقيكم من دموعه.

الحبّ لا يعطي إلا نفسه، ولا يأخذ إلا من نفسه.

الحبّ لا يملك، ولا يطيق أن يكون مملوكًا.

وحسب الحبّ أنّه حبّ.

إذا أحبّ أحدكم فلا يقولنَّ: «إن الله في قلبي»..

وليقلْ بالأحرى: «إنني في قلب الله».

ولا يخطرن لكم ببال أن في مستطاعكم توجيه الحب.

بل إن الحبّ، إذا وجدكم مستحقّين، هو الذي يوجهكم.

ليس للحبّ من رغبة إلا أن يتمم نفسه، بيد أنكم إذا أحببتم، وكان لا بدَّ لكم من رغبات، فلتكن هذه رغباتكم..

أن تذوبوا في الحبّ فتصبحوا كالجدول الجاري الذي ينشد الليلَ أناشيده.

وأن تعرفوا ألم العطف المتناهي، وأن تفهموا الحبّ فهمًا يجرحكم في الصميم، فتدمْ جراحكم عن رضىً منكم وعن سرور، وأن تستيقظوا عند الفجر بقلوبٍ مُجنَّحةٍ، شاكرين الله على نهار جديد من الحبّ، وأن تستريحوا عند الظهيرة لتفكّروا في نشوة الحبّ، وأن تعودوا إلى بيوتكم في المساء شاكرين، ثم أن تأووا إلى أسرّتكم وفي قلوبكم صلاة من أجل من تحبّون، وعلى شفاهكم نشيد الحمد والثناء».

4

أنهت المقطوعة القيّمة، أغلقت الكتاب وبلُطفٍ قبّلته وضمّتهُ إلى قلبِها، ثُمَّ وضعته مكانه في ركُن نبي الأدب جُبران الخاص. كان عمّها حانقًا يُشبه المُدخّن الذي يُحشر الدُّخانُ في مُنتصف حلقومه بعد زحمة

سير بين أجزائه، فيتشاجرونَ جميعًا على أولوية الخروج زفيرًا بعد انفراجة وهدأة من عودة الشهيق إعصارًا.

وما إن استدارت من ورائه لتصبح أمامه حتّى فارقت شفتاهُ الغليظتان المُعذّبتانِ بالتشقّق جَلدًا وتمزيقًا من آثار القُبلات الساخنة التي أنهكتهما.. لكونه متزوجًا من أربع علنًا.. واللهُ وحدهُ يعلم كم من امرأة تخضع لسياسة «وما ملكت أيمانكم»، ليفتحَ فمهِ مُبتسمًا باصطناع بعد غضب وامتناع.

- جميلٌ جدًا يا ابنتي قول هذا الزنديق.

شعرَ بصدمتها من كلامه فأردفَ محاولًا تخفيف وطأة ما قال، فما في جعبته يستحق صبره على ما يسمع من فسق حسب ما اعتقد في نفسه..

أعني أن كلام هذا العلماني جيّد رغم اختلافي معه ومن على شاكلته، أليس هو صاحب مقولة:

«أعطنـي الناي وغنّي فالغنـا سِـرُّ الوجـود
وأنيـنُ النـاي يبقـى بعـد أن يفنـى الوجود»

كيف يفنى الوجود ويبقى الناي، إن الله هو الباقي.

ثُمّ أخذ يستغفر بسرعة مُثرثرًا على وقع موسيقى مَسبحته الدائرية الطويلة التي تحمل تسعًا وتسعين حبّة مِن البلاستيك الفاخر المزيّن بـ«اللولو» وتمام المئة خرزة بيضاويّة الشكل زرقاء اللون. رمقتهُ قائلة:

- كُفرٌ.. زندقة.. هرطقة.. وكونٌ يفنى ويبقى النّاي، أنا لن أجادلك في كل معاني التشدّد التي قلتها يا عمي، فأنا أريد المُحافظة على ارتخاء أعصابي، تعلم جيدًا ما كُنت أمر به من هزّات نفسية، لكن دعني أوضحُ لك شيئًا.

- تفضّلي.
- زاد الله فضلك، جُبران خليل جُبران المسيحي هو إنسان في أول الأمر وآخره، إذن فشخصه ومعتقده لا يُمكن أن يحكم عليه أحد فهذا شأن بينه وبين ربّه، وأذكرك بقول القرآن الكريم الذي تستشهد به ﴿... فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ...﴾ [الكهف، الآية: 29]، هذا إن أخذنا الموضوع من جانب منظورك.

أما إذا تطرقنا إلى غاية الأدب، فأنا قد أتفق معك في كونه ربما أخطأ في استعمال فناء الكون وبقاء الناي لا الله.. هذا إن نصّبنا أنفسنا فطاحلة في النقد الأدبي وحررنا نيّة الكلام وتوريته وبلاغته واتهمناهُ بالخروج على النص، وما أعطينا فرصة لروحه المُحررة من براثن الأرض حق الدفاع عن نفسها. الجانب الأخير هو سؤال لكَ..

- تفضّلي.
- زادَ اللهُ فضلكَ، لماذا تركتَ كلّ أبيات القصيدة وأهملتَ تعليقكَ على المقطوعة العظيمة للحب، وماهيته والتي تُعدّ من أجمل تعريفاته في تاريخ الإنسانية الفكري بعد طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي؟

بالمناسبة، في بقيّة القصيدة التي رنّمتها السيدة فيروز بصوتها الملائكي بيت يقول:

أعطني الناي وغنِّ وانسَ داءً ودواءَ
إنما الناسُ سطورٌ كُتبتْ لكن بماء»

أليست هذه بلاغة في القول تحثّك على الجمال؟

لم يُعقّب عليها وعاد إلى غلق فيهِ وشفتيه المُنهكتين من تقبيل نسائه الأربع، وبدأ وجهه يتَّشِحُ بلون لحيته ذات الشعر الأسود الكث، غير أن رغبته دائمًا ما كانت تؤجل ثورة بركان غضبه، ليعود بابتسامة مُصطنعة مُجددًا..

- هل فرغتِ من حديث الكُتب التي لا تُقدّم ولا تؤخّر هذه يا حبيبتي الصغيرة؟ ما هذه الجامعة؟ أتعلمك دراسة الدين أم الأغاني والكلمات الخالية من الحياء؟!

ضحكت حتّى ظنّ أنها لن تتوقف أبدًا، أو أن نوبة جنون من تلك التي كانت تعتريها أيّام مرضها.. قد عادت وبرّتها من جديد.. تهدأ بعدَ وهلةٍ مِن حديث عينيه المدهوشتين بالصمت، تنعم بالتفكير للحظتين ثُمّ تبوح بأحد مكنونات آلامها:

- آآآآهِ، مسكينات نحن صبايا تلك الأوطان الشرقية المأفونة، كُلّ شيءٍ نفعله همٌ وغمٌ على قلوبكم وعقولكم وغير مهم في حياتكم معشر الرجال.
- ما بكِ يا ابنتي؟ تذكّري أنّي عمَك، على الأقل راعي شيخوختي العتيقة.
- وأنتَ يا عم وغيرك.. لماذا لا تهتمون بطفولتنا وبراءتنا، ببكارة أفكارنا، بعذرية أحلامنا.
- وهل أنا هُنا إلا لذلك. «يبتسم بمكر».
- أعرفُ لماذا أنت هُنا. «تبتسم بسخرية».
- إذن لنقُل مبارك لكِ، فابني الشيخ رضوان سيجعلك أسعد مخلوقة.
- لا تُغيّر الموضوع كُنا بالأدب والفكر وحقوق المرأة.
- أي حقوق، احمدن ربّكن على أنكنَ تجدنَ من يأويكُن، العالم بأكمله الآن مشتعل، انظري إلى العراق ومصر وتونس وليبيا..

أوشكت النساء هُناك على أن يُؤخذن سبايا، ويُبعن كرقيق لكل من هبّ ودبّ.

- وزواجي من ابنك أليس شبيهًا بهذا؟
- كيف؟
- سأكون الزوجة رقم كم؟
- الثانية فقط.
- وكم طلّق؟
- خمسًا!
- إذن أنا السابعة لا الثانية وابنك لا محالة سيتزوج بعدي ثامنة وتاسعة وربما ألف، كما أنني لن أقبل أن أكون إلا الأولى والأخيرة في حياة أيّ رجل، ولن أتزوج أيّ شخص لمُجرّد أن بيني وبينه صلة دم، أو حتّى عابر سبيل.

زوجي يجب أن يكون لي حصنًا ومدينة، أعيش معه في نعيم وقت الرخاء ونبني كل جزء في عالمنا معًا، وأن أعيش في ثورة وقت هجوم الدنيا علينا، فإما ننتصر معًا وإما نرحل إلى حياة أخرى معًا. زوجي يجب أن يكون وعاءً لي وأن أكون له قارورة من عطرٍ خالد.

انتصبَ مكانه مُتسمّرًا دون أن ينطق.. احمرَّ وجهه وأصبح شريكًا للأسود، كليلٍ حالكٍ لاح فيه شهابٌ مُخترقٌ لسماء الأرض. أردفتْ لتُزيد سخونة مكايدته..

- ثُمّ لا تُعاير تلك الدول المذكورة فيما ستؤول إليه في فشلها وتجبّر حكّامها وسوء إدارة مواردها والظلم المُنتشر فيها كالنار في الهشيم، فأمُّنا سورية ليست أفضل حالًا منهن وربما ما تتكلم عنه يقع لنا وفينا وأكثر، فأصبحُ وأمي أسيرتين، وتصبحن زوجاتك وزوجات أبنائك عاهرات أو سجينات أو مُغتصبات، وتًصبح

أنت..

لم تُكمل الكلمة إلا وفي لمح البصر صفعها على وجهها مرتين متتاليتين.. ثُمّ دفعها أرضًا بعنف فأسال دمَها من رأسها الذي شُجَّ نتيجة الارتطام.. تورّم خدها الأبيض الناعم الرقيق.

5

قبل أن يَهِمَّ في تحريك مقبض الباب ليخرج.. فتحتهُ الأمُّ وفي يديها صينيّة دائرية عليها ما لذَّ وطابَ من الأطعمة، وعلى وجهها ابتسامة عريضة ضاعت واحتلّت مكانها قبضة قلب واندهاشة مُحيرة حين رأته على هذا المنظر من الغضب، همّت أن تنطق وتسأله..

فدفع بظهر يديه اليُمنى ما تحمل لتتهشَّم تلك الأطباق الزُجاجية والأكواب الكريستالية في أركان البهو وتندثر كحبات رمال في بيداء، ويذهب مُغاضبًا عابسًا.

تستجمعُ ريما قواها وتُسكن آلامها بإرادتها وتُضمّد وتكتُم نزيفها بباطن أحد كفّيها وتردف لتسمعه بصوتٍ عالٍ على غير عادتها.. بقيّة جملتها الأخيرة:

- وتصبح زوجاتك وزوجات أبنائك عاهرات أو سجينات أو مُغتصبات، وتصبح أنت... قوّادًا، أيها الشيخ الذي يُعيّر الناس ويتمنّى لهم زوال النعم.

(11)

1

في بيتِ السحيمي الذي يجمع اسم المُعزّ لدين الله ومنطقة الجمالية بقلب القاهرة الكلاسيكية، أو كما يُطلق عليها الحاضرة الفاطمية، تجلس فيروز سُليمان في الصفّ الثاني من خمسة صفوفٍ، على كُرسيٍّ مُتراصٍ بذوق مع إخوانه، استعدادًا لندوة ثقيفية حقوقية ستكون إحدى المُعلّقات فيها.

ووسط الثرثرة الصاخبة والهمس المُتداخل فيه كثير من الرطن معها ومنها، مِن وإلى بقيّة أصدقائها وصديقاتها من الحضور والمدعوّين.. تأتيها رسالة خاصة في بريدها المُهمل على «الفيس بوك».

لم تُلق لها بالًا في أول الأمر، إذ أنّ بريق شهرتها وجمال أنوثتها يستجلب لا محالة مئات بل آلاف المُعجبين والمُعجبات ليل نهار، بعضها بنيّة التقرب منها والاستفادة من قوة شخصيتها وتوسّع علمها ومحبة عملها الصحفي، وبعضها بغرض الإزعاج نتيجة الفراغ الذي يعيشونه.

رغبت في تصفّحها سريعًا لعلها تلطف جوّ نفسها التي أخذت تَمِل.. فصنعت ماهية خاصة تخيّلية لتبتعد قليلًا عن تلك المُناقشات التي أكثرها سفسطة وأغلبها تفاهة، كادت أن تغلقها لتذهب إلى غيرها

كعادتها.. لولا ما شدّ انتباهها!..

- «مِنْ بضعةِ أيّامٍ أرسلتُ لكِ طلبَ صداقةٍ، وأعرف أنه نظرًا لتكدّس نسبة القبول عندك وأن إدارة الفيس بوك اللعينة لا تسمح بأكثر من خمسة آلاف، لهذا اعذريني على إرسال كلماتي هذه لك دون سابق معرفة، وأتمنى مِن الله أن تصلك حقًا وأن لا تظل مهملة في البريد الذي لا يزوره ولا يشفق عليه المشاهير أمثالك مالم يكُن من أهل الثقة».

راقت لها كثيرًا بلاغة الكلمات والعتب المُصاحب بذوق رفيع في كل جُملة، فواصلت قراءة الرسالة بشغفٍ، حتّى أنها خرجت إلى الهواء الطلق لتجلس على أحد المقاعد المصنوعة بفن يليق بالزقاق الواقع أمام «فوزي السمّاك»، بعيدًا عن ظن الحضور السيئ.. بأنها تتكبر عليهم أو تنشغل عنهم إلى حين بدء الندوة..

2

«أنا فتاة شامية، أظنُّ اعتلال نَسبي، فشكّي يدفعني إلى كوني لقيطة، والحاضر المُضني يعترف بجلال أمّي وأبوّتي، على أي حال ليس هذا بالمهم.. فكُلّ النساء ها هُنا وهُناك، عندك وبعيدًا في أوكار الخطيئة المُسماة بالأوطان.. يجدنَ مصيرًا أشدّ وطأةً من كوني بلا أبوين، بل رُبما بلا مأوى، وما هو أكثر أهمية فكرة أننا معشر النساء نُعامل كسبايا من الدرجة العاشرة بعد المليون..

أشعرُ بالضياع، حبيبٌ في الأفق نحتاج إلى وقت لنكون معًا، وفي آنٍ أهاب هالات النور التي تزداد حوله فهو مشهورٌ مثلك، ولكن في مجال آخر..

وأنتِ تعلمين البريق الذي قد يكون مزيفًا أو أصيلًا وأن الأشخاص

قد يتأثرون به، وأخشى أن أكون دونه منزلةً وقدرًا، لهذا أريده كما يحتاجُ القمرُ شمسًا تزوّده بالضياء، ولا أريدهُ كما ينتحر ذكر النحل من أجل الأنثى الملكة، إنها مُعادلة الرغبة المجزوءة لُثنائية الثقة وعدمها، الخوف والهدأة، النور والظلام.

3

أنا مُشتتة وعلى أعتاب أن أزفّ لأحد أوصياء الدّم المُزيّف، بجبر وبلادة، كما لو كنت قطيعًا من الغنم يُباع لمُترفٍ مخبول بشهوة الإسراف، فيذبحنا جميعًا في عصرٍ وحيد لم تطلع عليه شمس، ويضعني على موائد الرغبة الخانقة، فأذهب في عدمية تبدأ قبل أن تلمسني الأيدي المُستعدة دومًا لنهش الأحياء قبل الأموات، مسنونة الفكّ بنصالٍ حادّة، لامعة من وهج النشوة، ولا تنطفئ اتعاظًا أو تُكبت ردعًا، مهما غاطت في طهارة الدّم المسفوكِ حرامًا.

4

أنا سيّدتي.. ريحانة يافعة، تسعى مُرغمة إلى الذبول، أعيش في تُربة يتآمرُ عليها الجفاف، يطلعُ عليّ النهار بلا ندىً، يغسلُ ألمي المُنعجن بمناعةِ صبري، وتُمسيني الدّنيا بلا كفٍّ وحُضنٍ حانٍ يمنحني وشاحًا من دفءٍ في شتاء العواصفِ، ونسمة حُرية ومرح وجمال في صيف الحُرقة.

5

أنا سيّدتي.. حالمة، بقدر اتساع الكون ولانهايته وبدايته المعلومة لدى الله فقط، بحركةِ الأمواجِ الهادرةِ كأميرة في ظُلمات بحارها اللُّجيّة وأسيرة عابرة لشواطئ المجهول المنسيّة مسكونة بأشباح الانتظار،

وأخرى.. العاجّة بأرواحٍ تسكنُ أجسادًا تلهو وتلعب برمال مجبرة على استقبالها، ثُمّ تبات ليلة سعيدة بفراق العابثين بها نهارًا.

6

أنا سيّدتي.. صرخة الأم وقت الاحتفال بحذق أحد أطفالها الباكي تحتها رغبة في الامتناع عن حضور طقوس مولده، ثُمّ يزداد بُكاؤه ليعود إلى رحمها الأكثر رحابة من كلّ رحمة في منازل الأرض.

أنا بُكاؤها يومَ تقتلع شياطينُ الإنس في إحدى الحروب الدموية فلذة كبد إحداهن، ويصلها الخبر قبل الجسد مسجوعًا بُمقدمة ساخنة تحملُ آيات مُقدسة.. كتبها شخصٌ باردٌ بيمينه ووقع عليها بإمضاء قلمه الإنجليزي.. المُهدى إليه من أحد زملائه جنرالات البغاء والدمار، ثُمّ بيساره يوقّع على غزوة دموية جديدة لإحدى المدائن المُحصّنة وهمًا.. بأسطورة الإنسانية المقتولة سلفًا.. من أول نطّة آدمية على أمنا حواء حين نسي البسملة والمعوّذات فأنجب قابيل ليستبيح عرض أخيه هابيل وروحه.

7

أنا سيدتي.. أنتِ..

ونحنُ أنتِ، وأنتِ أنا..

وأنتِ نحنُ..

كُلّ فتاة في هذا الكون تتمنّى أن تكونَ مثلك أستاذة فيروز، في حضورك وحبورك وجمالك وقوة شخصيّتك، في تصدّيك للظلم ومطالبتك باتباع الحق، رغم أن هذا يُفقدكِ كثيرًا من مميزات رغد العيش ويقلق راحتك.

أنتِ.. حُلمٌ تُحصّنهُ الملائكة بجيوش من الحُرّاس المُحاربين الأشداء، فلا تكون كلّ مشاهده إلا هناءً وسرورًا.

أنتِ.. جمالنا وإظهار عريَ القُبح وتحجيمه، أنتِ سندٌ لكل ثكالى الاضطهاد الإنساني والنفسي والجسدي والطائفي في بلادنا.

8

شردت فيروز قليلًا، تدفقت في أحداقها قطرات من دمع السّعادة، فشقّت من إحدى عينيها طريقًا سطحيًّا بضفتين على أحد خدّيها بعمق نهر النيل بعد انفجاره من هضبة بُحيرات فكتوريا. حتّى وصلت حدّ التدفق جارفة معها محاصيل الكُحل العربي الأصيل الذي تقتنيه بذوق من الأراضي الحجازية كُلما اعتمرت أو حجّت، وتضعه في قارورة فضيّة صغيرة ورثتها عن أمها.. التي وصلت إليها بالتواتر عن جدتها الكُبرى تركية النسب.

على الرغم من أن صديقاتها نصحنها كثيرًا باقتناء ماركة عصرية كـ«لوريال الفرنسية»، لأنها لا تتأثر بعوامل التعرية والجو، فإنها كانت دائمًا تُشير عليهن بالنوع الشرقي لكونها وصيّة من أهل البدو للحواضر بأنه يحفظ العين ويغذي أحداقها وبؤبؤها، لذا كانت أمها كعادة مُقدسة، أسمتها سُنّة نبوية، تزيّن عينيها الساحرتين بالكُحل يومي الاثنين والخميس من كُل أسبوع.

تدفقت مُنهمرة ولم تتجمّد، حتّى وصلت إحداها حدّ هذا المجرى الملاحي وقررت أن تنتحر من أسفل فكيّها لتسقط على هاتفها الذكي ذي الشاشة الكبيرة، وهي تقرأ بنصف عقل وقد تسلّطت على حواس إدراكها مشاعرُها الرقيقة فرحًا بما قيلَ في حقها، وحُزنًا بما وصل إليها من حال تلك البائسة المُحطّمة.

9

استفاقت من غفوتها الفكرية على انتشار جزيئات الدمعة الشقية بطول وعرضه ومنتصفه ما حجب عنها زاوية الرؤية. وقبل أن تُخرج من حقيبتها النسائية المتواضعة الأنيقة منديلًا، مُدَّ إليها علبتان صغيرتان من تلك العلب التي تحمل عشر ورقات ناعمة الملمس ذكيّة العطر.

انتبهت إلى طفلين ماثلين أمامها، لا تكاد يداهما أن تصلا إلى مُتناولها..

ابتسما لها ببراءة.. فابتسمتْ ببراءة أكثرَ أريحية وشمولًا..

وللحظةٍ ردّد الطفلانِ في سرَّهما:

- «ما لهذه المرأة على غير عادة كُل من يأتي ويجلس على هذا المقعد، غير بائسة وغير هائمة في حالة عشق مُزيف نصبه أحد الأشقياء لبنتٍ.. كشرك لإيقاعها في فخّه، ما لها حتّى لا يبدو عليها التعبِ كعمال هذه الناحية من البزارات والصاغة وبائعي الطعام ورواد المقاهي».

فطنت إلى بعض ما جال في خاطرهما وفضحته أعينهما المُرهقة لأجسادٍ لا تجدُ ملاذًا ولا مأوىً.. حتّى ثيابهما الرثّة المُرقّعة لا تحميهما من صقيع الشتاء ولا تستُر لهما عورة.

ولأنها ليست بعيدة عن هؤلاء الأطفال الذين يُعاملون بإهمال من كل فئات المُجتمع بدءًا من سياسة الحكومة وختامًا بالمؤسّسات الخيرية وبعض العامة من الناس.. الذين ربّما يتعاطفون مع حيوان ويكفلونه أكثر من تفكيرهم في هؤلاء. زالت حالة الصمت بين الثلاثة ليقولا لها بصوت خفيض:

- «عايسة مناديه يا دكتولة».
- «آه هاخد منكم علبة واحدة بس، عشان أنا معايا».

أخرجت ورقتين من فئة الخمس جنيهات وناولت واحدة لكلٍّ منهما.. الصغيرة أخذتها وركضت بعيدًا إلى أمها التي كانت تفترش الأرض بالقُرب من أحد الأرصفة وتحمل لفّة على ما يبدو بداخلها طفلٌ يبكي أغلب الوقت، أو ربما دُمية لو كان ساكتًا وظنّه البعض في هيئته المُحصنة لعبة تمتهنها المرأة لاستعطافهم وسلب ما في جيوبهم، قال الصغير بتلعثم:

- «مس عايسة البائي؟».
- «لا خليه عشانك روح هات بيه أكل».

ابتسمت له مُربّتة يديه الممدودتين لها باستحياء، ثُمَّ بيديها المانحة المحبّةِ له.. غازلته بكفّها الصغير وقرصته في أحد خديه، ليضحك ويطيرَ نحو رجُل على رصيف آخر قاعد بجبيرةٍ سوداء.. كانت بيضاء واتسخت من رميته على الأرض، تراهُ دائمًا على هذه الحال كُلّما أتت إلى هُنا.. ولا تعلم أهو قد تعرّض إلى كسر دائم في إحدى قدميه... أو أنه مُدعٍ بمنطق أحد ضباط الشرطة الذي دار بينه وبينها حديثٌ ذات مرة في لقاء عارض بأحد الشوارع، تجلّت أحداثه الآن في ذهنها بعد رؤية هذين الطفلين، ليذكّراها بأخٍ وأختٍ كبيرين مثلهما كان يقتادهما بعد مُطاردة إلى سيّارة البوليس. كل الفرق بينهما بضع سنوات، ومما لا شكّ فيه أن مصير هذين سيصبح مثل مصيرهما لا محالة..

10

- بأيّ جريرةٍ تفعل؟
- وما شأنكِ بهذا، «ويقطّب لها حاجبيه، ويُتخّن صوته».
- فيروز سُليمان.. صحافية ومُديرة إحدى المُنظّمات الحقوقية. «وتُخرج له كارنيه النقابة».

- هذان مُجرمان شحّاذان «ولاد متّين...».

- بعيدًا عن الألفاظ التي تُخرجها إلى مسامعي من لسانك المُقزز، إنهما بيّاعان، البنت تبيع الورد، والرجل لعب أطفال صينية.

- والقانون لا يسمح بهذا، سيادتك.. واذهبي من هُنا وإلا جررتُكِ من معصميك معهما.

- لا تجرؤ!

- وما الذي يمنعني؟

- رتبة تعلوكَ نفوذًا وأكبر منكَ مركزًا، وفي نفس وزارتك التي يتلوث تاريخها العريق وسمعة الشُّرفاء ممن يعملون فيها بأمثالك من القاذورات.

لم يلتفت إلى سبابها اللطيف وتراجع عن الحدّة معها بعدما لوّحت بتهديدها بأنها على علاقة وطيدة «بواسطة» في وزارة الداخلية، فقال لها بلطف:

- أمثال هؤلاء من أطفال الشوارع كبروا وتحوّلوا مجرمين.

- أكرّر على مسامعك.. من صنع منهم أشخاصًا أشقياء؟ ومَن كبّرهم ورعاهم على عينيه؟

يصمت ويُطأطئ رأسه.. تواصل جلدها له بالكلمات لاعبة على وتر إنسانيته لعلّه يتركهما، قبل أن يُقاطعها..

- هذان ومثلهما لا ذنب لهم.

- لا، إنهم خلقوا هكذا يحملون الشرّ، أما قرأتِ قرآن قط.

تبتسم وتستدرجهُ.. ويلتف حولهما كثير من النّاس وحتّى العساكر المُصاحبة والبنت والولد المقبوض عليهما، كلهم يندهشون وينتبهون ليتابعوا حديثهما، حتّى بعض كلاب الشوارع الضّالة التي كانت تلهث وتنبش في الفضلات سكنت ووقفت بلسانها الطويل وقد سال لعابها

وكأنها تُشارك البشر استقراء الأفكار.

- وماذا يقول القرآن.
- «مش فاكر أوي لما كانت في قصة سيدنا موسى، بس فيما معناه لما قتل الخضر الغلام عشان أهله كانوا كويسين».
- أهاااا.. تقصد الآيات الكريمات في سورة الكهف: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاَمًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ [الكهف، الآية: 74].
- بلى هذه هي.
- يا حضرة الضابط هذه الآية لا تعني أن الله خلق هذا الغلام على تلك الحالة من العتو والشقاء.
- ماذا تعني إذًا؟ «سألها بنصف فم مفتوح، ووجه مُندهش».
- الله يقول في غير موضع، ﴿... وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت، الآية: 46]، ولو كان خلق هذا الغلام شيطانًا فلن تتحقق صفة العدالة المُنزّهة المُطلقة فيه، إنما خلقه بالفطرة السليمة ثمّ أصبح هذا الطفل صبيًّا ثمّ علم الخضر بعلمه الذي حيّر موسى، نتيجة فتح الله عليه، أن هذا حين يكبر سيكون شقيًّا، فأراد أخذه رحمة بوالديه الصالحين، ورحمة بروح الغلام نفسها لأنه لم يبلغ بعد سنّ التكليف ومن ثمّ لا احتساب للسيئات عليه.. فيكون في جنّة الله.
- وكيف هذا؟
- الله يقول في موضع آخر من القُرآن ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان، الآية: 3]. فهو يعلم ما كان وما هو كائن وما سيكون، لذا لا يُعجزه شيء.

يثني الجميع عليها، ثمّ تواصل حديثها..

إذًا كيف لنا في هذا الوطن العزيز مصرَ الذي نأمل أن يكون بخير، أن يكون فيه ملايين من أطفال الشوارع بلا رعايةٍ ولا مأوى ولا مشروع قومي يستثمر براءتهم قبل أن يستغلّهم أحد اللصوص ويتحولون في الكبر مُجرمين لا يروقون لك. ثم إن اختار أحدهم طريق الكسب الحلال جئتَ أنتَ وقبضت عليه بحجّة إشغال الطريق العام! عن أيّ إجرام تتحدث؟ وعن أي طريق عام وممتلكاته؟ إنّ الإنسان أولى برعايتكم واحترامه لعلنا يومًا ما نبلغ مصاف الدول الراقية النظيفة المُتقدمة.

أخذ يُكفكف، ثمّ تأفّف وبدلًا من أن يثني عليها راح يسخر منها:

- «الله يخربيت أم الكُتب اللي بتعلمكم التخلف الفكري، وأم النت اللي خرب عقولكم، وأم أمريكا اللي بقيتم عملاء عندها يا نشطاء السبّوبة».

ثُمَّ يزعق في المارة المُتسمّرين استمتاعًا بسلخها له كشاةٍ ذُبحت يوم عيد الأضحى:

«يالا ياخويا إنت وهي كل واحد يروح يشوف شغله يا ولاد الـ...، وإنت ياختي يا ست انت غوري من وشّي وإلا هجرجرك معاهم ولا هتفرق معايا صحفية ولا مهلبية».

تعلم أن شيطانه قد غلب ملائكيته، وأن جسدهُ قد سجن روحه كما أسَرَتْهُ السُلطاتُ المُتعاقبة في دوامة المفاهيم الخاطئة والمناهج القائمة على الظلم والاستعباد، فهو مُستعبدٌ من أنصافِ الآلهة.. الحكّام الذين لا تتغير أساليبهم القمعية.. قبل أن يكون قاسيًا على هذا النحو، يدخلها بعضُ اليأس فتسكت.. يسيطر عليها الحُزن فتقفُ عاجزة.

جلس في سيّارة الشرطة في المقعد الأمامي وأمر عساكره أن يركبوا معهما في «البوكس» الخلفي. وضع نظارته الشمسية على عينيه ولوّح بيديه الغليظتين مُشيرًا إلى أمين الشرطة الذي يقود.. يحثّه على الانطلاق.

ما أرادت أن ينتهي المشهد عند هذا الحدّ وشعرت أنها انهزمت شرّ هزيمة وخسرت إعادة تأهيله للإنسانية واستعادة المظلومين منه، فقالت له لتنتصر لهما ولنفسها بعد أن ركضت نحوه جهة النافذة التي يُخرج يده اليُمنى منها بكبر فارغ:

- هَبْ أنكَ وُلدتَ جائعًا تأكل من «أكوام الزبالة» في الطرقات.. أو مما يجود به عليك أحدُ الكُرماء من فضلات..

هب أنكَ ولدت عاريًا، تتلحف الفضاء وينهش المَارةُ لحمك ولحم أمّك.. العفيف منهم بنظرة إشفاق، والخبيث بقرف واشمئزاز..

هَب أنكَ لم تتعلّم، واضطررت للعمل لتطعمَ نفسك وأهلك، وجلست محل هذين البريئين معك لتبيع الزهور أو المناديل الورقية.

أكنتَ تقول إن الله خلق البعض شريرًا والبعض طيبًا خيرًا؟ يا سيّدي إن الله ساوى بيننا كلّ حسب عطائه واجتهاده، لكن أمثالك شوّهوا كل شيء جميل.

ثم آخر الأمر، وبدلًا من وضع الحلول لكل مُشكلة، تأتون وتجرّون أمثال هؤلاء المساكين كالنعاج إلى محبس غير آدمي ليُعاملوا كالحيوانات، ثُمّ تصنعونَ منهم وحوشًا كاسرة، أي قلوب تملكون؟

بعدما تجاوزها قليلًا، نظر في المرآة ووجد بعض دمعها يتساقط أرضًا، وهي صادقة مُتألمة آسفة..

أمر السائق بالتوقف.. فكّر مليًّا في قولها وفي حال نفسه التي تتألم من فترة لأخرى عبر وخزات ضميره اليقظ الذي يُصارع قرينه الميّت،

ثمّ نظر من النافذة الداخلية في السيارة إلى المُتهمين، فوجد فيهما البراءة التي وسمتهما بها فيروز سُليمان.

أمر فورًا بإطلاق سراحهما، ثم عاود النظر في المرآةِ إليها بخجل، فابتسمت له ابتسامة شُكر وقوة وشموخ، ابتسم أيضًا ابتسامة احترام وتقدير ولوّح لها بعلامة النصر، وأمر السائق مُجددًا بالتحرّك ليغيب في زحام السيّارات على وقع تصفيق حار من الحضور لها في المقام الأول، وله في المقام الثاني.

12

عادت من ذكرياتها على صوت أحد أصدقائها الذي خاف عليها فقد وجد عينيها مغرورقتين كبركة ماءٍ تحتفل بسحابة خصّتها بكامل حصتها من المطر.

- فيروز هل أنتِ بخير؟

جففت سريعًا تلك الأنهار المُتناثرة على خديّها وثيابها وهاتفها.. وردّت عليه مُبتسمة بعد هذا الخليط المُتداخل من الحُزن والفرح والدهشة..

- نعم أنا بخير يا صديقي، ثمّة شيء آلم عيني.
- إذًا هيّا بنا.. الندوة ستبدأ وأنت أوّل من سيتكلم.

أومأت برأسها له، شربت بعض الماء المعدني من زجاجتها التي كانت إلى جوارها، أخبرته بأنها ستلحق به بعد دقيقة، فاستجاب ومضى. ثُمّ عادت إلى صفحة الرسائل النصية بالفيسبوك للرد على ريما التي تعاطفت معها كثيرًا وقررت أن تساعدها حتّى النهاية، فكتبت لها على عَجَلٍ..

«ريما الشامية، أيتها الياسمينة يا رمز الجمال.. وصلتني رسالتك

الجميلة، ولن أدّعي تأثري بما قُلتِ، بل أنا قد تألمت من أعماقي. انتظريني في القريب العاجل، بفيديو خاص لأجلك ولأجل كل امرأة مثلك في الكون، على قناتي باليوتيوب، وهي بعنوان «المرأة روح الإنسانية». سأشنّ حربًا على العُنصر الذكوري لعلّي أقدّم لكِ شيئًا وسط عجزنا جميعًا عن المشي في طريق النور، وضياع أرواحنا وتحطّمها على أعتاب خريف القبح».

(12)

الزمان: 12 شباط/ فبراير لعام 2011م..
المكان: سورية، دمشق، قصر الشعب الرئاسي..
الحدث: اجتماع عاجل استثنائي..

في قصر بشار الأسد ويُعرف باسم (قصر الشعب) وتقطنهُ عائلة الأسد الذي تبلغ مساحته حوالى 511 ألف متر مربع، وفيه قاعات رُخامية مزوّدة بشلالات مياه وحدائق غنّاء، ويبلغ ارتفاع سقفه 20 مترًا، وأشرف على إنشائه المعماري الياباني الشهير «كنزو تانجي».. بوحي من مدينة الزُّمرد في قصة الأطفال الشهيرة «الساحر أوز»، وقد قُدّرت تكلفة بنائه ما يقرُب من «مليار دولار أمريكي»، وهو يقع على أعلى رَبَوةٍ في دمشق ومحصّن بمُعسكرات الجيش مِن كُل اتجاه.

شهد صباح ذلك اليوم اجتماعًا رئاسيًا حكوميًّا عسكريًّا، بين أجهزة الدولة كافة وعلى رأسها فروع المُخابرات الأربعة..
أمن الدولة أو المُخابرات العامة..
المخابرات السياسية..
المُخابرات العسكرية..
المُخابرات الجوية..

تنامى إلى علم بشار الأسد بعد وصول تقرير سري من إحدى

الجهات العالمية أنّ النظام المصري وعلى رأسه الرئيس مُبارك قد انهار بالكامل وأنّ الأخير مساء اليوم سيُخلع من قبل الثوار أو يُقدّم استقالته مُرغمًا.

وقفَ أحدُ العسكريين مُستأذنًا في الكلام، كان جالسًا في الصفّ الأيمن ليد الرئيس، أُذنَ له:

- سورية، ليست كمِصرَ وتونس..

ثمّ جلس، فيقوم مُجددًا بعد ردّ فعل بشّار.. حيث أخذ الأخير يضحك قُرابة الدقيقتين حتّى سادت حالة هيستيرية على الجميع بُناء على تعليمات أخيه ماهر الأسد الذي أشار عليهم بنظراته الحادة بضرورة اصطناع الضحكة ليتواكبوا مع حالة قائدهم المُفدّى، ليسكت الجميع فجأة حين تحوّلت حالته غضبًا عارمًا فزعق فيه وفيهم:

- أسمعتَ يا حضرة الضابط عن وزير الإعلام المصري الأسبق صفوت الشريف؟

ردّ مُرتجفًا:

- بالطبع، وكان ضابط مُخابرات مثلنا.
- مِن أيام عدة وقُبيل اشتعال الأحداث في القاهرة وبقيّة مصر، أخرجَ لسانه وأطل على الشعب وقال مثل جملتك هذه بابتسامة صفراء كما فعلتَ تمامًا «مصرُ ليست كتونس». والحقيقة أنكم معشر الضبّاط لا تجيدونَ سوى إرباك المشهد.
- من فضلك سيادة الرئيس وضّح لنا.

ثُمَّ قام من كُرسية الأوسط على الطاولة البيضاوية الكبيرة، ليتوجّه إلى سبّورة عرض كبيرة عليها خريطة العالم، ماسكًا بعصًا سوداء رفيعة، مُعلّمًا بها عليها بعد أن قال له:

- تربكونَ المشهد.. بالتقارير التي يشوبها العوار، وأحيانًا الضلال،

فبدلًا من أن نقف على حقيقة الأمر الواقع في البلاد والمنطقة بأسرها.. تعيشون بنفوسكم المريضة داخل لفيف من المؤامرات الكونية، فنعيش أحداثها معكم شعوبًا وحكومات، فيصبح الجميع ضحية هذا الزيف..

- لكن سيادة الرئيس..
- اجلس مكانكَ وبأدبٍ وإلا جعلتُكَ في قبركَ الآن، وأخرجتك من الحياة بأكملها لا من الاجتماع فحسب. هذا وقت الإنصات فما هو آتٍ أعظم من كُلّ ما تحاولون إخفاءه أو تجميله.

انظروا جميعًا.. تلك خارطة سورية.. في كل اتجهاتها تقعُ البراكين، وربما تثور من تحت أقدامنا، ها هي مصرَ التي علمتكم جميعًا كيف تحافظون على كراسيكم عبرَ نظامها الأمني الذي يَقهَر ولا يُقهر، انظروا اليوم بأنفسكم يلفظون أنفاسهم الأخيرة، وربما سيجعل منهم الشعب جميعًا لقمة سائغة لكل من هبّ ودبّ، وربما بين عشيّة وضحاها تُعلّق المشانق في كُل الميادين.

يُقاطعه شقيقهُ ماهر الأسد الذي نهض من مكانه متحركًا نحوه محاولًا أن يخفّف من وطأة غضبه:

- لكن الأنظمة الدولية والموازين العالمية لن ترضى أن تسقط سوية بهذه السهولة.

يعود الأسد ليجلس في مقعده، مُربّتًا بكلتا كفيه بعُنف سنّادتي الكُرسي الجلدي ذي اللون الأسود الهزّار الأنيق:

- عن أي أنظمة دولية يا أخي تتكلم؟ ثمّ إن مصر وتونس لم تسقطا، ركّز معي برضاء الله عليك، إن من سقط هي الحكومات، أما الأوطان والشعوب فلا تموت ولا تسقط، بل نحن من ننتهي ونذهب، أي رجال الدولة.

- ولكن يا أخي...
- اسمع يا ماهر.. صحيح أن لنا مصالح مُشتركة مع الأنظمة العالمية كلها ولكنهم أولًا وأخيرًا يتجنّبون انهيار مصالحهم بالكلية، وأفضل طريق يسلكونه في مثل هذه الحالات، أي فورات الشعوب علينا، هي رغبة الشعوب، حين رغب الشعب التونسي أزاحوا زين العابدين، وحين رغب الشعب المصري أزاحوا مُبارك، وببساطة حين يشاء شعبنا سُنزاح نحن أيضًا بإرادة الشعب أو بإرادة المؤامرة الكونية التي تتحدثون عنها والتي نحن جزءٌ منها.
- وكيف سيادة الرئيس نكون نحن جزءًا من مؤامرة؟

يقوم مُسرعًا مرة ثانية إلى الخارطة ويُقلّب صفحاتها الإلكترونية مُركزًا على معالم سورية السكنية والاقتصادية والديموجرافية، يوسّع له الطريق شقيقه ماهر بانحناءة أدبيّة جمّة:

- ها هي جنّة الدنيا أمنّا سورية، الحقّ يُقال وفي ساعة صفاء مع النفس، أن هذا الوطن لم يعُد سوى مقبرة كبيرة للسّواد الأعظم من الشعب.

يتمتم الجميع، كُلٌّ مع رفيقه ومع من يجاوره ومع من يُقابله، يتبرّع ماهر بالرد عليه نيابة عنهم آخذًا بأطراف الحديث من أفواههم، مفوّتًا عليهم فرصة الاعتراض على أخيه:

- سيادة الرئيس حفظك الله، أخي العزيز، إن الشعب كلّه يُحبّك، وقد ارتاح في عصرك وتدفّقَ علينا الرخاءُ من كلّ حدب وصوب، حتّى أنّ عائدات السياحة مُرتفعة والإنتاج المحلي والصناعات في قمة الازدهار.
- ماهر، لا تُحدّثني عن الأرقام الحكومية التي نعلم جميعنا، وإن كانت صحيحة، إلى أين تذهب عائداتها في نهاية المطاف.

- من الشعب وإلى الشعب يا سيادة الرئيس المُفدّى.
- لا يا أخي، إنما الحقيقة التي يخبئها الجميع أنها تذهب إلى خزائنكم السريّة في الحسابات العالمية والمحلية بالمصارف، أمّا الشعب فيلهث حتّى يحصل على فتات يتمكّن من خلالها أن تستمر حياته في العبودية.
- هذا كلامٌ خطير سيادة الرئيس، وفيه بعض العوار اسمح لي بالاعتراض عليه، فربّ العالمين خلق الدّنيا هكذا: غني وفقير، قوي وضعيف.
- أما وقد تكلمت في هذا فأقول لكم جميعًا الحقيقة التي أؤمن بها أنا شخصيًا، ولكنّي مثلكم تمامًا لا أعمل بها، فقد ختمَ الله على قلبي وانتهى بي الحال بأن أصبحت رئيسكم لأنني بلا محالةٍ أشبهكم. انظروا إلى الخارطة.

  «هذه القُرى السياحية على شواطئ اللاذقيّة».

  «القصور والفلل الفاخرة بالقُرب من قصر الرئاسة».

  «حتى قصر الرئاسة هذا».

  «المُنتجعات العلاجية الخاصة».

  «الحراسات الخاصة لي ولكم».

  «الجامعات الخاصة وأولادي وأولادكم يدفعون فيها ملايين الدولارات».

«كل وسائل الترفيه والنعيم، بدءًا من الاتصالات مرورًا بالمواصلات ختامًا بالترحال بطائراتٍ خاصّة والهليكوبتر».

هذا يكون لمن وملك مَن؟

يصمت الجميع وينظرون أرضًا بلا استثناء خجلًا من كلامه، ثمّ يواصل..

أنا أقول لكم، كل هذه لنا نحنُ فحسب، المحظيين، الصفوة، الفاسدين، لنكُن ما نكون، لستُ أُبرئ نفسي فأنا شريكٌ معكم، وربما أتحمّل كامل الذنب. سأخبركم عما تركناه للشعب..

«مجال البحث العلمي للفُقراء.. لا شيء».

«التعليم.. لا شيء، من التمهيدي إلى الصف الابتدائي وحتى الجامعة والدراسات العُليا.. كلّها مناهج قديمة غير متواكبة مع العصر، وتصنيفنا العالمي في أدنى مستوياته».

«الصحة.. حدّث ولا حرج يموت بلا استثناء كل من يُصاب بمرض عُضال، لرداءة المصحّات».

«السكن.. يسكنون القبور والعُلب الخرسانية وأكواخ الصفيح والخشب، ولا يقوى الشاب على توفير مسكن مُناسب ليتزوج فيه، فيعيش مع أهله ويترتب على ذلك مشكلات نفسية واقتصادية واجتماعية، فيموت كبدًا أو يهاجر ألمًا».

يُقاطعه ماهر الأسد:

- ولكنك سيادة الرئيس كُنتَ تتجوّل بنفسك وسطهم، والدليل المطعم العام الذي تأكل فيه مع حرمكم المصون في جبل قاسيون، ويسلّم عليك الجميع وتلوّح لهم بابتسامة وسعادة..

يقاطعه بشّار الأسد ويُعنّفه:

- عن أيّ لقاءات تتحدث، وأيّ مطعم ذلك الذي ندفع فيه في الليلة الواحدة عشرة ملايين ليرة تكفي حيًّا أو ضيعة من الفقراء لمُدة شهر. يا ماهر كُلّنا نعلم الأكذوبة وأنّ الفقر الذي يعانيه الناس ونحنُ أربابه، هو ما أوصلهم وأوصلنا إلى هذه الحال من التردّي، والله يسترنا مما هو آتٍ.

- والإرهاب؟

يُقهقه من الألم..

- كفاكم مزاعم فارغة، نحنُ نصنع المِصباح ثُم نتوهّم أن بداخله عفريتًا، ثمّ نطلقه على الناس، ثمّ ندّعي بوجود أزمة.. ولا وجود لأي شيء، فنحن بحق الله الأزمة ذاتها!
- الفقرُ سُنّة سيادة الرئيس.
- سُنّة وشيعة ويهود ومسيحيّون وشيوعيّون وعبّاد النار، الكل لا يقبلون به. أتقبل على نفسك أن تعيش طوال حياتك تعمل فقط لتأكل دون أدنى حق في أن توظفَ نعمة عقلك لتكتشف طموحاتك؟
- هذا قدري، وذاك قدرهم.
- يا ماهر.. أذكّرك وأذكّر نفسي بقول الإمام علي..

ينطق كل من في القاعة «عليه السلام» باستثناء قائد لواء سُني فإنه يُفضّل لفظة «رضي الله عنه»..

«لو كان الفقرُ رجلًا لقتلته».

أيضًا..

«ما جاع فقير إلا بما مُتِّعَ به غني».

وأذكركم أيضًا بقول الشيخ الشعراوي..

«ما جاع فقير إلا وهناك غنيٌّ سرق ماله».

يترضّى ويترحّم القائد السُّني على الشعراوي، لينظر إليه كُلّ القادة العلويين بتشفٍّ واستغراب، فيبادلهم النظرات إذ يضمر في نفسه...

- «لماذا، حين ذُكِر الإمام عليّ سلّموا عليه كالأنبياء، وأنا حين ذُكِر رمز من رموز عقيدتي وترضيت عليه وترحمت أرادوا قتلي».

أدرك الرئيس بشار الموقف، ليُعلّق عليهم جميعًا ساخرًا.

- هذا أيضًا أحد أسباب بقائنا وضياعنا، فنحنُ نبقى بوجود تلك الفتنة بين أمة محمد كلها. نحن العلويين الشيعة نضطهدَ السنّة والسنّة يضطهدون الشيعة وتتسع الفجوة، ليكسب السياسيون الذين لا دين لهم ويكسب الغرب المُتآمر على الإسلام، وفي الوقت نفسه تخسر الشعوب ونخسر نحنُ احترامنا لأنفسنا. كفّوا عن هذا الآن ولنحاول فهمَ المُصيبة التي أوقعنا أنفسنا فيها..

ماهر الأسد:

- أتريد التنحّي إذًا عن الحُكم؟ أو بعض الإصلاحات الاقتصادية؟
- التنازل سابق لأوانه، والإصلاح الاقتصادي ربما.. ولكن هذا سيكون على حسابنا جميعًا، باقتطاع أجزاء كبيرة من ثرواتنا لعلنا نرضي الشعب ونحاول إعادة بناء الدولة على أسس علمية، فما رأيكم، وما العمل الآن؟

يُتمتم الجميع ويثرثرون، ويبدأ كلٌّ في النظر إلى ما له من بُقعٍ ساحرة في أرض الحاضرة الأموريّة قبل الميلاد.. الأموية الإسلامية بعده.. وما له من نعيم في بقاع الكواكب الأوروبية وكيف يُمكنه العيش دون كل هذا الجمال والمتاع.

يضمرون جميعًا في نفوسهم لبشّار الأسد استنكارًا شديدًا، ثُمّ يبتسمون ابتسامة دهاء صفراء، ويردّون عليه بعدَ إلحاحٍ في إبداء آراءهم بكل صراحة جهرًا غير ما أسرّوا.

- سيادة الرئيس الدكتور قائدنا العظيم، البلاد لن تكون في عهدك إلا بكل خير، فقط علينا الانتظار.. وستمرُّ تلك الأزمة بخير ومن يُفكّر حتى في زعزعة واستقرار أمن سورية وأمنكم، أو يجرأ... فلن يجد منّا إلا الردّ الحاسم.

يشعر بشّار بخيبةِ أملٍ شديدة، يُشير عليهم بالانصراف عدا ماهرًا، ثُمّ يظل في حيرة من أمره، يدقّ على الطاولة من التوتر بأصابع يده اليُمنى وبعد صمتٍ لبُرهة، يقول لماهر الذي لم يكن أقل منه خوفًا وتوترًا..

- أخي، سورية تضيع منّا.. ونحنُ السبب، وهؤلاء لا يفهمون سوى لغة المصالح.. انظر كيف يظنّون أن الأمر سهل وسيمرّ، كأنهم ذاهبون إلى معركة في أوكار الدعارة.. إذًا فليذهبوا ويحرروا هضبة الجولان، التي سقطت بيد الصهاينة منذ عشرات السنوات. آهٍ يا ماهر آه.
- سلامتك يا أخي، هوّن عليك.. سحابة صيف وستمُر.

سورية عصيّة ولن تسقط بيد المُتآمرين.

- المتآمرون..

الإرهاب..

الخونة..

العُملاء..

الـ الـ الـ..

والله يا أخي أخشى أن نكون نحن كل هذا والشعب وحده الملاك البريء الذي يُعاني وجودنا، وأننا حجر العثرة الوحيد في سبيل رفعة هذا الوطن.

(13)

1

أشرقتْ الأرضُ بنور ربِّها.. وجاءَت شَمسُهُ تتبخترُ بخجلٍ، باتزانِ عروسٍ تَمشي الهوينا.. ففي نعومة جسدها إلى قدميها خطّوا الحنّاء المُنعجن بلمعة البهاء؛ طلعت على كُلّ عتيق ومُعاصر في الشّام القديمة، غير أن الأسطح والبيادر كانت الأوفر حظًّا في الحصة الذهبية الدافئة، لكونها الأكثر شغفًا وتلهفًا وتوقًا لحضورها، لذا كانت تلك اللحظة قِسْمَةٌ عادلة بينها وبينهم جميعًا، فكلهم في حاجة ماسّة إلى البهجة التي معها يُعْلَن افتتاح يومٍ حافل بالنور والسرور.

2

تسلّلَ العسجدُ مُخترقًا زُجاج وستارة نافذتها الأبيضين الشفيفين، المُلتصقين بحميمة أخوية لا تسمح لهما بالذوبان، حيث كانت نائمة على سريرها الملائكي.. جُثَّة هامدة، لولا بعضُ الحرارة المُرسلة بخطٍّ مُستقيم عبرَ رُقعةٍ مثقوبة، تبرّع لهيبها بتسخين «بنستين» حديديّتين سوداوين تضعهما إلى جوار ربطة قُماشيّة بيضاء صغيرة مشغولة بـ«الترتر» الأنيق ذي اللون الأزرق الدّاكن، تلفُّ وتسندُ بهنَّ شعرها الحريريُّ الطويل كي لا يسرح وهي نائمة، مُحافظة بذلك على قصّته من «النعكشة»، فقد ذهبت إلى صالون التجميل بالأمس استثناءً، لأجل ما انتوته في الليل.

برعَ جزءٌ آخر من النور في أن يشقّ صفّ الحزمة المُتسلّلة فانعكس على المُنبّه الحديدي الدائري الصغير المُطعّم طلاء من بروزه الخارجية بالفضة وفي داخل مينائه برقت أرقامُهُ المصنوعة من «الاستيل»، والذي بدوره سلّط ما يتلقّاهُ على جفني عينيها المُقفلتين، لعدم مقدرته على التخزين، فلا تتوافر لديه وحدة تُمكّنه من امتصاص الأشعة.

أوّل الأمر فتحتهما، ثُمّ مدّت يُسراها إلى رأسها وانتزعت تلك القطع الساخنة، التي كادت أن تشتعل وتبدأ في حرق حقول شعرها المُنسدل كحقول القمح المُتناسقة المُمتدة بطول البصر في أرضٍ خضراء شاسعة.. صاحب ذلك لحظة صمت من عقلها ودهشة من حالها، تُريد أن تتيقن أنها في وضع اليقظة لا الحُلم.

3

دوّرت عينيها في كل اتجاه، وحين ظنّت أنها ضيّعت لحظتها في الولوج من البيت باكرًا بعد الفجر مُباشرة، كما رتّبت لذلك ولأجله قد نامت باكرًا، ما أرادت الاستسلام للكسل مُجددًا بل أن تحقق أمنيتها..

انتفضت بعد لحظات من تقليب جسدها الرشيق في كل الاتجاهات، هبّت ثمّ توضأت وصلّت الصّبح مُعتذرة لربها على التقصير غير المقصود في تفويت الفجر.

ارتدت أفضل ما عندها من ثياب ووضعت قطعة حريرية سوداء أهدتها إيّاها ابنة الجيران وصديقتها بتول بشارة، وقد اشترتها خصيصًا لها حينما زارت الفاتيكان العام الماضي، فأصبحت فتاة مُسلمة تلبس فوقها طرحة مسيحية، كتلك التي ترتديها الراهبات لكن دون أن تجعلها كالحجاب، فما جمّعت أطرافها ولا حتّى لفّتها أو كوّرتها، إنما جعلتها

بطريقة النصف دائرة التي تظهر منها مُقدمة الشعر أعلى الجبهة (القُصَّة).

قبل الخروج، ذهبت إلى المطبخ ولفّت بعض الشمع في كيس من النايلون ووضعته في حقيبة يدها ومضت بسعادة، ترتسمُ على وجهها ابتسامة سكينة أُهديت إلى روحها.

4

كانت تمام السابعة والنصف صباحًا إلا دقيقة واحدة، وموعدهما كان في السادسة والنصف. وعلى الرغم من كُل محاولاته التي باءت جميعُها بالفشل.. في أن تردّ على اتصالاته وتُكلّمه طيلة تلك الفترة، حتّى ملّ الهاتف من كثرة الإزعاج ونفد صبره ففصل شحن بطاريته، حينها تسلل المللُ إليه. وقبل دقيقة أخرى عزم الرحيلَ، غير أنَّهُ انتظرَ لدقيقةٍ قادمة حتى يحاجّها ويُحاسبها على سَاعةٍ كاملة.

فوّتت عليه الفرصة، بنقرةِ من الخلف على كتفه اليمنى بسبّابتها الرقيقة حيث أتت من ورائه ماشية على أطرافها. وقد ساعدها على ذلك أنها انتعلت في قدميها حذاءً رياضيًا لا كلاسيكيًا نسائيًا، ذلك الذي يمتاز بكعبه العالي.

فوّت عليها الحصول على الانتشاء نتيجة إدخاله في دوّامة عُنصر المُفاجأة فلم يندهش، بل همَّ بتعنيفها. لكنها تعرفُ كيفَ تُديرَ لبَّهُ لقدرتها على تحويل مشاعره السلبية إيجابية والعكس، فقالت مُبتسمة بخجل ودلع.. ماسكة أذنيها باثنين من أصبع يديها اليُمنى ومثلهما في اليُسرى:

- بحجم ما لا حجمَ لهُ، بوسع ما لا يضمّه مكان.. «اشتئتلك».

يتحوَّل ذلك الغاضبُ، الذي كاد أن ينفجر كأنبوب من سخونة

غليانه الداخلي، عصفورًا وديعًا، لكنّهُ يُريد أن تغازله أكثر، فيتمادى في المَكر أكثر وأكثر. وبعد أن ارتاح لكلامها المعسول، وبعد أن فرّغت شحنته بمُبادرتها، عادَ مُصطنعًا هيئته الأولى، فعاودت تُزيده مما أحب..

- أتسمح لي أنْ أغازلك.

طلّت الرَّغبةُ من عينيهِ رغمَ صمته، وفهمتها هي الوالغة في قلبه، وواصلت..

- أيُّها الوسيم اللئيم، هل أنتَ زعلانٌ مِنّي وأنا أتخطّى جمالك بمراحل؟ لا تظنّ أني سأرتمي بين يديك ضعيفة مكسورة، وتمسك بمعصمي كغصن تفركه بأصابعكَ الخشنةِ.. تكوّن قرارَ مصيرهِ كيفما شئتَ، فلستَ الخريف الكاسر، ولستُ وريقة يتيمة لشجرة خبيثة.

كاد أن يفضح نفسه بالضحك على ما قالت، فهو يعرف طريقتها المُستفزة جمالًا في التعبير، يتسلّلُ إليها بعضُ الكِبرِ والغرورِ.. لكنهما مما يُفضّل فيها فهي لا تستخدمهما ضدّه، وحين تفعل تكون كي تُحرّك شيئًا من غيرته عليها.

- نعم، نعم.. تصطنعُ الزعلَ إذن، وتتكابر عليّ.. أنا ملكتك المتوّجة في صفات التُمنّعِ، إنّي ذاهبة.. ماضية في طريق الرحيل.. ولا تركض ورائي كالطفل الذي اشتدّ عوده وبعد أن كان يحبو ويتعلم الهجاء أصبح يتعثّر في قدمي أمّه من كثرة عبثه وعشوائيته في المشي.

5

لا يستطيع أن يواصل الادّعاء أكثر من هذا، أصبح كالغيمة المُتخمة بالماء، تحاول جاهدة من شدّة بُخلها على اليابسة أن تستعير من جيرانها

مزيدًا من الغيث، حتّى يكون لديها مخزون تُقطّره ولا تنثره من أعلى لأسفل مرة واحدة.

هكذا كان.. فلم يجد نفسه سوى مثال آخر من الجمال.. سحابة ربيع شقيّة تتسللُ من خلفِ الضباب إلى تلٍّ بهي تشعّب من سلسلة جبال نادرة، ضمّها إليه بشدّةٍ ومال أسفل عُنقها ناعم الملمس مُضيء الصورة، ليُقبّلها بواحدةٍ مُلتهبة.. خطفها سريعًا بعد أن دفعته غيبوبته وعدم تمنّعها من فعله.. إلى المزيد من الانعجان فيها، فدفعته بكلتا يديها، بعدما تفوّقت أخلاقها على رغبتها الدفينة:

- أجُننتَ، هكذا وسط الطريق العام، تبدُر منكَ تلك الأفعال الصبيانية، ماذا تركتَ للمُستهترين، وأنتَ الشاعرُ صاحب المبادئ وقد أصبحتَ رمزًا للكثيرين.

خجلَ مِن نفسه، ليقول لها بنصف ضحكة مُتردّدة:

- شاعر.. أيُّ شاعر سيدتي، وهل تركتِ لي شيئًا أفعله..

الكلام.. تقولينَ أبلغه.

الفعل.. تُحرّكين أعظمه.

الجمال.. تملكين معصمه.

حتّى اعتذارك لي وغضبي منك، حوّلتِه بخفّةٍ كتلك التي يمتاز بها السّاحر الأسطوري، لا شيء، في وهلة صنعتِ منهُ بُخارًا.

فمَنْ أنتِ؟..

ولماذا أنتِ؟..

وكيف أنتِ على تلك الحالة مِن العَجب!..

- عجب! «هاي» أنتَ، أتراني طائر الرُّخ أو العنقاء؟ أفقْ من غيبوبتك.

- مَن يشمّ العطرَ الذي تضعينه، المُرسل إليك من الجنة مُعدًّا من زهورها، ويضمّ بطّتيك الطريّتين الدافئتين حتّى وإن كانتا

محصّنتين في كهوفِ أخلاقهما، لبضع ثوان فقط ينفصل فيها عن العالم بأكمله..

كيف تطلبين أن لا أعجب؟

- نعم فلتُدارِ على فعلك المشين باحتضانك لي.
- ولم لا نقول أنكِ تُدارين على ساعة من التأخير المُضني؟

ثُمّ يجزّ على أسنانه، في محاولة منه للبحث عن سُبل لمُعاقبتها.

وبذكاء غيّرت كلا الموضوعين وابتعدت عن المساومة..

- يبدو أنّك أصبحت نُسخة كربونية من صديقك مازن، يا ويلي منكَ، أخبرني أين هو؟

شرد منها للحظة، ثُمّ نطق بغير ما يضمر:

- لا أعلم عنه شيئًا.
- بل تعلم.
- بلى، ولكن هذا ليس وقتًا لثلاثة، إنه لي ولك..

واحد

+

واحدة

=

اثنين

=

عاشقين..

فلِمَ تدخلينَ العذّال الآن.

- اهدأ لا تثُرثر فهو صديقك وأردت معرفة أحواله لا أكثر.
- اعتبريه تبخّر...
- تبخّر!؟

- أعني الآن فقط وأعدك، أن أقصّ عليك أخباره بالتفصيل.

6

تحرّكا خطواتٍ نحو مِقعدٍ فارغ، على وقع كلمات وتعابير باسم مارديني الذي طرحَ عليها بدهشةٍ سؤالًا مُركّبًا:

- لم اخترتِ هذا المكان تحديدًا؟ ثُمَّ كيف والساعة لم تتجاوز الثامنة صباحًا وجلّ المقاعد شاغرة؟ شيءٌ وراءه كثير من الأجوبة.

ابتسمت بشروق تصاحبها قهقهة خفيضة..

- لنجلس أولًا قبل أن يحتل عاشقان حالمان المكان اليتيم الذي علينا أن ننقض عليه سريعًا وإلا افترشنا الحشائش، في أيّ ركن، حتى هذا، قد نُزاحم فيه ونتصارع بعد قليل، فلنُسرعْ.

أخرج منديلًا ورقيًا ليمحو الأتربة العالقة بالمقعد يتبعهُ بالثاني والثالث، حتّى نهته ليتوقف بُلطف:

- كفاكَ حبيبي، قد أعدتَ الخشب سيرته الأولى، أصبح لامعًا.

جلست ووضعت حقيبة كتفها بينهما فاصلًا أخلاقيًا..

لم يجلس، لكنّه مال عليها قليلًا وقال برقّة:

- ماذا قُلتِ؟
- ما بكَ، قُلتُ كفاكَ نظافة.
- لا الثانية؟

سرحت قليلًا ثُمّ جرّته من يديه وبخجل قالت:

- اقعدْ يا حبيبي.
- تقتلني هذه الكلمة من جمال شفتيك التي يُسمح لها بزيارة مسامعي.
- نعم كما قُتل صديقك مازن.

تأفّف لكنه ترفّق بعقلها الأنثوي الفضولي:

- مازن مرة ثانية.
- تحمّل، هُن هكذا النساء وإلا كيف لنا أن نحتوي شقاء حياتكم.
- مازن غابَ، وأنا الذي قُتل.
- ما الذي قتلك، أبكلمة؟
- أما سمعتِ سيدتي: من الحُبِّ ما قتل؟ والحبُّ ليس مجرّد كلمة تُقال.
- وماذا يكون، أمتعني يا شاعري.
- قبل ذلك، ألن تأكلي؟
- سنأكل من عطايا الله هُنا.
- أمامنا مطعمٌ فاخرٌ، يُقدّم الإفطار مع تراتيل السيدة فيروز.
- فيروز أقدمها لك أنا، لكنّ قدّم لي بوحك أولًا.
- الحبُّ..

سهر القمر.. ونوم الشمس.

شقاء النجم.. وغفوة البدر.

صلاة الصبح مع نسائم الفجر.

دعاء بلبل طريد في غابات الظلام.

رقصة النفس في هزيع السكون.

بوابة الليل المُشرعة للحالمين.

نور النهار المُطلّ من شجرة السماء.

اتصالُ أرواحنا مع الكواكب التي تبيت، في حجر اللامدى واللامكان واللازمان.

الحُبُّ..

أنا وأنتِ..

أنتِ وأنا..
القلبان الخفيّان..
المملوكان للوفاء فحسب.

تساقطت قطرات من عينها الغارقة في أبهى مجرّة سماوية، توقّف..، بادرت بالبوح حتّى لا يظن أنها تبكي ألمًا لا فرحًا:

- كلامُكَ كزقزقة عصفور أخضر كان يُرنِّم لي مقطوعات عند كلّ صباح في نافذتي وتوقّف في بضع سنين.
- كان يجب أن يتوقّف.
- ولِمَ؟
- حتى آتي أنا وأكون عصفورك الملموس؟
- ألن تطير هاربًا مثله يومًا ما؟
- ولِمَ أفعل؟
- سُنّة الحياة، ماذا يفعل مشهورٌ لامعٌ بامرأةٍ لا تُجاريه في مكانته!

بعدما كان يُخاطبها وجهًا لوجه، اعتدل في جلسته، ومال بظهره ورفع رأسه إلى السماء وواصل حديثه ليتخلّله بعضُ صمت مصحوب بشرود:

- نعم، لذا شكوتِ حالكِ لتلك الصحفية المصرية فيروز سُليمان.
- عاهدتني ألا ترى محتوى رسالتي لها.
- بل عاهدتك أن أدخل بما منحتِني من ثقة على حسابك الشخصي مُترقبًّا ردًّا منها عليك.. لرداءة شبكة الإنترنت عندكِ.
- صحيح.
- لماذا تخشينني؟
- بل أهاب الآتي.

- لِمَ نحنُ الآن معًا؟

تردّ عليه بشيء من الغلظة بعد اختلاط المشاعر في داخلها وتشوّش فهمها نتيجة الشتات:

- ارحلْ إن شئتَ.
- لم أسمعْ شيئًا «أو هكذا اعتبر نفسه».

6

خيّم عليهما الحُزن لدقائق عدة، حاول كلاهما أن يُحارب هذا الدخيل على فرحتهما. في تلك الأوقات ظلّت المسافات تبتعد بينهما وتتقارب، تشابها كثيرًا بموجتين في خلوّ البحر من الريح.. يتعانقان ويقتربان بمرح وكأنهما ما شهدا فراقًا قط، وحين تأتيهما النوّة وتضرب أعماق يمّهما.. يغيبان في ظُلماته، ويظلاّن حيّين على أمل أن يهدأ هذا الجنون أو يموت ليلتقيا على أحد شطآن العُزلة لإحدى الجُزر التي تؤمِّن لهما عيشًا أبديًّا كريمًا.

فجأة وفي اللحظة نفسها التي مدّت يدها فيها داخل حقيبتها وأخرجت شمعتين من تلك اللفافة التي اصطحبتها معها سابقًا، بادر إليها بأمل:

- كُنتُ سألتُكِ عن سبب مجيئنا إلى هُنا؟

ضحكت أخيرًا، فنزلت دمعة فرح عزيزة من يُسراه.

- أتبكي كطفل.
- وهل البكاء لكُنّ فقط.
- يقولونَ ضعفًا.
- وأقولُ رقّة طِباع.. تميّز الطيّب من الخبيث.
- سعيدة بهذا.

- سعيدٌ لأنكِ سعيدة.
- ألديك شيء نُشعل به الشمعتين العزيزتين.
- لا أدخّن.
- أتكذب يا حبيبي.

في سرّه مُبتهجًا» تريد قتلي حقًّا بها».

- لِمَ؟
- لا يوجد شاعر أديب لا يُدخّن؟
- تلك سمعة سيئة من بعضهم وعمّموها على الجميع.
- إذًا تسكر، كُنْ صريحًا.. أيّ نوع من الخمر تشرب؟
- لو كنت كذلك لذهب عقلي من حلو كلامك، وقبّلتك بلا توقّف.

يحمرُّ وجهها الأبيض فيصبح كحبّة الفراولة، يتدارك ذلك ويخرج علبة كبريت من جيب معطفه، ويقدمها إليها، وقبل أن تتهمه ثانية بالكذب، يقول مُسرعًا..

- أشعل بها موقد النار في المنزل أوقات البرد، وهي ضرورية معي، لو شئتِ لأقسمت لك أنّي لا أدخّن.

- أصدّقكَ بعينِ اليقين، وبصيرة المُحب، فلا تقسم. انظر يا سيّدي الشاعر، نحنُ هُنا في «باب توما»، لأجل هذا المشهد الحالم الذي تراه، صف لي شعورك؟
- الأخلاّء، السماء، الخُضرة، المكان الأثري، كأني في عالم آخر..
- وكأني معك ومع هؤلاء الوامقينَ، في لوحة هلامية من الجمال، كلّ مُبدع في العالم منذ الخليقة وضع عليها لمسة.
- أتعرفين قصة بناء هذا الباب؟

أراد اختبارها، ولما همّت أن تنطق بالإجابة سريعًا، وقد تأكد من

ثراء ثقافتها، فأجابا معًا في صوت واحد:

- يُقال إن «باب توما» على اسم أحد رُسل السيد المسيح الإثني عشر، الذين جابوا العالم لتبليغ دعوته.. ويقول أحدهم رواية أخرى.. انتماؤه لكوكب الزهرة.. حيثُ أن أبواب دمشق القديمة تُنسب إلى الكواكب التي كانت تُنقش عليها كمجسّمات.

يضحكان من فرط السعادة والتوافق، ثمّ يسألها مُندهشًا بعد أن أشعل لها الشمعتين بطلبٍ منها، ليمسك كلٌّ منهما بواحدة بطلب منها ويغمض عينيه ويرتّل معها صلوات:

- للمرة المليون أسألك لِمَ الشمع؟ أتكونين مسيحية؟
- الرومان كانوا يقيمون هُنا كنيسة للمسيح.

ثمّ أتى المسلمون وبنوا مسجدًا محلّها.

ثم حوّل الأيوبيّون المكان معلمًا عامًّا، لا كنيسة ولا جامع.

وأنا كثيرًا ما أصبحت أشعر مؤخرًا بانقباضة ما..

فأزور هذا المكان حيث رمز الوحدة لهذا الوطن المكلوم.

أنثر صلواتي وأمنياتي.

يُعيد تكرار السؤال عليها ويفتح عينيه دونها:

- هل أنتِ مسيحية؟

رأته بقلبها وهي مغمضة العينين فقالت بهدوء:

- لِمَ أنتَ كطفلٍ لا يُعظّم الأمور المهمة، ويعبث بها؟ تلك لحظة مقدّسة لنا، أغمض عينيك فضلًا وواصل الصلاة.

(14)

1

تم إلقاء القبض على الشيخ رضوان تيسير الحدّاد، بعد خروجه مُباشرة من الجامع الأموي، أثناء ذهابه لدكّان العطارة الذي يملكه في سوق الحميدية بالشام المملوكية. لم يظهر أي مقاومة أو رغبة في المحاولة للهرب، وتلك ليست المرة الأولى، حتّى أن شرطة الدرك بدمشق تستغرب رضاءهُ التّام على سلبهم حريّته.

يُكفكف جيرانه من التُّجار وبعض المارة على حالته حُزنًا وألمًا، يبتسم لهم. قذف بمفاتيح الحانوت إلى أحد عُمّاله، موصيًا إياه بإدارته لحين العودة، وبصوت رخيم تحفّهُ الثقة يُخبره أيضًا:

- أبلغ أبي وزوجتيّ وإخوتي أن لا يقلقوا ولا يتعبوا.. أيام قلائل وأعود بإذن المولى.

أُخفض رأسه في حافلة الشرطة وغمّى عينيه أحدُ رجال الحملة الاستثنائية قبل أن يُخرجه منها إلى جوار حافلات أخرى كان فيها من أُلقي عليهم في الوقت نفسه ووصلوا جميعًا في اللحظة نفسها إلى فرع أمن الدولة المخابراتي الرئيسي في سورية كلّها.

2

مرّ أسبوع بأكمله وما خرج ولا كلّمه أحدٌ على غير العادة، حتى

أنه في تلك المرة وُضِعَ في زنزانةٍ انفرادية استثنائية، فلا شمس تدخلها ولا قمر، والهواء فيها تصحبه روائح كريهة تحثّ على الغثيان.

شعر بأمر مُريب، إذ إنه للمرة الأولى يُعامل بتلك الطريقة، وبدأ يتذمّر ويقلق. أخذ يصيح في ليل اليوم السابع وصباح اليوم التالي بأعلى صوته، محاولًا استعطافهم تارة وفهم ما يجري تارة أخرى، دون أن يُدركه أحد حتّى نام من شدّة التعب. كانت تُفتح طاقة في الباب بطول وعرض ربع المتر لإدخال الطعام والماء منها ليس أكثر، يُرمى له كأنّه حيوانٌ دونَ أن يعيرَهُ أحدٌ اهتمامًا.

في صباح اليوم الثامن، سُحب إلى مكتب نائب مُدير الفرع مُباشرة، مغمض العينين، مُقفل الفم، في يديه أسورتان لكن من حديد «كلابش» تُربط بهما كلتا كفّيه إلى الوراء فوق مؤخرته. أوقفوه أمام رئيسهم في مُنتصف غرفة مكتبه على بُعد مترين منه.

3

ظلّ ساعة كاملة على تلك الحالة، فقد كان العقيد س/ س، يقرأ خلالها تقريرًا عنه، ثمّ أعقب ذلك مُكالمة مع زوجته كانت أولها سعادة ورضا ثمّ انتصفت بنبرات غضب عاصفة، لتنتهي بلحظات من الصمت أعقبها شرود.. وأخيرًا كلّلها بالاعتذار لزوجته على ما أسمعها من كلمات جرحت مشاعرها الرهيفة.

أغلق سمّاعة الهاتف برفق، ارتفعت على وجهه ابتسامة، هزّ رأسه في الاتجاهات الأربعة حتّى سمع صوت أحد عظامه قد فكّ محنته من كثرة جلوسه على الكُرسي، ثمّ قام مُتوجهًا نحوه، وأشار على أحد

مُساعديه بنزع لصقة الفم التي تُعيق كلامه، ثمَّ قال له قبل أن يصل إليه:

- لماذا لا تجلس يا شيخ رضوان، تفضّل.

ردّ عليه بفكاهة مصطنعة:

- وكيف لي أن أفعل وأنا مُتسمّرٌ كريبوت لم يضع فيه صانعة مُنذ خلقه بطّارية أو شُحنة كي يتحرك.

ضحك بسخرية باهتة، ثُمّ بحدّة وقد تخلّل كلماته تفكيرٌ عميقٌ مُصاحب بتهتهةٍ في النطق تنمّ عن التردّد لا المرض:

- ولماذا لا نقول مثلًا، إن حالتك تلك تُشبه «الجاجة» قبل ذبحها، يا الله إنّي جائع.

يُكركر رضوان، فيواصل العقيد اللعب على وتر الخوف الذي يسيطر عليه..

أو لنقُل أنك تُعدُّ لتُصلب على منارة الشّام محطّ نزول المسيح من السماء، أو تُلقى من فوق أسوار أحد الحصون العتيقة بحلبٍ.. فلتخترْ لنفسك واحدًا مُطلًا على بحر، أو واقعًا فوقَ تلةٍ صخرية.

بحلق رضوان، وبدا الوجوم ظاهرًا على ملامح وجهه الذي يُشبه أبيه الشيخ تيسير كثيرًا، حتى في طريقة حلق شاربه وإبقاء لحيته كثّة طويلة، فلا ينبس ببنت شفّة، ولا حتّى يهم في ذلك، فشروده في الكلام الذي قاله وأخافه به جعله قاب قوسين أو أدنى من أن يفقد قدرته على التحكُّم في أعصابه التي تراخت فأوشك على أن يُبلّل سرواله وأرضيّة المكان حوله. إلا أنَّ العقيد س/س الذي عاد ليتحكّم فيه مُجددًا عبر وتيرة الأعصاب قال مُربّتًا كتفه بعد قهقهة استمرت لنصف دقيقة وهو يملك فمًا عريضًا يشبه أحد كهوف عاد وثمود:

- هوّن عليك، أمازحك فحسب. أنتَ رجلٌ مُخلصٌ لنا، ونحنُ في حاجة ماسّة إليك هذه الأيام أكثر من أيّ وقت مضى. اجلس.

تنفّس الصعداء وتجدّدت دورته الدموية في شرايينه، وعاود قلبه النبض المُنتظم وضخّ الدّماء إلى جسده الذي كاد أن يُصاب بشلل رُباعي:

- أهكذا تُعامِلونَ المخلصين؟ أين أجلس، وكيف؟

يعود العقيد س/س إلى مقعده، ثمّ يأمر مُساعديه أن يقدّموا له العون، ويحضروا له بعض الشاي.

- شُكرًا، هذا لطفٌ منكَ يا فندم، لكن ماذا فعلت لأعاقب على هذا النحو، طيلة حياتي أخدمكم بإخلاص.
- نحنُ نعرفُ ذلك، ونعرفُ أكثر أنك عميلٌ مزدوج.
- أنا!.. معاذ الله، أقسم لك أنني لم أتعامل مع غيركم.
- بلى تفعل.. مع ما هو أخطر من أي أحدٍ، مع شيطان نفسك.
- كيف؟ لا أفهم.
- خيانتك لأمانة ربّك واستغلال الدين في الأمور الأمنية والسياسية.. أي تعاملك معنا هذه شيطنة، والأخطر منها هو ميلك الجَلي في أن تستخدم كل هذا لمصلحتك الشخصية.
- وإنّي أفعل ذلك من أجل وطني.
- لا بل من أجل نفسك.
- لا، من أجل سورية.

ترتفعُ وتيرة النقاش بينهما، وكلٌّ منهما يُجادل الآخر بما يراه صحيحًا. ولم يراعِ رضوان أنه في موقف الأضعف وأخذ يتمادى، حتى نهرهُ العقيد بزعقة أخافته:

- بل أنت خائنٌ لسورية أيضًا، فمن يخن أهله وناسه وعقيدته مرة من أجل حفنة من المال وسُلطة خفية وحماية نمنحك إياها لتظهر للناس في صُورةٍ أخرى مُزيفة.. تقيًّا صالحًا، يفعلْ أي شيء آخر

ويخن ثانية وثالثة لمن يدفع أكثر ومن يُعطِ نفوذًا أكبر.

4

نقر الحاجب الخاص بالمكتب الباب نقرتين ودخل في صمت بعد الاستئذان حاملًا الشاي لرضوان والقهوة للعقيد، وانصرف في صمت، بيدين شبه مرتجفتين ووجه عابس.» لكن من يهتم لأجله على أي حال، ربما هو عامل بسيط أُجبر على العمل هاهُنا من أجل فُتات تُلقى له كل أول شهر لإطعام أسرته التي يكسرها فقرها المُدقع».

فكوا قيوده بعد أمر من العقيد ليتمكن من شُربه، أخذ كوب الماء أولًا.. فريقه بحاجة للماء من شدّة ما تعرّض له من هول، قرّبه إلى فمه بنهم بيده اليُسرى، وقبل أن يرشفه صرخ فيه:

- شيخٌ ويشرب بيُسراه، وتعلّمون الناس عكس ما تؤمنون به!

تشجّع وردّ عليه:

- كفاك لعبًا بأعصابي سيّدي. لقد وَسَمتني بالشخص الخائن. تُرى هل سيختلف الأمر كثيرًا، وسجل سيئاتي مليء بالخطايا، إن أنا شربت بيميني أو بشمالي، ثمّ...

فصمتَ وهمّ بشرب الماء مُجددًا، فسأله:

- ثمّ ماذا، إلام تُلمّح؟
- لا شيء.. «أسرَّ في نفسه: ينتقدني لشربي بيساري وهم يشربون من دماء الشعوب».
- بماذا تتمتم؟
- لا شيء، أسمّي هل هذا ممنوع؟
- حسنًا، هيا اشرب وأرحنا.

يستطعمُ الماءَ برشفة منه فإذا هو ساخن. يضع الكوب من يديه

ويتحسّس الطاولة ليحصل على كأس الشاي الزجاجي. يمسكه ويجدهُ باردًا لكنه لا يبالي. وما إن تذوّقه حتى وجده مثلجًا، فتركه مِن يديه، وأخذ يُتمتم بصوت مهموس:

- ما هذا، الماءُ ساخِنٌ والشاي باردٌ، أنا في فرع مخابرات أم في مُستشفى المجانين.

قهقه العقيد س/س حتّى تراقصت أمعاؤه على وقع كرشه الذي أخذ يتحرّك كطفل يلهو على منطاد ذا سُوستٍ.. يقفز إلى أعلى بحذر ثمّ يهبط بمرح، فيقول له بعد أن شبع من الضحك:

- أراك تسبّنا.

فيردّ عليه مُرتبكًا بغير الحقيقة:

- لا، بل أحمدُ الله على نعمة الماء الساخن والشاي المُثلّج، فالوطن سورية أصبح مليئًا بالعجائب.

تجاهله وضغط على زر لونه أحمر موجود أسفل مكتبه إلى جهة اليمين، وهو واحد أربعة والثلاثة الباقون ألوانهم أبيض وأصفر وأخضر. تابع الضغط عليهم واحدًا تلو الآخر.

يُسمع بعد بضع دقائق وقعًا في الطرقة الخارجية لمكتبه، اجترارًا وعدة لكمات مُتفرِّقات إحداهُنّ عالي الصوت والأخرى مكتومة والأخروات كأنها خبطات في الجُدران أو ركلًا بالأقدام، ويكأنّه ملاكمٌ في قوة «محمد علي كلاي» لكنه غير رحيم قد نزل يوسع في منافسه ضربًا مُبرحًا لكون الأخير ضعيفًا لم يكن قدرَ حجم البطولة.

5

فتح الباب وأغلق وأثناء ذلك رُمي بعض الأشخاص بدفعة مؤلمة ليصبحوا تحت أقدام العقيد س/س.. الذي تحرّك من كُرسيٍّ مكتبه

الرئيسي ليجلس واضعًا قدمه اليُسرى فوق اليُمنى باسترخاء على أحد المقاعد في الغرفة.

لحظات، وسُمع في الخارج خطوات نصف بطيئة ازدادت سُرعتها مع الاقتراب، كثلاثةٍ من الخيول يستعدون للعدو بكحتِ سنابك أقدامهم في الأرض، ثمّ الركض والتحليق حتّى فُتح الباب وأدخل بعض الأشخاص الذين سُمحَ لهم بالجلوس على «كنبة» من الجلد الأنيق تقع على يسار الضابط.

أوشكت الغرفة أن تكتظّ بالأشخاص من كل اتجاهاتها حتّى اعتدل العقيد س/س في جلسته ومدّ يده إلى المُكيّف رغم برودة الجو.. قام بتشغيله كي يسحب الأنفاس التي وصفها بالكريهة بعد أن سبّهم جميعًا بألفاظ بذيئة.

وآخر ما تمّ سماعه.. طَرَقَات مُنتظمة تُشبه مشية حسناء يافعة تعتلي كعبها العالي وتُعلّم في رشاقة أخريات فنون المشي وآدابه بخفة مُتناهية. وقد كُن بالفعل مجموعة من النساء انتفض المُقدّم لرؤية بعضهن وقام من فوره يستعرض قوته بركل هؤلاء المقيّدين المنبطحين أرضًا، لينشط بعدما كان غير قادر على حمل سيجاره الكوبي، ويوسع طريقه إليهن بالمرور على أجسامهم، حتّى وصل إلى يد إحداهُنّ المُمتدة إليه والتي كانت تبتسم بثقة فقبّلها بانحناءة ورحّب بها وأخذها من وسطهن وأجلسها على مقعده الرئيسي كمحظية من عصر السبايا.

الأصوات في الغرفة تُشبه فرقة موسيقية فاشلة تعزف مقطوعة من النشاز، فالجميع بين متألم ومتأوّد ومتأفّف وضاحك وباكٍ. جلس على كرسي بوضعيته الأولى نفسها وزعق فيهم جميعًا فسكتوا خوفًا وجبرًا...

- هااا، شيخ رضوان كُنتَ تتحدث عن الشاي البارد والماء الساخن

وتسخر مِنّا.

اسمعوا جميعًا هذا ما يحدث الآن بالفعل، كُلّ شيء يريد أن يتجرّد من أصله، ويغيّر ثوبه، ويلبس جلد الأفعى أو يتحول أفعى حقيقية.

وإن لم نتّحد جميعًا من أجل مصلحة هذا الوطن العزيز في الغد القريب، فلن نقوى في المُستقبل البعيد على فهم أي شيء، بل إن كلّ شيء سيتحطّم، نهر بَردى قد يفيض دماء لا ماءً..

جبل قاسيون ربما تأكل فوقه من رؤوسنا الطير ونحن مصلوبون أو ممزقون أشلاءً بعد أن كنّا نأكل ونشرب ونسهر متى شئنا ما لذّ وطاب.

ردّ الشيخ رضوان بعد أن تعثّر في الكلام لوهلة:

- أنا أفعل ما في وسعي كلّ ما يطلب منّي من معلومات حول المُتردّدين على المساجد في منطقتي، وكلّ من يجلس ويتعلّم في حلقات القرآن والذكر، وحين ألمح عليه بوادر الانشقاق أخبركم عنه لتقبضوا عليه.
- أسكت يا شيخ رضوان، دورك لم يأتِ بعد.. ولا تنطق ثانية إلا بعدما آذن لك.

يُشعل سيجاره بولاّعةِ المرأة التي احتفى بها، يرمقها بنظرة غير بريئة، فتُعطيه قُبلة طائرة من شفتيها الحمراوين. يواصل بعد أن خيّط سماء الغرفة بكثير من زفير دخّانه الكثيف:

- قُلْ لي يا مازن، هل أنت الآن على ما يُرام؟

كان في غيبوبة مؤقتة من سُكرِ الألم، فاستيقظَ منها على وقع صفعة حديدية من يد الضبّاط المعاونين للعقيد، أطاحت به أولًا ليرتمي في أحضان إحدى النساء اللواتي كُنّ إلى جواره، فينسى أحزانه ويشعر أنه أخيرًا قد صعد إلى الجنة وبُعث في نَهدي حورية تشعّ جمالًا.

- هل أنتِ أرضية يا بُنيّة أم سماوية؟

يزعق فيه س/ س، فينتفض ويعود إلى الواقع، مُتكلمًا بوتيرة سريعة جدًا كأنه جُنديٌّ نوديَ عليه في طابور الصباح داخل أحد المُعسكرات، وسئل عن أحد الأمور من قِبلِ قائده:

- مازن زيدان يا فندم..

شاعر سوري..

ثلاثون عامًا..

أعزب..

ولا أريد أن أتزوج..

أحب بلادي..

وتراب بلادي..

وقائد بلادي المُفدّى..

وعلى استعداد أن أموت لأجلها..

وأحبّ سيادتكم رغم أنني ما رأيتك في حياتي، ولكني ألفت صوتك العذب الذي تكلموننا به من خلال حُجب. قد ذبتُ فيكَ عشقًا.

وفجأة وبعد أن كان واقفًا مُنتصبًا مُتخذًا وضع الجُندي ويداه إلى جانبيه، سقط مغشيًا عليه.

6

لم يُلق له بالًا، ونظر إلى أحد مُساعديه، مُشيرًا عليه أن يقرأ على مسامعهم جميعًا أسماء المُتعاونين والممتنعين وهؤلاء الذي يقفون بين بين.

- أصحاب الزر الأحمر يا فندم..

عذّبوا بالكهرباء، ثمّ بقلة الطعام، ثمّ منفردين في غرفة موسيقى الماء، حيثّ وضعنا كما أمرتَ صنبورًا أعلى السقف وضبطناهُ على أن

ينزل منه الماء قطرة قطرة، فاستسلموا جميعًا آخر الأمر وقرروا التعاون بعد امتناع شديد.

يُقاطعه ضاحكًا..

- قطرات الماء تجعلهم يستسلمون والكهرباء وقلة الطعام والتعذيب لم تثمر شيئًا! إنها حقًا وسيلة تفوق في موسيقاها سمفونيات بيتهوفن.
- ثمّ صاحبات الزر الأبيض استجبن جميعًا للنداء وأتين أمامك سيّدي.
- نعم، الحسناوات المومسات العاهرات، السلاح الأخطر والأفتك، وبهنّ ولأجل عيونهن تقام الحروب.

يضحكن بتأوّد كما لو كنّ على فراش أحد البُغاة، فيأمرهنّ بتمالك أنفسهن وإلا أطلق عليهن كلابه، ويأمر معاونه باستكمال نقاطه:

- أما أصحاب الزر الأصفر، فجميع من كانوا يُعذّبون قد ماتت أرواحهم الخبيثة إلا واحدًا ينزف الآن في زنزانته وما أردنا أن نفزعك بشكله المُقرف، على أي حال سيموت بعد قليل.
- التالي...
- أصحاب الزر الأخضر المشهورون من رجال الدين والأدباء والإعلاميون والفنّانون ورجال الأعمال، ومنهم مازن زيدان قد استجابوا عدا هذين الشخصين.

أشار إليهما وقد كانا وسط المُقيّدين أرضًا، ركلهما بسنّ حذائه ماركة «تمبرلاند» الأمريكية ذي اللون الأصفر، فتألما ونزفا من أنفيهما، ليسأل مساعده:

- هل تمنّعهما نهائي أو ربما تلين أفكارهما ليصبحا معنا فيما بعد؟

أومأ برأسه يُسرة ويمنة، علامة الرفض..

قال لهما برقّة على غير عادته:

- شيخٌ جليلٌ معتدلٌ، له مؤلفات في هداية الناس ونبذ العنف ضدّ المرأة ومحاربة الفتنة بين طوائف المُجتمع، سنّة وشيعة، ومسلمين ومسيحين، كيف لمثلك أن يقف أمامنا ويكون أداة مُساعدة للإرهاب المُحتمل في البلاد؟

يتحرّك ببطء.. الشيخ الطاعن في السّن نحيل الجسد أبيض الوجه واللّحية، ثمّ يردّ عليه رامقًا إياه بنظرات احتقار:

- والله لا أبيع آخرتي بدنياي، وأنا على حافة قبري.

يُقاطعه بغضب:

- وهل أنت أفضل من الشيخ رضوان الحدّاد، ها هو يتعاون معنا منذ زمن، وانظر إليه في أفضل حالة، ويحظى بحماية ودعم لا مثيل لهما.

يُقاطعه ساخرًا بنصف ضحكة ووقار:

- نعم، يحظى بدعكم وحمايتكم، على تخريب الدين وعقول المُسلمين، وعلى زرع الفتنة وجعل الإسلام يبدو أمام العالم كأداةِ عُنفٍ وتخلّف، بعدما كان وسيلة هدىً ورحمة من رب العالمين.

- أنت يا شيخ تُعطي الأمور أكبر من حجمها، ماذا سيحدثُ لك لو..

«أخذ يفكّر له في حيلة يقنعه بها».

سحبَ بعض تفكيره بما فتح الله عليه من بصيرة ليقول له معاودًا السخرية:

- زوجتي ميتة، وابنتي وابني الوحيدان يعيشان في بلد غربيّ لستَ قادرًا على ما تفكّر به لتضغط عليّ..

فلن تغتصب ابنتي أمامي.. ولن تقتل ابني أو تعذبه فأرضخ لك.. حتى وإن كانا هُنا، فهما أكثر منّي صلابة وسيصبران على ابتلاء الله.

ينظر إلى أحد مُساعديه، رغبة في التأكد من كلام الشيخ حول إقامة

ولديه في الخارج، فيتأسف لصحّته مُعطيًا إياه التقارير الخاص بذلك.

قرأهُ سريعًا ثمّ مزقه قطعًا صغيرة وألقاهُ على وجهه ليشعره بالإهانة، وحاول إخفاء غضبه فوجّه كلامه للشخص الآخر، مُخرجًا وممثلًا مشهورًا:

- وأنت سيد جمال حسن، صورة مشرفة للوطن وأفلام الجمال والذوق، وتنتمي إلى حزب ليبرالي أو علمانيّ أو شيوعيّ على ما أذكر، فلماذا تنطح ما تعلم أنه سيؤدي بك إلى فَقْدِ حياتك. ولن نتألم ونعبأ لشهرتك أو لسيرتك الفنية ولا لجماهيرك، أنت الذي ستخسر كلّ هذا.

يضحك بألم ويردّ عليه بقوة:

- خسارتي لكل هذا ربما تعوّض في العوالم الأخرى، لكن خسارتي لنفسي ومكسبي لكل هذا في دنياكم يا عسكَر النكسة والهزيمة والفشل، فلن أتمكّنَ معها من العيش يومًا واحدًا بهذا العار.

يعدل له قميصه الممزق أسفل حنجرته، ثمّ فجأة يلكمهُ فيزداد نزفه من فمه:

- نحن فاشلون، وأنتَ ماذا تُقدّم؟.. ها أخبرني.. أفلامًا خليعة ورقصات وقبلات وأحضان ساخنة.
- ها أنتَ تتابع، إذًا أنت مثل ما ترى.
- لا يا ابن... أنا أتابعكم لأرى فضائحكم؟
- قبل قليل كُنت تمدحني وتمدح فنّي، والآن تحوّلت أفعالي إلى جرائم.

على كُلٍّ فالغرفة نفسها بهوائها الملوّث، بالجماد فيها، بالبشر، بالدّم المُسال منّا، بأولئك العاهرات ورائك، كلها تشهد بأنكم أنتم المجرمون وأن فضائحكم لا مثيل لها.

7

هرول إلى مكتبه ودفع المرأة الحسناء الجالسة على كُرسيّه أرضًا، ثُمّ فتح أحد أدراج مكتبه الخشبي الأنيق ذي اللون البُني الداكن، أخرج منه مُسدسه، وفي لمح البصر صوّب على الممثل المشهور جمال حسن..

أرداهُ قتيلًا في الحال، فصرخت النساء وذُهل الرجال بمن فيهم معاونو العقيد. جثا الشيخ الجليل على ركبتيه أرضًا محاولًا احتضان المقتول فورًا، وقرأ ما تيسّر له وما لم يتفلّت من القرآن وهو في حالة من الألم التي يُصاحبها البُكاء:

- ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ❋ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ [الفجر، الآيتان: 27-28].

وواصل ناظرًا إلى الضابط..

حسبي الله ونعم الوكيل، بأيّ ذنبٍ قتلته؟

دون تفكير، يردّ عليه ويُلحقه بالمقتول أيضًا ببقيّة ما تبقى من ذخيرة في مُسدسه:

- كما قُتلتك أنت، والذنب أنكم خونة وتستحقون الموت.

بعد حالة هرج ومرج في الغرفة، أخرج المعاونونَ كلّ مَن في الغرفة، ودخل الحاجِبُ مُرتجفًا وهو مترددٌ في ذلك، ليعطيه كوبَ ماء مُثلّج وحبّة دواءٍ مهدئ. وخرج بعدها من الغرفة راكضًا وإحدى يديه على صدره الذي ينبض فيه قلبه بسرعة المكوك الفضائي، والثانية كانت تمسك بـ «صينية» الطلبات فوقعت منه على الأعتاب. أغلق على العقيد س/س الباب من الخارج وتركه وحدهُ في الداخل، شاكرًا الله على نجاته منه.

(15)

1

جلست ريما العقّاد وصديقتها بتول بشارة أمام التلفاز مُتسمّرتين، وقد أخبرت كل من تعرف ومن لا تعرف عن ذلك البرنامج الذي لطالما انتظرته طويلًا. وعدتها فيروز سُليمان بحلقة خاصة على اليوتيوب غير أنها حين أوفت نفّذت في مكان أوسع انتشارًا، إذ كان اللقاء في إحدى القنوات الأوروبية التي تبث من الشرق الأوسط وعن أحوال العرب، كان عبارة عن لقاء يجمعها بشيخ من إحدى الدول التي تمتاز بالتمسُّك بالمنهج الديني المُتشدّد.

لم يرق هذا كثيرًا لوالدتها حين علمت أنّ محور الحديث بين رجل دين وفتاة غير مُحجّبة ترتدي ثيابًا عصرية تميل إلى الأوروبيات في مظهرها، وبالتالي هي في نظرها من العُصاة، فوجّهت السؤال لابنتها الياسمين وصديقتها بنوع من التهكّم، وذلك أثناء الفواصل الإعلانية قبل بدأ الحلقة، فدار النقاش مُحتدمًا بينهن:

- مَن فيروز هذه؟ هل هي مسيحية مثلك يا بتول؟

تشعر بالحرج، لكنّها منذ زمن تربّت على انتقادات أم صديقتها اللاذعة، وتعلم أن سجيتها نقيّة وقلبها أبيض لذا لا تُبالي، فابتسمت وردّت عليها بأدبٍ جَم:

- لا يا «خالتو» إنها مُسلمة، لكن لم ربطت بيننا؟
- الصور التي مهّدوا بها عنها تُشير..

- يا أمّي لِمَ أنت دائمًا هكذا؟ ثمّ ما علاقتها حقًّا ببتول، أنا أريد أن أعرف مثلها؟
- الشعر يا حبيباتي، غير مُحجّبة، ثُمّ كيف سمحَ لها هذا الشيخ بمُناظرته. تُرى وهل ستجلس أمامه هكذا دون غطاء رأس وهل يأذن لها؟
- يا أمّي أليس هناك مسلمات غير مُحجّبات قد أصبحن أكثر من المسيحيات في التجرّد من التقاليد، ثمّ إن هذا ليس مقياسًا.
- نعم يا خالتي، فنحن كمسيحيات لسن بتلك الصورة المُتجردة في ذهنك، وهذا القُبح الظنّي.

شعرت بشيء من الأسف على ما قالت. وأدركت الإبنة حرجها فتطوّعت بالردّ بدلًا منها حتى تتمكن من التعبير بصورةٍ لائقة تقنع بها بتول التي بدت لها الأمّ غريبة عنها من هذه الأقوال التي ما صرّحت بمثلها من قبل، وكأنها لا تعرفها:

- بالمُناسبة يا أمّي هُناك في الأديرة راهبات وكُلّهن مُتدينات بصورة مُثلى، تفوق في كثير من الأحايين تديّن المُسلمات، والدليل عمّة بتول التي وهبت نفسها «للعدرا».. هي الآن في قلب الفاتيكان تعمل من أجل العالم المسيحي الكاثوليكي.

تُقاطعها بافتعال، فقد حسّت أنها مخطئة:

- يا حبيباتي.. أعرف شأن عمتك يا بتول وأظنّ أنك في الطريق إلى المصير نفسه لذهابك الكثير إلى هُناك، ولكنني ما قصدتُ إلا أن نحافظ على صورة المُعتقدات التي يغيبُ مع الزمن احترامنا لها ويفقد رجالها الوقار والهيبة وسط الناس.

تضحك بتول من أعماقها..

- تسخرين منّي يا ابنتي؟

- لا يا خالتي فقط أنا أستغرب من فكرتك بأنني سأصبح مثل عمتي كاتيا. كلّ الحكاية أنها من ربّتني وأشتاق لها كثيرًا وهي أيضًا.. لذا كلّما وجدت إحدانا الفرصة المُناسبة لزيارة الأخرى فعلت.
- يا أمّي ما بكِ اليوم؟
- لا شيء يا ريما، أخبرتكما لم أرتح لفكرة فتاة غير مُحجبة وشيخ جليل في لقاء واحد.
- ولِمَ الحكم على الأمور والتعجل بنتائجها قبل أن نرى أيّ شيء، ثمّ لماذا هكذا أصبحت تحاسبين الناس على مظاهرهم؟.. تلك علامة فارقة يا والدتي، تفكيرك صار عجيبًا.
- وما الغرابة فيه؟
- يعني إن ارتدت فتاة الحجاب فهي مهذبة، وإن لم ترتدِه فهي مسيحية أو في نظرك غير أخلاقية.
- لم أقل ذلك، ولكن هذا كلام المنطق والواقع.
- وهل أنا في نظرك هكذا أيضًا يا خالة.
- أنتِ ابنتي يا بتول، وقد ربّيتك على عيني مع ريما.
- إذًا ما الفرق؟
- تلك مُعتقداتك وأحترمها.
- نعم تحترمين مُعتقداتي لكن يبدو أنك لا تحترمينني!

تسود حالة من الصمت بين الثلاث، تُسارع ريما بتدارك الأمر ثانية، محاولة تغيير الموضوع المُتنازع عليه فكريًا:

- أمّي لا تقصد هذا مُطلقًا يا بتول، ثمّ أنّ الناس ليس بظاهرهم، وهي تُدرك هذا جيدًا، وإلا ما كانت لتدعو في كلّ صلاة لك ولكل بنت في هذا الوجود بالصلاح والستر.

تقهقه بتول:

- أمّا الصلاح فأكيد تدعو لي أن أصبح مُسلمة، وأما الستر وأعرف أنكِ تعنين الزواج يا خالتي.. فلا أريده.

تُشير إليها بكفّها في ردّ فعل متوقّع:

- قد قُلت لكِ، تريدين أن تترهبني وتذهبي إلى أديرة إيطاليا.

2

على وقع ضحكاتهن تبدأ الحلقة بإشراقة من الإعلامية المُتميزة...، تتوجّه الأم إلى المطبخ لإعداد الطعام متأففة وهي تعلم أن لا فائدة مما ستحضر.

مُشاهدينا في كُلِّ مكان، سواء من كان يستمع نُسختنا العربية الأصلية، أو المُترجمة أو عبر لغة الإشارة لذوي الاحتياجات الخاصة، أهلًا بكم..

لم يَكن الشرقُ الأوسط وتحديدًا بلاد العرب يومًا في دعةٍ من الحُريّات والسَّلام الاجتماعي اللهُمَّ إلا بعض الومضات التي أضاءها النبيّ مُحمد «صلى الله عليه وآله وصحبه الأطهار وسلّم»، والتي من بذورها شقّ العالم بأكمله طريقه نحو مساواة المرأة بالرجل في الحقوق والواجبات، ليخرُجن من عباءة التبعية والجاهلية إلى رحابة التشارك، بل وكثيرًا ما كانت هي القائدة. وهناك نماذج كثيرة بالغرب دالة على ذلك، كرئيسة البرازيل ومُستشارة ألمانيا.

لكننا نعيش الآن في بلادنا العربية واقعًا مريرًا مُنذ أمد بعيد، ولا نفهم متى وكيف يُمكن الخروج منه، نتيجة ما آل إليه حالنا من تشرذم وتفكك وتخبط على الأصعدة والمستويات كافة.

وباستضافتي اليوم في الاستوديو للتوقف على قضيّة «المرأة

ودورها الريادي من منظور ديني ومُجتمعي».. الشيخ الجليل عكرمة التميمي مُنسق عام حركة الأصالة والأستاذة الصحفية الحقوقية فيروز سُليمان، وعبر الأقمار الاصطناعية مِن إسبانيا الشاعر والمفكّر العربي باسم ماrديني، وقد شرّفوني جميعًا بالمُشاركة.

3

تنظر الإعلامية إلى الشيخ عكرمة التميمي تجدهُ في حالةِ غضبٍ قد سيطَرت على وجهه الذي أماله إلى الأرض لم تفهم لم هو على تلك الحالة، نادته فردّ ولم يُبن لها عينه:

- أغضُّ بصري حتى يهديكن الله، وترتدين شيئًا على شعركن المُنسدل.

تنظُر في اندهاش إلى مُخرج البرنامج، وتهمس في «الإيربيس». يحثها الأخير أن تضغط على نفسها قليلًا وتكمل الحلقة، فتنظر إلى فيروز التي تفهّمت الموقف لتخرج من حقيبة يديها طرحتين سوداوين لتوقّعها حدوث ذلك.. فتلك ليست أولَّ مرة تحدث مثل تلك المواقف المُحرجة معها. تضع واحدة على رأسها وتُهدي المذيعة الأخرى، ليتواصل اللقاء، فتُعلّق فيروز على الموقف:

- فعلتُ ذلك احترامًا لرغبتك، فلا تظنّ أنكَ بهذا تُطبّق تعاليم الدين، أو أنكَ انتصرت له، فما قد تمّ ما هو إلا انتصارٌ لنفسك أيها الفاضل، ولو أنك تريد الانتصار للدين فميادين النضال كثيرة والحكّام المستبدون الظالمون خير مثال على الحاجة لمثل آرائك ومواقفك الصلدة تلك، لتتركتنا على حريتنا وغضّ بصرك، فأنا أجلس معك بملابس محتشمة تخلو من إظهار المفاتن، وكان يُمكنك أن تنظر لي على اعتبار أنّي من سن بناتك، فبيني وبينك

عشرات السنوات. أيضًا فعلتُ ذلك رغبة منّي في مواصلة هذا اللقاء المهم الذي يُشاهده الملايين والاستفادة من ترسيخ بعض الحقائق للناس لعلّنا نعي جميعًا تلك الفجيعة التي نُعانيها بوجهٍ عامٍ رجالًا ونساءً.. ونحن بصفة خاصة معشر القوارير.

تتدخل الإعلامية لتخفيف هذا الاحتقان:

- أستاذ باسم.. تُرى أين تكمُن أزمة البلادة والاستمرار في حالة الفشل التي جُلَّ بلادنا عليها؟

بصوتٍ أجَشٍّ رصين رخيم ينطلق مُعبّرًا عن وجهة نظره:

- سيدتي الفاضلة.. بلادنا لا ينقصها سوى العبور من الماضي إلى المُستقبل..!
- بمعنى؟
- الكلُّ بلا استثناءٍ يعيش في الماضي على الأطلال.
- استلَّ هذا الخيطَ المُلفت من فمكَ، وأمنحه لفيروز كي تُكمل ما بدأته.
- صدق، إننا جميعًا نعيش في الماضي.. كالذي شيّدَ بناءً على طراز من الجمال لخدمة العلم، ثمّ أوقف له بعض النقود كي يظل هذا في خدمة الإنسان إلى الأبد، ولكن الأجيال المُتعاقبة أولت الاهتمام للبناء دون الوقوف على ماهية نشأته، فأهملت الإنسان الذي لأجله خلق تلك الفكرة المُبتكر الأول.
- شيخُ عكرمة ما رأي سعادتك فيما طرُح منهما؟
- بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله.. كلامٌ جيّد لا غبار عليه، ولم يخالف الشرع في شيء.

يبتسم الجميع ويضمرونَ دهشتهم، ثمّ تطرح عليه الفكرة بصيغة أخرى:

- هل أنتَ متفقٌ معي، في أن المرأة الآن قد هُمّشت وغابت عن المشهد تمامًا في تلك النواحي خاصة بلدك التي تترأس أنت فيه زعامة طائفتك الدينية؟

يبدو عليه الانفعال، يُجيبها بصوتٍ جهوري مُرتفع:

- المرأة.. المرأة.. المرأة.. ماذا تُريدونَ منها؟ دعوها تُربّي الأولاد وتلتزم دارها كي لا تتعرض لمهاناتٍ. كما أن كلّ حقوقها مكفولة ولا يُمكن لأحدٍ أن يُنكر ذلك.
- والفعل على عكس ما تدّعي تمامًا سيّدي.
- لا تُقاطعيني، وتهرفي بما لا تعرفي.. ثمّ أنَّ المرأة لم تشتكِ لكِ، فمن أعطاكم الحق للتحدّث نيابة عنها.

يغيظ الإعلامية بقوله فاحتدّت على وقع استغراب باسم وفيروز:

- وهل تراني أو ترى الأستاذة فيروز وكل الفتيات العاملات معنا في الاستوديو من الكائنات الفضائية؟ ثُمّ فضلًا أخفض صوتك احترامًا لنا وللمشاهدين واحترامًا لمسامعنا، فلسنا في ساحة قتال.

يتهكم من كلماتها ساخرًا:

- ها هو مربط الفرس، وهل تقدرنَ أنتُنَّ على حمل السلاح والقتال.

تُشارك فيروز بعدما ارتفع الأدرينالين في عروقها، ولم تتمالك نفسها إلا أن تقول:

- ومَن قال لكَ أيها الشيخ أنهنّ يُحببن الحروب والدمار، التي تصنعونها؟

يُقاطعها بغضب:

- إلام تُشيرين؟ ومن ذا الذي يصنع الحروب؟ الدين لا يصنعها.

تقاطعه ببسمة خفيضة:

- لم كلّ أمر تنسبه إلى الدين الإسلامي العظيم؟ قد عنصرتَ موضوع

البرنامج، وجعلته كأنه صراعٌ بين الرجل والمرأة والمرأة والدين، ثمّ أنا هنا أتحدث عن كونكم المتسببين في كلّ ما نمر به من ألم في الحياة، إن صحّت الفكرة وتماشينا معك في دائرتك المُغلقة وأنكم من تملكون القرارات المصيرية لأنفسكم ولنا.

وتواصل بسلاسة فكرية..

- عدّ معي سيّدي:

أولًا: مَن بدأ حالة القتل الاولى في التاريخ البشري، رجل أم امرأة؟

ثانيًا: مَن كان يشنّ كل الحروب والإغارة على غيره، رجل أم امرأة؟

ثالثًا: وأعطيكَ مثالًا.. مَن نهض بدولة كألمانيا حاليًا والتي نُسميّها في الشرق افتتانًا بتقدمها وجمالها» كوكب ألمانيا».. امرأة أم رجل؟

يصمت، وقد اعتلت ملامحه حالة من الصمت والاحتقان المائل إلى كونه لم يستطع الردّ عليها لأنها أفحمته، أو ربما يُفكر فيما سيقوله لها، فتواصل..

- شيخي الجليل أنتم تهدمون، وتدمّرون، وتسيلون الدماء، ونحن المسكينات، نبني ونضمّد الجراح، ونُعلّم ونربّي. وبالمناسبة ألمانيا قامت على سواعد المرأة بعد الحرب العالمية الثانية التي افتعلها مجنون بشهوة الدم يُسمّى «هتلر» إذا كُنتَ لا تعرفه، قُتل فيها وسُجن بسبب تهوره الموتور أكثر من خمسة ملايين رجل ألماني. هذا عدا التشوّهات التي لحقت ببقيتهم، لكنّ النساء وحدهنّ وقفن على أقدامهِنَّ وصنعنَ المجد.

تتدخل المذيعة لضرورة وقوفها في منطقة حياد، محاولة أن تسحب بعض الإفحام الذي ألحقته به فيروز، كذلك يجب عليها المحافظة على عدم عنصرة الحوار:

- سيّد باسم مفكر سورية والعرب الشاب الشاعر العظيم.. أخبرنا كيف يُمكن أن نكوّن جسرًا مُشتركًا بين المرأة والرجل ليعبرا بأمان معًا هذا النفق المُظلم؟
- سيدتي الإعلامية اللامعة الناجحة..

الفكرة تكمُن في بلادنا ولهذا تخلّفنا.. لا تتعلق باضطهاد المرأة في المقام الأول، فبعض الرجال أيضًا يقع عليهم الظلم وبالتالي.. تحدث حالة من تبادل الأدوار، في صورة مُثلى لازدواجية الحياة، فمن المفترض أنّ من يشعر بالقهر لا ينقله لغيره، إنما ما يحدث هو العكس، القوي يأكل من دونه والضعيف يتجرأ على من دونه وهكذا. لذا فإن الرجل دائمًا ما تصل به الحال إلى أن يجعل من المرأة ضحيته الدائمة وكأَنَّهُ يفرغ فيها كبته وقهره، وكأنهن في نظر هؤلاء مخلوقات لإراحته فحسب.. شهوة ونفسيّة! وبعض النساء يُكن سببًا في المُشكلة.

- كيف هذا؟!
- بصمتهنّ على حقوقهن، فبعضهن يفضّلن دور الضحية، وبعضهن يفضّلن السكوت والمعايشة، وحالات نادرة جدًا تلك التي يتصدّين فيها لاغتصاب ما لهن من حق.

تذهب إلى فيروز وتسألها بذكاء:

- هل تعرّضتِ لظُلم من قبل نزل عليك كسيفٍ قاطع؟

تُجيبها بعبقريّة:

- أحمد الله على أنني لم أرَ ظلمًا حتّى الآن، ولم أتعرض شخصيًا لأي مُهاترة ذكورية، ربّما لأنني من النوع الثالث الذي تحدّث عنه الأستاذ باسم، لكن بحكم عملي فإنّ كل مظلمة تقع على أية امرأة في الكون أو أشهدها بنفسي وأحاول معالجتها أشعر وكأني المجنية عليها، وهذا ما يُسمّى بالأنا الكونية.

- شيخ عكرمة.. ماذا تقول للأستاذة فيروز أليس هذا من الإسلام؟
- نعم هو كذلك، لكن في الإطار الشرعي، دون التفلسف والتكلم بالسفسطة التي تخرجنا عن سياق الفهم الصحيح للدين.

تغضب فيروز للمرة الثانية، وتقاطعه:

- لماذا ترى كل كلامنا عديم القيمة وأنك وحدك من يملك مفاتيح كلّ شيء، وهل كان يتعامل النبي مُحمد مع الناس بذلك الجفاء؟

4

تقاطعها الإعلامية كي لا تتحول المُناظرة إلى ساحة حرب:

- اسمحوا لي جميعًا أن نبدأ في تلقّي اتصالات المُشاهدين.
- «ألووو، أنا سيد العربي من مصر وحابب أقول للأستاذة اللي مش عارفه حاجه دي، عيب عليكي والله، احترمي الدين شويّة، وبعدين تفهمي إيه إنت عن النسوان وحياتهم وتلاقيكي بنت بابي ومامي مولودة في بوقك معلقة دهب، وبعدين بطّلي تظلمي الرجالة، طالع عين اللي جابوهم ليل نهار علشان يأكلوكوا، تقوم تيجي واحدة زيّك مبتفهمش في تلت التلاتة تهين الشيخ وتشتمه وتتكلم باسم ستات مصر، تتكوا نيلة مليتوا البلد تلاقيكي عميلة، يا بنت التيت....».

قطعوا الاتصال عليه قبل إكمال وصلة السباب، ثمّ اتصال آخر..

فيصل من السعودية:

- «والله يا شيخ أبيك ترحل ما تحاكي هادول الجهلة، إيش يعرفون عن حقوق المرأة وعاداتنا وتقاليدنا، شنو يبون من المرأة تصير بلا غطا وتتعرى بالشوارع ونصير مثل أوروبا ما عم نعرف نلم المره كل يوم ينط عليها رجال».

وتقطع عليه لقلة أدبه أيضًا، واتصال أخير من سورية:

- مرحبًا أنا ريما العقاد، أقول اسمي بلا خوف ولا رهبة من أحد.

استمتعتُ كثيرًا بالحلقة من أولها حتّى اللحظة التي فتحتم فيها باب المُشاركة، وأشكر شاعرنا المتألق باسم مارديني، رغم أننا لا نعرف لماذا هو الآن في إسبانيا!..

يبتسم باسم، ويشعر بالحزن فهو لم يخبرها بسفره المفاجئ..

«بدي خبر السيّدة فيروز إشيا كتيرة، ومابعرف أوصف لها مدى السعادة يالي أنا حاسيتا وعم مُر فيها هلأ، وبدي ياكي ما يتهز إلك حاجب وتضلي دائمًا مرفوعة الراس ولا تتأثري بهادولا الزعران يالي ما عم يفهمو شي، بلا أدب يالي اتصلوا قبل شوي، وبدّي قول للشيخ شو يا عمنا، ما شفنا اعتراضك على هاي الألفاظ البذيئة وما اتحركوا شواربك غضبًا.. مُعترضا متل ما اعترضت على حكيي الضيوف، إنن عيب وتحدثوا بأخلاق الإسلام ولا هيدا كله مش محسوب؛ آخر شيء بدي قوله إنه المرأة لا تتمتع بأي شي ولا حق لا اختيار الزوج، ولا التعليم، وحتّى أن تذهب إلى شي محل تشتري شي أو في نزهة مع رفقاتها إلا ولازم يكون في سين وجيم ويمكن بالنهاية يطلع قرار ديكتاتوري ما في رفق، وفي المقابل الرجل إلو كل شي ومن حقه أي شي ودون ما يسأله حدا ويمكن كمان يعصب لو اعترضوا عليه. وما بنعرف هي مسألة انعدام ثقة فينا نحن البنات، ولا شو؟».

تُقاطعها الإعلامية بفخر:

- بوجهة نظرك ريما، وما شاء الله يبدو عليك الاستنارة، ما الحل؟
- «الحل في إنو الأهل لازم يربونا ع الأخلاق الإسلامية الصحيحة أو المسيحية أي كلٌّ حسب دينه ومعتقده، ثمّ يتركونا لحالنا نخوض تجاربنا في الحياة، لازم عن جد هيك يفكّوا هيدي القيود يالي

عم تزعجنا كتير، وبالعكس تسوّي كبت كبير للبنت، وبيصير كل ممنوع مرغوب.

والدليل الدولة يالي هيدا الشيخ منها، عم تفرض قيود ع زواج المرأة، ما بيصير تتزوج من خارج جنسيتها أو تسافر إلا ومعها محرم، حتّى إنها في الوقت يالي المرأة فيه بتصير رئيسة بالغرب.. بهاي بلد مُتخلف ما تقدر تسوق سيّارتها لحالها!..

والسؤال هون ويالي أتحدى فيه الشيخ يجاوب عليه.. كيف طيب ما عم تسوق المرأة لحالها، بس فيها تطلع مع سائق؟

إذا خايفين لترتكب معاصي لحالها، مانكن خايفين مشان تسوّيها مع السائق يالي غالبًا ما بيكون مُسلم وبيكون من دولة أخرى وفيه يسوي أمور استغفر الله؟

بدّي أشكر السيدة فيروز من أعماقي، على ظهورها في هيدا البرنامج والدفاع عنّا نحن المسكينات، وأشكر حضرتك أيتها الإعلامية الرائعة وبدّي قول للشيخ.. اتق الله أنت تشوّه الإسلام، ومرة تانية ومليون ما كان سيدنا مُحمّد يتعامل هيك بالحياة، أنتوا عم تعطوا حجّة للظلمة إنن يتحكموا فينا، كمان بطّلوا تخلوا مفاتيح الجنّة والنار بايدكن، الله قال في حديث إلو «لا تتأوّلوا عليّ».

5

ينفعل الشيخ عكرمة، ينتفض مكانه غاضبًا ويقف مُنتصبًا في محاولة منه لترك المكان، ولكّنه لا يعرف كيف يخلع الميكروفون الموضوع له أعلى قميصه، تضحك فيروز وتقول بسخرية:

- لولا أنني مُحرّمة عليك لقمت بفكّه لك، ولكنني أفضّل البقاء مكاني والاستمتاع بالمأزق الواقع فيه.

يُشاركها باسم بحماسة عبر الأقمار الاصطناعية:

- وددتُ لو أطيرُ إليك وأساعدك، فأنتظر لساعاتٍ حتى آتي بالطيارة، أو أقول لك انتظرني شهورًا فأنا قد أمتطي حُصانًا من الأندلس ومن ثمّ مركبة للوصول للمغرب ومن ثمّ جملًا لأمضي في الصحراء حتى القاهرة.

يردّ عليهم مُتهكمًا:

تلك مؤامرة على الإسلام، أنتم عملاء أمريكا وإسرائيل.

تُجيبه المذيعة مُتجاهلة اتهاماته.. بأدب جمّ قبل أن تختم اللقاء، ولكن بعد أن قاطعها باسم:

- نيابة عن كلّ رجل شريف متعلّم في هذا الكون أقول للمرأة..

شُكرًا لأنكِ حملتِني تسعة..

وربّيتِني عُمرًا..

واحتويتِني زوجًا..

ورعيتِ شيخوختي وأنا لا أقوى على الحركة وأنتِ ابنة بارة، شكرًا لكل امرأة فنحنُ دونكنَ لا شيء، وليُجرّب أحد الرجال تركَ البيت وهو رب أسرة، فلن يحدث شيء، أمّا إن غابت المرأة فإنه يبدو ككهفٍ مهجور يخلو من البهجة، وتعمّ الفوضى في أركانه.

- شهادة نعتزُّ بها ونسأل كلّ مسؤول، اجتماعيًّا كان أم سياسيًّا، عن تلك الأوطان، أن يجد حلولًا استثنائية في إعادة فهم وصياغة تلك الحالة المأساوية للمرأة، والتي تتفاقم معها الأزمة يومًا بعد يوم، وكما قال الشاعر:

الأمُّ مدرسة إذا أعددتها أعددتَ شعبًا طيّبَ الأعراق

(16)

1

يهمُّ في إشعال سيجاره الكوبي، ولكنه كالعادةِ نسي أو ربما تنساها مُتعمدًا كي تأتي هي وتفعل نيابة عنه بولاّعتها.

البحرُ الأبيض المتوسط من أمامهِ والشمسُ الدافئة على مرمى بصره طلعت منذ قليل من مشرقها، وبعض المراكب التُجارية المُسافرة عبر مدينة اللاذقية إلى القارات الأخرى، قوارب الصيد الشِّرَاعية مُتفرقة على سطح الماء، وأصوات البهجة المُتناغمة تُشارك الأمواج المُتدافعة تحت قدمه اختراق مسامعه، وبعض السائحين المُقيمين في القرية نفسها التي يحتلُّ جزءًا منها.. يمرحونَ بالقُرب منه.

غيرَ أنَّ هذا كلهُ يعدّ بالنسبة إليه لا شيء، فهو أسيرُ عالمه الصغير، ورغم اتساع الكون من حوله والتنّوع الطبيعي الذي تعمل على إظهاره بإتقان السماء والأرض، إلا أنّه بدأ في التمتمة والتّذمر من كلّ ما حوله، فسيجاره لم يشتعل بعد.

حوّل نظره ولم يراعِ حُرمة تلك الموسيقى المُنعجنة في سعادة اللحظات المُقتطعة من ضجيج الدنيا والعالم الأرضي الخارجي المُتصارع، وراح يصيح مُناديًا صوفيا.. تلك الفتاة التي أصبحت ترافقه بصورة شبه دائمة، كعبدةٍ حبشية في الجاهلية، أو ملك يمين في العصور الوسطى.

خرجت من الحمّام مُسرعة، بعدما لفّت جسدها بمنشفة طويلة

غطّت تُفاحتيها موازاة بإبطيها ختامًا بفوق الرُّكبة، حتى دون أن تنشفَ شعرها الأصفر المُختلط بلمعة بشرتها الذهبية، وكأنها شعلة أولمبية تجوب العالم ولا تنطفئ في يد أحد الرياضيين السُراع الأشداء، أو أخرى فارسية سكنت قصور هرمز منذ آلاف السنين.

2

وصلت إليه فأجلسها في حجره مُبتسمًا لها بعدما أسكنت غضبه بإشعال سيجاره، وقد أشعلت رغبته أيضًا لمُداعبتها..

همّ في تقبيلها ليفرّغ بعض الدُّخانِ في فمها كعادة يُفضّلها، حجبت شفتيه بكفّها النّاعم..

همّ ثانية عبر خدّها الأيمن، فامتنعت..

حاول أخيرًا عبر الأيسر، فأزاحت وجهه بيديها، وقامت من حجرهِ راغبة في العودة إلى «الشاليه» الذي يملكه في تلك القرية التي لا يسكنها إلا السواح وكبار رجال الدولة.

أغضبتهُ، فأمسكها من معصمها ودفعها أرضًا.. وقعت وانفكّت قطعة القُماش التي كانت تستر عوراتها، ولولا أنها كانت تلبس تحتها «البكيني» بلونه الوردي الذي تفضّله رغبة في السباحة، لسبّب لها فضيحة، خاصة وأنهما ما كانا وحدهما. فالشطّ يعجّ بالنزلاء.

عاودت لفّها لكن بطريقة أكثر إحكامًا.. مدّ إليها يده اليُمنى.. فاستجابت له وهي تبكي..

أجلسها أمامه على طاولة مُستديرة يضع عليها أشياءه التافهة..

- ما بكِ؟ هل طار عقلُكِ من هذا الهواء الطلق؟

ردّت عليه بعد التقاط أنفاسها بصعوبة:

- لا أفهم لِمَ تفعل معي كلّ هذا؟ ثمّ أما شبعت منّي.. لأربعةٍ

أيام خَلت تناولت فيها أربعًا وعشرين حبّة من «الفياجرا».. تكفي لمُعاشرة قبيلة من النساء.. وقد ضاجعتني حتّى تمنّيتُ الموتَ.

- تستمتعينَ بالفضائح، هل أقتني لكَ مُكبرًا للصوتِ حتّى تخبري كلّ من حولنا.
- مللتُكَ...
- لكنني كُنتُ قويًّا وأمتعتكِ.
- أنتَ مريضٌ نفسيًّا. لا تنسَ أنكَ دون الدواء ما كُنتَ لتفعل. ليتني ما اشتريته، كانت ساعة سوداء.
- وكيف كُنتِ لتحصلين على «نيرفانتك» الخاصة.
- كرهتُ كلّ شيء. القوة يا سيّدي لا تكون في التلذّذ بضعف الآخرين. إنها في تلك الحالة تُسمّى نقصًا.

3

أجهز على سيجار آخر، بعدما رمى عقب الأول إلى البحر بطريقة احترافية وكأنه يصوّب على أحدهم بسلاحه، فيجبرها على إشعال الثاني.

- لا تنسي أصلك.. أنا مَنْ صنعتُكِ.. وكما أشعلتِ لي سيجاري الثاني.. أقدر على التهام غيرك والاستبدال بك ولن أبالي.
- لديكَ جيشٌ من النساء، يعملن كالبصّاصين وكاللصوص، وكالعاهرات، وكالجلاّدين. تفلح إن صدقت.
- ولكن في تلك الحالة، لا تظني حُريّتك...
- ماذا إذًا؟
- سأدعك تختارين قبرك المُناسب.. وبالطريقة التي تُفضّلين.. ولكن من بين عروضي التالية.. أن أحملكِ الآنَ، حتّى أعماق البحر.. أضاجعكِ أولًا وأحتفل بكِ مودعًا إياكِ.. ثمّ أجعل رأسكِ أسفل،

وقدميك أعلى.. أشعر بتلذّذ حتّى يُعانق رمز رجولتي آخر أنفاسك، وتصعد روحك بين يدي. وأشهدُ جحيمك في نظرات ملك الموت الناقم عليكِ.

ضحكت ساخرة:

- ملك الموت لا ينقم على العاهرات.. في الأصل هو لن يقبض أرواحنا.
- مَنْ إذًا؟
- الرّبُّ «يسوع» مباشرة.

فتح فاهُ نصف فتحة، أطفأ سيجاره ولم ينتهِ منه بعد على غير عادته، فكلامُها أدهش الآخر وأصبح لا يقوى على فهمه:

- ولِمَ ربّكم بذاته؟
- لأَنَّهُ سيعطف علينا، وهو وحده بيديه آلية تعديل القوانين الكونية.. أمّا الملائكة فقد كلفوا بأوامر مُحدّدة، وإن جاءني ملك الموت، فسيجرّني من ذيل روحي مُباشرة إلى الجحيم.
- سأسلّم بهذا، لكن تُرى ماذا ستكون آخر أمانيك؟
- ألن تخبرني عن أساليب القتل الأخرى؟
- بلى ولكن أريد معرفة أمانيك.
- لا تتعجل، بعد أن تخبرني.
- الثانية في القائمة، أن أضاجعك أيضًا.. فاردًا جسدك على قُضبان إحدى السكك الحديدية بين المُقاطعات الإنجليزية الحافلة بالجمال والضباب.. رابطًا كلتا يديك، ثمّ ما إن أفرغ منكِ، أجعلك تشعلين سيجاري كالعادة، وأجلسُ بالقُرب منكِ بين الأشجار مُستندًا على إحداها؛ لأشاهدكِ مُستمعًا وأنتِ تفرمين وتعجنين كلحم الشّواء تحت عجلات أوّل قطار يمُر.

صمتت للحظة، وقد بدأ الخوف يتسلّل إلى قلبها.. راح ينبض بسرعة القطار الياباني الذي يقطع كيلو مترًا واحدًا في بضع ثوانٍ، لكنّها ما أرادت أن تضعف أمامه، وردّت على وحشيته وهمجيته المُفرطة كأنها لم تسمع شيئًا:

- وما التالي؟

صفّق لها، ساخرًا من كونها لم تهبْه، وقال في أذنيها بعد أن أشار عليها أن تدنو منه:

- نسيتِ أنني ضابط مُخابرات، وأستطيع قراءة ما تشعرين به من خلال ملامح وجهك وأعصابك التي تُحرّك جسدك كزلزال.

عرضي الثالث والأخير في القائمة.. وهذه أبشع وسيلة ولن تتحمليها.. أن أضاجعك حتّى آخر لحظة، تلك التي تقترب فيها روحك من حلقومكِ، وقبل أن تموتي ويأخذكِ ربّك المزعوم، أفرغ فيكِ خزائن أسلحتي بعدد كل قطرة. من «سائلي المنوي» استَمْتَعَتْ بها روحك العاهرة.

- أنتَ مقزّز جدًا.. مُقرفٌ حدّ البشاعة.
- وأنتِ جميلة جدًا حدّ الآلهة، وأنا لا أقوى على قتلك.
- آلهة، وتدّعي أنكَ مُسلم؟
- لا إسلامي ولا مسيحيتك على أي حال، سيشفعان لنا.

نحنُ متشابهان في الشيطنة، وكُفّي عن أذيتي بأقوالك.. وإلاّ غيّرت رأيي وقررتُ قتلك، حتّى اللحظة أنا أمازحك. أخبريني ما كانت أمانيك، حتّى أضعها في أولوياتي.. إن أنا تخلّيت عن محبتي لك وتخلصت منكِ؟

- ألن تغضب؟
- لا.

- أقسم إذًا بأغلى ما لديك.

يصمت قليلًا أمامها، ولكنه يُقلّب الأمر في داخل نفسه، ويرى ما هو أعزّ ما يعتقد فيه:

«زوجتي.. وتخونني، فهي مثل تلك الفاجرة..

أولادي، ولا يسأل عنّي أحد منذ شهور، ولا أراهم إلا إذا نفدت أرصدتهم في البنوك..

أهلي وتبرأوا منّي جميعًا، وأبي مات لاعنًا إياي، وأمّي ماتت بحسرتها عليّ..

نعم وجدته، قسمي الذي بذلتُ فيه وعيدًا كثيرًا لهذا الحقير».

تشعر بشروده فتلوّح بكفها أمام بصره ليردّ عليها، وتدعو في داخلها بالموت عليه.

- أقسم لكِ بحقّ رغبتي في الانتقام من العقيد م/م.. أن أجعله يموت ميتة لا تقل أهمية عن تلك التي ابتكرتها لكِ.. ألاّ أغضب من أمنيتك.

- اتفقنا.. أمنيتي هي.. هي.. أن تبصق عليكَ روحي من أحجار جهنم، ولو دخلت الجنة، فسأدعو الربّ أن يجعلني روحًا ملائكية ساعة واحدة أعود فيها إلى الأرض، أحمل فيها صخرة بُركانية واستأذن ملك الريح أن يدفعها نحوك أينما كُنت لتشتعل فيك كي تتخلّص الإنسانية منك.

قهقه حتّى ظنّت أنه لن يتوقف أبدًا:

- قد جننت؟

ردّ عليها وهو ما زال يضحك ولكن قلّت وتيرته قليلًا:

- قد بان عليكِ أنكِ أكثر منّي شرًّا، وأنا الذي كُنت أقول لنفسي أن لا أحد أعظم منّي مكرًا وإجادة فيه على الأرض. تبًّا لك أيتها

العاهرة.

- كُن إنسانًا لمرة وتوقّف عن مناداتي بتلك الكلمة، فهي تجرحني كثيرًا.
- ولماذا لا تفكّرون أنتم في رحمتي.
- هل أشار عليك أحدنا.. بمُعاداةِ الدنيا كلها، وسجن الأبرياء وتعذيبهم وقتلهم استغلالًا لنفوذك.
- كان واجبي..
- واجبُكَ، قتل المخرج حسن جمال، والشيخ العالم الجليل الذي أفاد أمتك الإسلامية وربما الإنسانية، وأنا شخصيًّا كنت أتعلم من بعض حلقاته المصوّرة، لمجرّد أنهما ما أرادا أن يتعاونا معك في ظلم الناس.
- قلتُ لكِ كان واجبًا، أنتِ لا تعرفين شيئًا، البلد كُلها أوشك على الهلاك.

ضحكت ساخرة:

- كفاكم، أليست على ألسنتكم طيلة عقود مضت غير هذه الكلمات..

المؤامرة الكونية..

الإرهاب..

عُنق الزجاجة..

العُملاء..

الخونة..

مصلحة وأمن البلاد..

كُلّ هذا لا شيء يتحقق منه.. فلا يُطلب الأمن يا سيدي برهبة الإنسان..

ولا الانتماء.. بتخوينه وتهميشه، فإنك هكذا تنزع منه ولاءَهُ نزعًا..

ولا يُطلب العدل بكفّتي الظلم.. البطش، وسلب حقوق الناس.

قاطعها:

- هل تحولتِ إلى حقوقية، أنتِ مُجرّد..

ثُمّ تذكّر طلبها وحاول أن يكون إنسانًا معها..

4

رفضت تلك المُبادرة منه، وزادته ألمًا، موغلة في جراحه:

- أنسيتَ مازن زيـدان.. ذلك المواطن الأديب الذي حرمتني منه، بدعوى حمايتي.. حتّى لا يتسبب في فتنة بين المُسلمين والمسيحين في سورية.
- نعم كان هذا سيحدث..
- من قالَ لك، ومن طلب منكَ تنصيب نفسك وصيًّا علينا.. ولماذا تتنصتون علينا من فرعكم الأمني وعلى مُكالماتنا، ومن ثم تعيّنون مُخبرين علينا ونحن نلتقي فرحين بحبّنا في الأماكن العامة دون أن أعصي الرب، أو يرتكب هو حماقة أو يسيء لتعاليم دينه، على الرغم من أنه زير نساء. لقد جاء إليّ وتوقف عن عاداته وأصبح إنسانًا مُختلفًا.. فقد أحبني بعمق.
- كانت كنيستك ستشعل البلاد بقصتكما.
- تنطقها ثانية، أما كُنا لنهاجر بعيدًا عن بلادنا المُشبعة بالكبت. أو أدخلُ في الإسلام.. أو يدخل هو في ديني.
- ما كان ليفعل.
- على أي حال هذا شأننا، حتّى الكنيسة والجامع لا شأن لهما، الربُّ وحده هو المُتحكِّم في الكون وفي حُبّنا العظيم.
- حالمة.

- وأنتَ ظالمٌ ومقعدك في الجحيم أراهُ بعيني.
- وأنتِ..

تردّ عليه بألم.

- جعلت مني مومسًا تفقد كلّ شيء، ربما الأمر الوحيد الذي صدقت فيه، أنني سأكون إلى جوارك في النار.

شعر بحزنها. يبدو أنه قد أحبّها بصدق.

- قد أفرجتُ عنه قبل أن أحصل على إجازة من العمل، يُمكنني أن أطلق سراحك الآن وتصبحين ملكة نفسك، لا سجينة وأسيرة نزواتي. وعودي إليه وإلى أهلك، وابدئي حياتك من جديد.

ضحكت ساخرة:

- ربما يسامحني أهلي بعد اختلاق أيّ قصة عن غيابي، لكنّ مازن الذي رآني في مكتبك وبين أحضانك، وقد كُنت أمامه سعيدة وداخلي ممزق، وأنتَ كُنت مُستمرًا في استفزاز مشاعره.. ماذا سيقول عنّي.
- إنْ أحبّكِ بإخلاص، سيستقبلك، ثمّ إنه لم يتعرّف إليك كان مغمّض العينين.
- لكني لن أقبل له بواحدة مثلي.. ومن المؤكد أنه لو كان مكاني ما كان ليقبل لي مثل هذا الوضع المُقرف. زانية.. هو مُسلم ولن يغفر ذلك..

أخذت تُتمتم وقد أجهشت بُكاءً.. تأثّر بها، فغيّرت محور الحديث حتى لا تثير شفقته، فهي ما زالت تكرهه وتتمنى قتله. تعلم أن ما أظهره من عطف مُجرّد حالة شاذة وتزول، فمثله لا يعرف رحمة.

- مَن العقيد م/ م؟

أيكون أحد ضحاياك وهو زميلك؟

أومأ برأسه وانتفض مزعوجًا.. ردّ عليها قبل أن يخلع ثيابه العُلوية وينزل إلى الماء ويستمتع بسباحة يغتسل مُتطهرًا بها من قذارة أفعاله:

- بل أنا أحد ضحايا ضميره اليقظ.. لكنني لن أدعه يهنأ على أي حال..

والأيامُ بيننا.

(17)

1

في مقهى «التكعيبة» الواقع في سوق الحميدية، كانوا يلتقون بشكل شبه مُستمر بعد صلاة العصر..

الشيخ رضوان وأبوه الشيخ تيسير، مازن زيدان وباسم مارديني - إذا كان لديه وقت - والشيخ الإسكافي، وعقيدُ فرع المُخابرات م/ م.. الذي عُرف بينهم بـ«المهندس إياد» وقد أطلق على نفسه هذا الاسم بحجّة أنه يُشرف على إحدى الإقطاعات الزراعية المملوكة للدولة ناحية ريف دمشق كي يتمكن من العيش بينهم دون أن يشكّ فيه أحدٌ كاشفًا هويته.

وأخيرًا زميله العقيد س/ س.. الذي عرفوه باسم «أيوب المزين» حيثُ يأتيهم دائمًا نهاية جلستهم قُبيل أذان المغرب قبل أن يذهبوا جميعًا في حال سبيلهم، ولا يشاهدونه إلا وفي يده حقيبة بلاستيكية عتيقة «شنطة العدة» بداخلها مُقص ومشط وبعض الأمواس وعلبة كريم حلاقة فارغة مُنتهية الصلاحية، وكلّما حاول أحدهم أن يتزّين بين يديه، يخبرهم أنه مُتعب وفي حالة لا تسمح بالعمل بدعوى أنه مُنهك من الطرقات واللف على محلات الزبائن، قائلًا لهم:

- أنا حلاّقٌ جوّال.. ولا أحب الاستقرار في مكان مُعيّن كي تأتونَ إليّ.. ثّمّ إني لا أحب العمل في غير أوقاته.

وكانوا يأخذون كلامه على محمل الهزل، ويظنّونه درويشَا يهذي

بثيابه الرثّة المقطعة ولحيته وشعره الطويلين المُستعارين، فلا يعتبون على ما يقول.

لم يحضر فترة، فظنّوه قد مات، وحاول العقيد م/م أن يُنسيهم قصته بشكل مؤقت لحين عودته من استراحته حتّى لا يتطرق أحد لكونه شخصية مُصطنعة أو يشكّ فيه وتتأثر أعمالهم، على الرغم من أنه يتمنى له الزوال، ما دفع القهوجي «أبو لؤي» إلى سؤاله مُستغربًا:

- لأوّل مرة سعادة البشمهندس إياد أراك تُدافع عن غياب الحلاّق أيوب!

ردّ عليه بعد تفكير عميق وشرود كادَ يحيّر الجميع:

- على الرغم من اختلافي معه، وأنني دائمًا أبدو لكم في مظهر الإنسان الجاف الذي يخلو قلبه من المشاعر تجاه الآخرين نتيجة قسوة الحياة، وأنّ أيوب دائمًا ما يبدو لنا طيّبا وعلى عكسي تمامًا، إلا أنَّ العشرة التي بيننا في قهوتك يا أبا لؤي تجعل قلوبنا تلين وترق للغائب الحاضر أيوب.

2

دخل مازن فجأة بعد انقطاع دام أيامًا عدة بصحبة الشيخ رضوان، فاستقبلهما المهندس إياد برحابة صدر مُعاتبًا إياهما على فترة الانقطاع مُدعيًا أنه لا يعرف سرَّ اختفائهما.

يوسّع أبو لؤي لهما الدائرة حول الطاولة ويأتي بكرسيين خشبيين من الرّصة في المخزن الجانبي للمقهى ليجلسا عليها بعد أن شكراه.

يُدخّن النارجيلة ويغيّر موضع الفحمة بنفسه فيثور عليه، فيردّ عليه الأخير بابتسامة مُلبيًا طلبه:

- لن تتغير يا شيخ تيسير، ستظل كما أنت «بتحرقص الإشيا وتعصب

والفحمات بعدُن مناح، على العموم خوذ غيرهن».
بعد أن شبّر الجو بلفائف الدخّان، قال له الشيخ الإسكافي زاجرًا:
- لا أصدّق.. شيخ ويؤم الناس، يحثّهم على الفضائل من جانبٍ ومن آخر يدخّن النارجيلة.
فردّ عليه بتهكّم:
- ومن قال لك أن الدخان حرام.
- «يا عيب الشوم»، تحفظ القرآن ولا تعرف الحُكم الشرعي المُستنبط من الآيتين..
﴿... وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ...﴾ [البقرة، الآية: 195].
﴿... وَيُحِلُّ لَهُمُ الطِّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ...﴾ [الأعراف، الآية: 157].

يُنفّث غضبه بتنفّس دخانه:
- هل لديك شيء آخر لتقوله؟
يبتسم الشيخ الإسكافي ويردّ عليه بالحُسنى:
- نعم، يقول أيضًا رسول الله..
«لا ضرر ولا ضِرار».

3

يُصلّي كُلّ مَنْ في المقهى على النبي بمن فيهم حامل المبخرة وهو درويشٌ يجول السوق ليل نهار على الدكاكين والحوانيت يُعطّرها لهم مُقابل بعض الليرات السورية، فيدخل من الباب المُنفرج بصوتٍ مُرتفع حاملًا مبخرته النُحاسية ذات السلاسل الحديدية المُطلاة بماء الفضّة، حاملًا على كتفه حقيبة من القُماش يضع فيها كيسين من البلاستيك

الشفّاف الرقيق واحدًا للنقود والآخر للبَخور، يجعل المقهى عُبارة عن وكرٍ من الرائحة الجميلة المُختلطة بدخان الشيخ تيسير..

- «صلِّ على حضرة النبي، مَدَدٌ يا رسول الله مَدَد».

بعدما مرّت تلك السحابة العابرة، يرتشف الشيخ الإسكافي شيئًا من مشروبه المفضّل قرفة بالزنجبيل المصنوعة من الحليب دون الماء، ثمّ يُكمل انتقاده للشيخ تيسير:

- أنتَ هكذا تُسيء إلى عقيدتك خاصة وإلى المُسلمين عامة.

يضحك الجميع وينتظرون ردّ فعله، فقد سكن مبسم النارجيلة في فمه لدقيقة حبس فيها أنفاسه، وكادت روحه أن تُفارقه، لولا كوبَ الماء الذي ناوله إياه، حمدَ الله وشكر مُنتقده على مُساعدته ثمّ نظر إليه بلمحةِ غضب وكظم غيظه بصعوبة:

- وأنت وأتباعك يا شيخ مذهبكم ماذا تفعلون؟ ماذا قدّمت طوال القرون التي مضت سوى انتكاسة وراء انتكاسة لنا يا أحفاد معاوية...

بدأ في التراشق الفكري والعقائدي، فردّ عليه الإسكافي:

- وأنتم أحفاد مَن؟ أبي بن سلول..
- خسئتَ وكذبت نحنُ أحفاد محمّد وعلي وفاطمة، يا قاتلي الحُسين.
- وزواج المُتعة؟
- لديكم زواج المسيار. كما يقول المصريون «لا تعايرني ولا أعايرك الهم طايلني وطايلك».
- أيكون كلّ هذا لأني انتقدتك كونكَ تُدخّن؟
- قُل لنفسك، ثمّ أما رأيت حلقة هذا العكرمة أمس؟ ما هذا الكبر والتخلف الذي يعيشه أهل مذهبكم الوهّابي.

- مذهبنا نحن أهل الجماعة والسّنة فلا تتخطَّ الحدود وتأدّب.
- أي جماعة وأي سُنة؟ أجبني. ثم أنت تُقرّعني على الدخان، وأنتَ جالس على مقهى وتعمل في سوق وتتغزل بالنساء أثناء بيعك الخُضَر والفاكهة ليل نهار.
- تبًّا لك، أنا الإسكافي، سُمعتي كالليرة الذهبية في كل النواحي.

وصل الأمر بينهما إلى الاقتراب من الاشتباك بالأيدي، فتدخّل المُهندس إياد ومنعهما من الاستمرار محاولًا إشراك مازن زيدان الذي كان مُستندًا برأسه على الحائط شاردًا وكأنه في عالم آخر.

4

- قُل شيئًا يا شاعرنا لهذين الشيخين الصبييّن.

ردّ عليه بصوت خفيض:

- وماذا عليّ أن أقول؟ دعني وشأني ما يسكن جوارحي من ألم يكفيني مئات السنين.
- ما عهدناك هكذا، ما بك؟ منذ أن خرجت من القيد الأمني وأنت هكذا، هل عاملوك بشيء من القسوة؟

يمتنع عن ذكر المعاملة السيئة خشية العودة مُجددًا:

- اسأل الشيخ رضوان معاملته كانت راقية جدًا.

وقبل أن يبوح لهم بسرّ معاونته مع الأمن وأنه مُخبرٌ مزروع وسطهم، يربط لسانه بالصمت مُجدّدًا.

يقول رضوان بسفسطةٍ محاولًا تدارك الأمر:

- شيء أصبح لا يُطاق..

المُهندس:

- ما هو؟

- ذهبت صباحًا للمستورد الذي يأتي إليّ بالمكسرات والبهارات الإيرانية وأبيعها في محل العطارة، وجدتُ الأسعار قد قفزت بشكل غريب.

يُشاركه أبوه الشيخ تيسير العقاد:

- حتّى أنا رغبت في تجديد سجّاد المسجد، والأمر نفسه جرى معي، إذ وجدتُ النوع الإيراني آخذًا في الارتفاع.

ينتقدهما المُهندس إياد:

- الحق عليكما، لماذا لا تشتريان الصناعة الوطنية، أصبحت منتوجات بلادنا في أفضل عهدها.

يصمتان، ويهمسان بما لا يسرّهُ لكنهما لا يصرّحان به.

5

عاد مُخاطبًا مازنَ زيدان..

- ما بكَ، وأين صديقك الشّاعر المشهور؟ لماذا انقطع عنّا؟
- عذرًا صديقي المهندس، أشعر بالدوّار.
- ممَّ؟
- سمعتُ صوتين أثناء احتجازي وودت لو أتمكن من التأكد عبر خلع ما كان يمنع رؤيتي، ولكنني فشلت.
- أيّ صوتين.
- واحد لامرأة اعتقدتُ أنها صوفيا، كانت في مكتب ضابط المُخابرات، والثاني للضابط نفسه لكنني لم أستطع التعرف عليه وأظنه يعيش معنا، فنبرته مألوفة جدًا لأذني.

يندهش الجميع ويسألونه في صوت واحد:

- صوفيا! وما الذي سيأخذها إلى هُناك؟

- لستُ متأكدًا من أنها هي هي، فليس معقولًا أنها قد تتحوّل..

يحثونه على البوح..

«أن تتحول عاهرة».

لا، هذا ليس مُمكنًا حتمًا ليست هي.

يحاول المهندس إياد إبعاده عن تلك الهواجس فهو يعرف كل شيء عنها.. كونه الضابط العقيد م/م ويتربّص لجرائم زميله العقيد س/س، لكن لم يصل به الحال إلى أن يمنحه حقيقة تلك الورقة، فسيكشف نفسه بسرعة ويشكّ فيه الجميع إن باح بشيء، غير أنّه قال له في عرض ذكي لإلهاب أفكاره:

- منذ زمان لم نسمع رأيك السياسي، حدّثنا عنه في ثورات الربيع العربي.. وهل يُمكن أن يطل علينا في بلادنا كزائر دائم؟

قبل أن يرد، يشاركهم القهوجي أبو لؤي، بعد أن أنزل «مَج الكابتشينو» لمازن حتى يعتدل مزاجه:

- كلّ شيء ممكن في ذلك الزمن، ولكن لا أتمنّى حدوثه.
- على رأيك كل شيء ممكن، ولكن أختلف معك أيها القهوجكي العزيز.. فبلادنا مُستعدة لذلك!

6

ينهر الشيخ تيسيرُ أبا لؤي ولكن برفق:

- ما دخلك أنت يا أبو لؤي في تلك الأمور، أنتَ لا تُجيد سوى تقديم المشاريب وعدّ الليرات آخر الليل.

يضحك، ويبادله السخرية:

- سامحك الله، لا تقلّل من شأني فلعلي أفهم أكثر منك.
- لِمَ هل أنت عميلٌ سري ولا نعرف، أنت مُجرّد قهوجكي.. فاهم

قهوجكي يا ولد.. صحيح لم تخبرنا ما اسمك الحقيقي، وما هو أصلك.

- أنا نورس..
- نورس!.. كرديٌّ إذًا.
- نعم، كرديٌّ مسيحي.

يندهشونَ جميعًا إذ إنها المرة الأولى التي يعرفون فيها هويته، ثمّ يُبادر الشيخ الإسكافي مُداعبًا إياه ثمّ يليه المهندس إياد:

- ذكّرنا بعد ذلك أن نتبسمل قبل أن نتناول أي شيء من يديك.
- لا عليك يا نورس دعكَ من هؤلاء كلّنا أبناء وطن واحد، تجمعنا سماء واحدة وتنوّرنا شمس واحدة ويغزو ليلنا قمرٌ واحد.

يأخذ نورس كلامهم على محمل التواضع ولا يغضب أو يحزن في داخله، لكنه يقول بذكاء، مُنتقدا الشيخين.. الإسكافي وتيسير:

- على الأقل نحن لا نتنازع فيما بيننا مثلكم يا مُسلمين.

يضحك المُهندس إياد، فيوجّه له الشيخ رضوان سؤاله:

- وأنتَ أيضًا ونحن لا نعرف لك أصلًا، ماذا ستكون؟

يردّ بامتعاضٍ:

- هذا شأني الخاص، ما الذي حصل لكم؟ هل سيتحول الجميع إلى مُصادر على الآخر.. على كُلٍّ أنا وطنيٌّ فحسب، ولا تسألوا عن ديني فهو لربّي.

يأخذ مازن من كلماته خيطًا ويبدأ مفرغًا كبته وآلامه فيهم جميعًا..

- ألنّ تكفّوا عن هذا التخلّف؟

تتنابزونَ بالألقاب، والله ينهاكم.

يدّعي كُلٌّ منكم أحقيته بالتقوى والنسب، والله يقول: ﴿... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...﴾ [الحجرات، الآية: 13].

هذا يسبّ هذا كونه مجوسيًا، ولا يعرف أن الإسلام قد قضى على القوميّات. فإيران دولة إسلامية مُتقدمة، تُناطح العالم في الصناعات والسلاح والعلم. لكن ماذا فعلنا نحن العرب؟ لا شيء.. فقط نستهلك.

وفي الجهة المقابلة، يتهم الشيعيُّ السنّيَّ بأنه حفيد لمعاوية! وأنه قاتل الإمام الحُسين، والله يقول: ﴿... وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى...﴾ [الأنعام، الآية: 164].

تعيشون في الماضي.. والله يطلب منكم العمل والسعي، وأن الإنسان لا يُنسب إلى عشيرته بقدر ما يُنسب إلى نفسه وفعله.

الله يحثّنا على أن نعتصم بحبله جميعًا ولا نتفرّق، وأنتم تبحثون عمّا يفرّقنا ويتقّوى به بعضكم على بعض ونترك ما يقرّبنا من الوحدة بل ونحارب من يدعونا إلى ذلك.

هذا يقول الخلافة لعلي، وهذا يقول لأبي بكر وعمر..

هذا يلعن عليًّا وذاك يسبُّ عُمرًا.

أصبحتم مسخرة في العالم بأكمله، وبعدما كنّا «خير أمّة أخرجت للناس»، حولتمونا لأضحوكة الأمم كما قال أحدهم.. «يا أمّة ضحكت من جهلها الأمم».

تالله وبالله ووالله.. أنتم متخلّفون.

7

ينفعل كثيرًا فيظنون أن عقله قد طار مما تعرّض له من تعذيب في السجن، لكنه في واقع الأمر ينفّس عن نفسه ويرتاح من الداخل، ويواصل قوله:

- فرحونَ بأنّ كلاًّ منكم له قبيلة وعشيرة، ويقاتل ويعادي الآخر

بجهل.

فكل ما نحن فيه ما هو إلا سياسة من الحكّام الجبابرة والغرب المُتآمر على نهضتنا.. لنظل هكذا في تنازع وهُم يظلّون في تقدّم وازدهار..

أخبروني ألا تخجلون من أنفسكم حقًا؟ ألا تشعرون بالمرارة وأن كلاً منكم يُكفّر الآخر؟ ويحتكر الدين على الآخر؟ ويحتكر المحبة على الآخر؟ وكأنّ الله وقوته ورحمته وغضبه، ملك يمينكم تفعلون به ما تشاؤون. وكأنه رصيدٌ في حسابكم المصرفي، توزّعون الصكوك كيفما شئتم..

يتوقف عن البوح قليلًا ويهدأ متناولًا كوب الماء الذي أتى به إليه نورس أبو لؤي، ينظر إلى عينيه فيلمح فيهما نظرات تشفّ وإعجابٍ في آن، فيقول له بثقة ساخرًا..

- لا يا أبا لؤي، لا تعجب بنفسك وبقومك وكونكم إخواننا النصارى على تلك الحالة من الوحدة فأنتم ربما الآن أفضل منّا حالًا، ولكن إذا كنت لا تعرف ماذا كان ماضيكم أذكّرك..

عصور التخلّف الأوروبية قبل عصر النهضة، حيث كان يبيع القسيس في الكنيسة صكوك الغفران، فيتوب هذا عن ذنوبه بمجرّد أن يدفع وكلّما دفع المرء أكثر حصل على العفو من المعاصي والخطايا أكثر.

وكأن راعي الكنيسة مَلك ما بين يدي الرّب. حتّى أن هناك قصة قد وقعت.. وهي أن ثريًّا مُستنيرًا أراد أن ينشر الوعي بين المسيحيين آنذاك فجمع الناس والكنيسة في أحد الأيام في ساحة الفاتيكان قائلًا:

«أشهد الجميع أنني سأشتري كل صكوك جهنم الآن.. ومستعد لدفع كلّ مالي لقاء هذا الفعل مُقابل... أن يُعلن البابا غلق أبواب جهنم، وحين يفعل ذلك فلا تخافوا وافعلوا ما شئتم مِن مُحرّمات لأننا

سندخل الجنة».

8

فيا عزيزي لا تفرح بحالكم بل احزن على إخوانك من المُسلمين ما داموا لا يدركون هم حجم الفجيعة، فكلنا أولًا وأخيرًا من أبناء آدم، والإنسانية هي الرمز الذي يجب أن نلتفَّ جميعًا حوله باختلاف طوائفنا ومذاهبنا.

أُحرج نورس من قوله وشعر بخطئهِ، وتوجّه إلى أحد الزبائن في الخارج مُتحججًا أنه قد نادى عليه رغم أنهم لم يسمعوا شيئًا.

شعر المهندس إياد في قُرارة نفسه بالفخر وتمنّى أن يكون كل رجال العرب على هذا النحو من العلم والفهم قائلًا:

«والله لو أن مثل هذا يعمّم بالفعل من وعي وشعور بخطورة الوضع القائم، لما احتجنا لمخابرات ولا لجيوش ولا لشرطة.. لفساد الواقع فقط عقول مثل عقل مازن هذا تعمل للإصلاح، وأيادٍ تطبّق تلك الأفكار. ولو تحقّق ذلك لاستقلت أنا فورًا من منصبي ولما تخفّيت في هيئة رجل غريب يعيش بانفصام في شخصيتي بوجهين».

يسخر رضوان من كلام مازن:

- يبدو أن السجن قد خرّب ممالك عقلك وحصونها، تُريد أن تجمع الناس على كلمة سواء، الدنيا وجدناها هكذا ولن تتغير.

يردّ عليه بأكثر سخرية:

- نعم فأمثالكم يريدونها هكذا كي يأكلون خيراتها بالفتنة التي يحدثونها على حساب الفقراء والمساكين، فيذهب جزءٌ كبيرٌ للحكام والساسة وأعوانهم، وجزءٌ آخر لكم.. رغم أنه الفُتات.

يتحشرج صوته في حلقومه ثمّ يقول لأبيه الشيخ تيسير:

- ما رأيك أن تُعلن يا أبي النبأ الذي ادّخرته لتلك اللمة المُباركة حتّى نفرح وننسى شأن السياسة قليلًا.
- نعم يا بُني، أنتم جميعًا في الأسبوع المُقبل مدعوّونَ بإذن الله على عقد قران ابني الشيخ رضوان، من ابنة عمه الكريمة المصونة ريما العقّاد.

يُهنئهما الجميع، يُصدم مازن زيدان بعد أن طلب من الشيخ تيسير إعادة كلامه مرّة ثانية، وحين فعل، أخذ يُتمتم:

«معقول أن تكون ريما العقاد حبيبة صديقي باسم هي هي قريبة هذين المحتالين؟ شيءٌ لا يُصدّق!..».

يسأله إياد:

- بماذا تُتمتم يا صديقي؟
- لا شيء.. أبارك لهما.

ثمّ يقوم على عجل مُعتذرًا منهم.. بعدما تبيّنت له حقيقة الأمر، لعلّه يعثر على باسم في بيته أو يستلّ خيطًا من أحد أقربائه عن مكانه ويخبرهُ بذاك الأمر الخطير، قبل أن يتفاقم.. ويُستحال علاجه.

(18)

1

حين وصلَ إلى سورية، عائدًا من بلاد النيلوفر.. شعرَ بسخونة ألم إنساني سكنَ قلبهُ، هاتفها.. استيقظت مفزوعة بعين كاملة:

- أنتَ؟
- أنتِ. منذُ سنواتٍ أنادي عليكِ فلا تردّين.
- النومُ سُلطان.
- أنتِ ميتة ولستِ نائمة.
- وأنتَ؟
- لقد أصبحتُ عاقلًا بما فيه كفايتي.
- وماذا عن وعدكَ؟
- أبلّله بقطرات دمعك، ثمّ أشرب ماءهُ من فيض أنهارك الجافة وهمًا.
- شكرًا سأواصل نومي.. أنتَ خرفٌ.
- العفو.. بل واصلي موتكِ فأنتِ في غيبوبة.

سادَ الصمتُ والدهشة بينهما للحظات، لم تقطع الاتصال وتغلقه في وجهه، وفضّلت التأني، فلديها رغبة مُلحّة في الانتقام.

2

في اللحظة نفسها شكّت أنّ هذا حقيقي، لذا اختارت البقاء لعلّه

يُغيّر تلك الترنيمة المُزعجة، إن شعرَ أنّ موقفه الساذج هذا قد جرح مشاعرها، وأن السخافة لها طرائق أخرى غير أن يجاريها مُباشرة في اللعب على أوتار قلبها الرقيق، استدرك بذكاء:

- تُشبهُ هالاتِ النُّورِ المُعلَّقةَ في الكونِ..
يُرافقُها الفضاءُ..
يُسلِّيها بحكاياته..
عن المجهولِ الآسر..
كيفَ تمكّن من إبعادهِ..
قبلَ أن يغويه العدمُ..
تعتريهَا دهشةٌ..
تعتريه رعشةٌ..
تُغلقُ صفحاتِ الكِتابِ، تُربّت كتفه..
- وأنتَ لا تُشبه أحدًا، فلا بشريٌّ ولا مخلوقٌ..
مِن نور أو تُراب أو نار أو هواء..
مِثلكَ يا جنَّتي.

- حينَ أشرعُ في الكتابةِ..
أتذكرُ وقعَ حروفي..
استرخاءَ مسَامِعكِ
شروقَ الشمسِ في وجهكِ..
وقتئذٍ كُنَّا معًا في رَحابةٍ..
تدوّنينَ أخطائي..
تقوّمينَ زيغَ نسائي..
أمّا وقد فرغَ مقعدكِ..

رحلتِ إلى المجهولِ..
كُلُّ ما أفعلهُ يأس..
وكُلُّ فرحةٍ دونكِ كآبة.

3

تتنهّدُ، تراودها لوعة بُعده.. أسئلة كثيرة لم تجد لها إجابات، لكنها تقول في غير موضع:

- قد تطورَ شِعرُك كثيرًا، أصبحت مُلمًّا بهموم الأرواح العاشقة.
- كلُّ شيء في الحياة يتطور، المهم أن تشعري أنكِ معي بأفضل حال؟
- وأين أنتَ؟
- في قلبكِ.
- حتّى القلوب أمكنة.. الآن إن أردت أن أجدكَ.. حين أستقل حافلة من شرياني ماذا سأقول لسائقها؟ إسبانيا؟

يضحك من جمال مُفرداتها:

- أتريدينَ مُنافستي في الأدب.
- لا تحوّر الألم وتنزع منه الصورة القاتمة محاولًا تلوينها، لا تُجاريني في الهروب فلكلٍّ منّا طبيعته.
- أخبرتك.. في قلبكِ.
- حذّرتك.. امنحني مَعْلَمًا.
- مطعمنا الأنيق، فوق جبل قاسيون.

تضحك ساخرة:

- هل ترى قلبي الخارطة السورية؟
- بل أرى العالم كلّه فيكِ.

- كفاكَ خداعًا بحلوِ كلامك، غيابكَ منحني القسوة.
- بسم الرّب أنا الآن في سورية.
- بسم الرّب!.. ما سرّ ذهابك إلى إسبانيا خلسة؟ والعودة فجأة.. دونَ إخباري؟
- أحبُّكِ؟
- باسم.. لا تكُن كلسعة النحلة، يُمكنني أن أصبح لدغة عقرب.
- الهونَ الهون يا قُرّة عيني، هيّا كُفّي عن الثرثرة، وانهضي إليّ.. أنتظرك بشغف. قهوتي ستبرد.

تهب واقفةً، مُدارية مدى سعادتها بذلك..

- وهل جرؤتَ على تناولها دوني؟
- أستفزّكِ..

بنصف ابتسامة:

- ستدفع ثمن كلّ هذا أيها المغرور.

4

جلسُ مَسرورًا في انتظارها، وأطلّت من عينيه أحزانٌ تملأُ المدى، في قلبه حُبّها الذي يغمرهُ بالأمل.. وفي عقلهِ حقيقة لو تجلّت ونطقها لسانه لعصفت بهما.

ترتسمُ أمامه على صفحات السماء كُلّ المشاهد التخيّلية لما يُمكن أن يحدث!.. فالكتمان لا بدّ منه كي يحيا هذا الحُبّ ويستمر. والبوح لها بمكنونه لا بدّ منه أيضًا كي لا يعيش هذا الحب على كذبة كبيرة حتّى وإن كان لا يد لهما فيها.

على وقع كلمات فيروز الصادحة كعادة جلّ المطارح في هذا المكان.. ينتشي ألمًا، تغرورق عيناه وتلمعان..

«يا جبل إللي بعيد.. خلفك حبايبنا..
بتمون متل العيد..
وهمّك مِتعّبنا..
شتقنا لمواعيد..
حِكينا تعذبّنا..
ويا جبل اللي بعيد».

5

تُفاجئهُ عرّافة مَرّت بجواره، فزعتها ملامحُه الكئيبة بأطراف أحداقها، فبعدما تجاوزته عادت إليه، فهي تعتمد كُليًّا في رزقها على الثنائيين، وهو كان وحدهُ، ولكنّ حالته شجعتها لتُجبره على قبولها، فتحجّجت قائلة بعد أن افترشت أغراضها على الطاولة أمامه بعفويّة جبرًا:

- لولا أنّ الماءَ فيكِ خالطهُ الزيت، والنار ثار عليها الماء، وسبقت عاطفتُكَ عقلك.

سكتت قليلًا ثمّ واصلت..

- وسبقَ عقُلكَ عاطفتك، لما تطفّلتُ عليكَ.

ردَّ عليها باندهاش:

- إذن لم تُقرّبكِ منّي هالة الشُهرة وبريق النجومية؟

ثمّ بانعكاس..

- لِمَ تعرّضين نفسك للامتهان، عبرَ الدجل والشعوذة لقاء حفنة من المال؟

ردّت عليه بابتسامة ساحرة تَختفي معها ملامح تجاعيد وجهها المُتعرّج:

- أعرفُ أنكَ أرضيٌّ مسّتهُ تعويذة نجمةٍ عاشقة، حتّى أثناء حديثنا هذا قد يتعرّض لك عشرات المُعجبين والمُعجبات، فأنتَ شخصية عامة يطمح لها كل شيء.
- كلُّ شيء؟
- نعم، ما رأيكَ في حجر المغناطيس؟
- يجذب.
- بل يكذب، يوهم الضحايا بأنّ في القُرب نعيمٌ وكنز، وما أن يقعوا في شِركهِ، حتى يخضعوا لقوته إلى الأبد، إلى أن تأتي قوّة أكثر تأثيرًا وتنتشلهم، وغالبًا ما يحررهم ذلك المستعبِد الجديد من أسر إلى أسر.
- أوضحي بعيدًا عن الفلسفة ماهي الرسالة الراغبة في إيصالها إليّ.

تُقهقه من ذكائه:

- العظماء هكذا هم دائمًا مُفرطون في مشاعرهم، ولكن أزمتنا تكمُن في..

اعتماد الحياة على الديمومة في كل شيء...

كنز المال.. الخوف من الغد.. الترقّب.. الأمل.. التسويف.. الأحزان..

ثم في آخر المطاف يأتي الموت ويبطش بكل هذا، حتى أن الحياة نفسها تُخرج لنا لسانها على أعتاب القبر وتتهمنا بالغباء. كل هذا لأننا فقط اعتقدنا الديمومة في دنيا الزوال، فما استمتعنا بما هو متاحٌ لنا ولا حاولنا الفهم الصحيح.

- تتكلّمين بالحكمة، وأنتِ عرّافة.
- وهل ضربتُ أمامكَ ودعًا؟.. أو تمتمتُ إلى صدفةٍ عتيقة؟.. هل ادعيتُ الغيبَ في فنجان قهوتك ورملها من البُنّ الجاف؟

- إذًا بماذا تسمّين نفسك؟
- كشّافة!.. جلاّءة.

يُقهقه بصوتٍ خفيض مُستغرب منها، تُطفئ دهشته بمزيد:

- كشّافة.. أعهد صدق نفسي فينجلي في عيني صدق الآخرين وكذبهم.

جلاّءة.. أُذيب همومَ العاشقين أمثالك بإعطائهم سرّ النجاة.

- وكيف استدليتِ على كوني عاشقًا؟
- أهديتكَ أول حديثي معكَ.. أذكرك بجزء منه.. الماء والنار، الجمر والثلج، لا تجتمع المتضادات إلا في قلب مُتيّم.
- وبما تنصحين؟
- الصدق أولًا.. والصدق ثانيًا.. وثالثًا وأبدًا..

تمسَّكْ به تنجُ.

واحذر البريق المزيّف، فكل ما نظنه من نور.. قد يكون على غير حقيقته.

6

لملمت أشياءها وقد كانت أقلامًا وأوراقًا ملوّنة.

حاول مساعدتها فضربت ظهر يديه بلطف.

- عرّافة غريبة.

رمقته ببسمة.

- أعتذر، كشّافة جلاّءة عجيبة.

حضرت ريما العقاد في أبهي حُلّة، آتية من أقصى المدى. رآها في تبخترها المعهود الذي يسوده الاستحياء. سمع إيقاع كعبها العالي المُشابه لصدح البلابل في أذنيه.

شردَ، التفت الكشّافة وأدارت رأسها نحو ما أخذهُ منها، أيقنت على الفور أنها هي.. هي تلك التي دوّخته، وسلبته عقله.

أصبحت قابَ قوسينِ أو أدنى منهما، أخرج مِحفظته على عجلٍ واستجمع دونَ عدٍّ كثيرًا من الليرات، «كمشها» ومدّ يديه إليها، أخذتها بشُكرٍ وتقدير، وأدهشته آخر كلمات لها معه:

- تذكّر.. الصدق.. الصدق.. الصدق..

ثمّ إن هذه الفتاة التي يبدو أنها محور فرحك، تستحق حياة جميلة. والكآبة التي هي منكَ تستحق الزوال.

انتقلت إلى طاولة أخرى عليها عاشقان هائمان قبل أن تغيب عن البصر، على وقع استغراب ريما التي رمقتها، حتّى وصلت إليه، وقالت بترقّب:

- أتؤمنُ بما حرّم الله.
- دعكِ مما حرّم الربُّ وأحلّ.. أريدُكِ في شيء مُختلفٍ.
- ما قصّة هذه اللفظة معك؟ ثمّ إني أستغربكَ كثيرا، لأوّل مرة تستقبلني ببرودٍ خالٍ من اللهفة.

(19)

1

كان يومُ الجمعة، حيث تُضيء الشمسُ وبقوة، مُتسيِّدةً كلَّ السفوح.. تُلمّعُ الأشجارَ والجبالَ والسهولَ والوديان، وحتّى الطيور السابحة في الفضاء والبحار والأنهار المُنسدلة من رحم الأرض وخزائنها. على الرغم من أنَّهُ فصلُ الشتاء، إلا أنّ السحاب الكثيف يذوب ويتبخر.. لا يعرف الناظر له ماهيّة، غير أن القُرص الأصفَر المتوهّج قد فرض سيطرته، مُعلنًا أن الأوامر الإلهية يجب أن تُطبق على أكمل وجه.

ينشطُ كلّ شيء في الساعات الأولى من بعد الشروق إلى أن تُصبح تلك البهية عموديّة مُتأنقة مُبهرة، وأحيانًا حارقة خانقة للمُتأمل المُتحدّي.

وكعادة الدمشقيّين وكونهم جزءًا أصيلًا مِن أتباع رسالة مُحمّد في العرب والعالم، فإنّهم يتأنّقون قُبيل صلاة الجمعة، الثياب البيضاء الفضفاضة اللامعة على أجساد تطهّرت وتعطّرت لتغدو إلى المساجد ومعها في قلوبها النقيّة ملايين الرسائل الحياتية والأبدية، لله ربّ العالمين.

فمنهم من يطلب المجد ومنهم السعد، منهم العُلا، ومنهم المال والولد، منهم البائس الذي ينتظر قضاء نحبه، ومنهم القانع المتوكّل بحرفية تامة. وأشقاهم الذي يذهب بلا غاية أو هدف، عابسًا لا ينتمي إلى طبقة بعينها. فقد يكون ثريًّا أو فقيرًا، إنما استغناؤه بما لديه وهم،

أغناهُ زيفًا عن خالقه، فتراهُ ذاهبًا ليسدّ فراغًا أو ليُقال عنهُ ذهب طائعًا وعاد.

2

لم يفكّر الشيخ الإسكافي وهو على منبر الجامع الأموي.. في تغيير نهج جُبلَ عليه وآباؤه في صنعة المشيخة الدينية، إذ إنّ الخُطبَة لها معايير خاصة دائمًا ما تأتيه من أعلى، وعلى الرغم من محاولته الجادة في إضفاء بعض الواقعية على خطاباته إلا أنه في النهاية يُريد الإبقاء على حياته أولًا، وقوته وقوت عياله ثانية.

لكنَ هذه المرة كانت استثنائية إذ خرق أحد المُصلّين المنطق، وعند الدعاء قُبيل إقامة الصلاة صاحَ ليُحدثَ جَلبة:

- أيُّها الشيخ الإسكافي.

مرّ الصوت على أذنيه كهاتف، ظنّه للوهلة الأولى أحد الشياطين الذي يحاول إثناءه عن الخشوع، فما التفت.

انتصب الرجل ملوحًا بيديه وبوتيرة صوت أعلى كرر:

- أيها الشيخ الإسكافي.

أُجْبِرَ على التوقف واستكمال الدعاء ليُطالعه باندهاش:

- صَهٍ.. بخٍ بخ. إن للمسجد حُرمة.. ولخُطبة الجمعة حُرمة، ولشيخوختي حُرمة، وللآداب العامة حُرمة، وأنتَ قد تجنّيت على كل هذا. أما تنتظر بعد انتهاء الصلاة وتعرض حاجتك؟ أمّ أن عقلُكَ ذاهبٌ وبكَ جُنّة؟

حاول مَن بجواره أن يُقعده ليُكمل الشيخ دعاءه، غير أنّ الرجل نهره.. ليقول جادًّا بعدما ارتفعت ثرثرة الحاضرين على غير العادة وآلت إلى الصمت مع بداية كلامه:

- صلاة الجُمعة هذه وخُطبتها رقم كم في الواقع الإسلامي؟
- مه؟
- ما أعنيه أنّهُ ما الجديد الذي يُمكن به أن نخدم ديننا.
- أوضح رحمك الله، وإلا طُردتَ من هُنا، هل أنتَ مُسلمٌ؟
- أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن مُحمدًا رسولُ الله. أظنّ أن الدين الحقيقي ينهاك عن طردي وزجري حتى لو كنت من غير المُسلمين.
- لا تضيِّع أوقاتنا أوجز.. لنُنجز.
- رفقًا بي أيها الإسكافي فمعروف عنكَ الحلم والنورانية.
- مُشكلتك أنك خرقتَ حدًّا كبيرًا، وإن لصبري عليك سعة قد تنفد.

- في صدر الإسلام، دخل رجل إلى مسجد المدينة في حضرة الرسول، وتبوّل في أحد أركانه.

3

صلّى الجميع على النبي وآله وصحبه الأطهار وبدت عليهم علامة الشوق لقصة هذا الرجل، لينسوا أنهم قبل قليل كانوا قد همّوا بضربه أو قتله، وقعد الشيخ الإسكافي على سلالم المنبر الخشبي العتيق، آخذًا بالميكروفون من سنّادته وردّ عليه مُبتسمًا:

- أفحمتني أيُّها البليغ، فهات ما عندك.
- ألف وربعمئة عام ملكنا فيها الدنيا إلا قليلًا.. وساد الإسلام في نفوس الأقوام إلا من أبى وتكبّر.

سأجتاز السنوات التي لم نشهدها والقرون التي ما وصلنا منها سوى حكايات متواترة ومكتوبة عبر الأزمان الغابرة والأنفس العابرة، وأستحوذ على ما يولع قلبي بالشفقة على أمتنا وعلى الإنسانية كُلّها..

- ألا وهو؟
- أفول نجم الأمَّة. وحضرتكم ربما تراني دائمًا في الصفوف الأمامية ألزم ما تقول وأعمل به، لكنّ شيئًا لا يتغيّر.

يحاول أحد المُصلّين نهرهُ:

- خاطب الشيخ بما يليق ودعنا نُكمل صلاتنا فقد كفرتَ بتعدّيك على الخطبة.

ينهاهُ الشيخ الإسكافي بوجهٍ عابس:

- كفّوا عن استخدام لفظة الكفر والهداية، فلو شقّ الله قلوبنا الآن لخجلنا من أنفسنا واندهشنا ألمًا من العجب. أكمل يا بُني ما لديك، فوالله إنّهُ لكبير.

- خمسة وعشرون عامًا، أسمعك في كل صلاة تدعو لتوفيق الرئيس، وعلى ما يبدو لي أن الأدعية تُغادر الحناجر فقط.. تأخذها الملائكة وتردّها علينا بعيدًا عن باحة هذا المكان الطاهر، وكأننا نُعاقب بأدعيتنا لا يُجاب لنا، وكأنّ الله لا ينظر إلينا بأدنى طرف أو اهتمام.

ثرثر المصلّونَ، وشعر الإسكافي باحتقانهم لكنّه رأى شفيف قوله من خلال بصيرته وفهم ما يرمي إليه:

- أيا بُنيّ.. ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد، الآية: 4]. و«الدنيا سجنُ المؤمن وجنّة الكافر».

4

يُقاطعه بضحكة ساخرة:

- أتهزأ مني؟
- معاذ الله بل أعجب وأنتَ قائمٌ على أكبر طوائف الإسلام وأكبر مساجده ولم تسمع بقصة الإمام الحسن واليهودي.

- زدنا، فما أوتينا من العلم إلا قليلًا.
- بينما الإمام الحسن بن علي.. يتجوّل في سوق الكوفة أيام خلافة أبيه، حيث وفرة المال ببيت المُسلمين. إذ برجل يهودي ذي ثياب رثّة مُرقّعة، يستجير به: «الغوث يا ابن بنت رسول الله إنّي جائع، وقلة الزاد تنخرُ في أمعائي». فأجابه الإمام الحسن: «هوّن عليك». ثمّ أعطاهُ صرّة بها اليسير من الدنانير.

تعجّب الرجل وسأله: «ألم يقُل جدّك: إن الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر؟ فأجابه الإمام: «بلى.. صلوات الله عليه وتسلميه».. قال اليهودي: «إذًا فلماذا أنا على ذلك الحال من البؤس، وفي شريعتكم كافر. وأنت على ذلك الحال من رغد العيش والجمال وأنتَ من المؤمنين؟». فابتسم الإمامُ الحسن وقال بلطفٍ له: «إنني مهما ارتقيتُ في نعيم الدنيا، فهو بالنسبة لجنّة الآخرة لا شيء. وأنتَ مهما ترقّيت في بؤس الدنيا فهو بالنسبة لجحيم الآخرة نعيم».

فوقف الرجل متعجبًا من أمره، ومن سماحة الإسلام ورقيّ حديث الإمام الحسن وهديه، وبعدما سلّم عليه الأخير وانصرف، وخطا بضع خطوات نادى عليه الرجلُ اليهودي، ليُعلن وسط جمع من الناس ويشهدهم ويشهده، أنّهُ قد أسلم بدعوة مُحمّد.

5

تمتم كلُّ من كان في المسجد الأموي بجمال القصة، وأثنى الشيخ الإسكافي على الرجل كثيرًا.

- رضي الله عنكَ وجزاكَ خيرًا. ولكن أخبرني، ما الربط بين من سبقنا ونحن ومن سيلحق بنا؟

ردّ عليه باستفاضة وأدب جَم.

- يا مولانا.. تظل تدعو للنظام الذي يحكمنا، وتدعو لنا معشر العامة، وقد نكون جميعًا لا نستعين بهدي أنفسنا ولا بالعمل الصالح الذي يؤهلنا للفلاح، والدليل.. يا ربّ وفق الحاكم.. إلامَ؟

الفقر، أعاذنا الله منهُ، أوصل الناس إلى عدم التعفّف ثم إلى اليأس والانتحار. الظلم جعل هؤلاء الحكّام لا يلتفتون إلينا وهم يعيشون في رغد العيش بأموالنا، بدلًا من أن يخدموا الناس، يتجبّرون عليهم.

يُقاطعه بحنق:

- وماذا تُريد منّي أن أدعو على أرباب دولتنا وسادتها.

يفعل مثله مُسترسلًا:

- لا ندعو عليهم ولا يدعون علينا.. لكن ألا يُعدُّ هذا نفاقًا؟ لماذا لا تحثّه على المعروف، أن تقول له كلمة حق في وجهه؟ أليست أفضل كلمة حق تُقال، تلك التي في وجه سُلطان جائر.

يردّ عليه مُرتبكًا:

- الصحيح أنّ الأمة مريضة ولكن ما عسى حكّامنا أن يفعلوا؟

يضحك ساخرًا:

- أتعرف يا شيخ.. إن الحاكم في بريطانيا العُظمى يركب المواصلات العامة مع الناس! ويقرأ جريدته واقفًا لعدم وجود كرسيّ شاغر له! أتعرف أن معظم قادة أوروبا يُرددون مقولة واحدة: «جئنا لنخدمكم لا لنحكمكم».

لن تجدهم يمشون إلى أعمالهم بحراسة كالتي تُعطل المرور في بلادنا وتحدث فيها أزمة.. فيموت المَرضى من الانتظار في سيّارات الإسعاف حتّى يمُر موكب «البشاوات». ويتعطَّل الموظفون عن الذهاب لأعمالهم، وحين يصلون يُعنّفون من مُدرائهم الذين لا يُدركون مأساة

المواطن البسيط ومدى انعجانه في الزحام لأنّه غالبًا ما يقطن إلى جوار العمل في مسكن يساوي ملايين الُجنيهات وتحت أقدامه سيارة فارهة واثنتين.

6

- يا بُنيّ اقنع.
- يا شيخ.. اتقِّ الله.
- يا بُنيّ دع لهم الدّنيا.. واعمل بالقاعدة الفقهية: «لا تخرج على الحاكم ولو أخذ مالك وجلد ظهرك».

يضحك ساخرًا منه مُجدّدًا:

- عن أيّ فقهٍ تتحدث؟ تالله إنها خُرافات، وضعها شيخُ السُلطان لهُ، وحفظها حاكمٌ وراء حاكم.

إنهم يستقوون علينا بأمثالك أيها الشيخ الجليل.. إنّك تفقد محبّتك في قلبي وهيبتك في عقلي.

- يا بُنيّ لو علمتم الغيب، لاخترتم الواقع. لا تنقم على معيشتك.
- وأنتَ لا تبعْ دينك بعرض زائل.

تحوّل المسجد ساحة معركة، كلاهما يحاولُ إظهار قُدراته في الدفاع عن حُجّته، وكذلك ينقسمُ المُصلون وينسون أن هُناك صلاة في الأساس، فالأمر حقًا جلل.

يعاود السائل طرح ما بدأ به من جديد:

- لم تُجبني! ما فائدة صلاة الجُمعة؟

يشرب الإسكافي بعض الماء، ويبلّل عرقه بمنديله الأبيض القُماشي، ثم يعيده في جيبه، ويبلع ريقه.. يجيبه ُبنبرة مكسورة حزينة:

- إن الصلاة عامّة تنهى عن الفحشاء والمُنكر والبغي؟

- التفاتة جميلة منكَ أنكَ لم تظن أنني أدعو الناس لعدم إقامة الصلوات. وأستلهمُ ردًّا عليكَ من قولك.. ولماذا لا ينتشر بيننا جميعًا من رأس الهرم حاكم جمهوريتنا السورية، إلى أصغر مُكلّف تلك الأشياء:

الرحمة.. الصدق.. الأمانة.. المودة.. المحبّة.. العدل.. الإخلاص.. الوفاء.. الارتقاء.. العلم.. النور.. القُرب.. الولاء.. الدواء.. الابتكار.. البهاء.. الثناء.. التواضع..

7

صاح فيه برفق:

- بُنيّ، آلمتني كثيرًا فتوقّف. إنّ كلّ ما قُلتَ وما كُنتَ لتقول.. للحق. وإننا والله لا نفعل إلا عكس كل ما أتيتَ به. وإنّ الإعصارَ لآتٍ لا محالة. تعال.. صلّ بنا يا بُنيّ.

صمت للحظات، وحثّه الجميع أن يفعل.

تسلّل من باب المسجد إلى الصفّ الأمامي، حتّى أصبح إلى جواره..

جاء العقيد س/س بعد بلاغ من أحد المُخبرين بالمسجد هاتفه وأخبره عن هذا المُتمرد الذي شقّ صفّ الجماعة وتحدّث عن النظام بالسوء، وقد أوشك على إحداث ثورة.. على الرغم من أن ثورته ما كانت إلا فكرية فحسب!

همس في أذنيه:

- في هدوء امضِ معي.
- شيخ إسكافي أعتذر على تلبية طلب الإمامة، فأنا أمّيٌّ ولا أحفظ من القُرآن إلا فاتحة الكتاب والمعوّذتين.

همس العقيدُ مُجدّدًا في أذنه:

- وجاهلٌ أيضًا، الويل لكَ ولعشيرتك بأكملها منّي، الرئيس دكتور أعلم منك وممن أنجبوك، وأنتَ تتفلسف، حفرتَ قبركَ بلسانك.

لم يبالِ بما سمع، ابتسم بكلّ ثقةٍ ولم يبدُ عليه أي مخاوفٍ، وكأنّ الله أنزل على قلبه السكينة.

بكى الشيخ الإسكافي وحثّ المؤذن على إقامة الصلاة وقال قبل أن ينزل من المنبر ويقف في القبلة ويُدير ظهره لهم:

- أمّي وعلّم حامل دكتوراه في الفقه، أيا حسرتي.. إنّ الاعتزال بعد الآن أكرم لي وأنفع عند الله.. «اللهّ أكبر».

(20)

1

- هل تعتقدُ ريما أنّ منابعَ قلبي التي لا تنضب، أخذت تضخُّ محبّتها في اتجاهٍ آخر؟
- لا ولكنّها كانت مُتفجّرة هدّارة، ثُمّ غدت مُنبجسة.
- لذا بدوتُ لكِ باردًا؟
- رُبّما أكثر.. مُتجمدًّا مثلًا.
- ولو أخبرتُكِ أنّي كالبُركان الخامد.

على وقعِ مُتتالية فيروزية تتجاهل قوله، وتنظر إليه بابتسامة عاشقة تحاول بلع حبوب الغُفران لمحبوبها.

«سألوني النّاس عنّك يا حبيبي..
كتبوا المكاتيب، وأخدها الهوى..
ويعزّ عليّ غنّي يا حبيبي..
لأوّل مرة ما بنكون سوى».

ولّت وجهها عنه جهة المشرق، ذارفة بعض الدمعات المولعات بصراعات أوقاتها العصيبة. يلحظ، يتأفّف وبكفّيه يُعيد قِبلتها إليه.

- أتتأفّف أيضًا؟ يُمكنني أن أنصرف.. وأطوي صفحتي بيديّ، ولا داعي للهرب منّي.

يكظم غيظه محاولًا إحلال السّلام بينهما:

- تأفّفت لاستيائي على حالتكِ لا حنقًا عليكِ. ثمّ ما الذي أبكاكِ؟

لمست صدقَ إجابته:

- بعد ظهورك من قُرطبة.. وبعد ابتلاعي المُفاجأة على الرغم من جمالها، إلا أنني تمالكت غضبي وما قرّعتك أمام الملايين على الهواء مُباشرة. لأنّ الموضوع الذي كانت تناقشه فيروز لامسَني، وما أردتُ إظهار أنني كرهتُكَ وبشدة في تلك اللحظات أمام العامة.

قاطعها بنصفِ ضحكة:

- لذا اكتفيتِ بالإشارة عن سرّ ذهابي للأندلُس.
- لم أكتفِ وحين أنتهى البرنامج حاولت مُهاتفتك، لكن هاتفك كان مُغلقًا كالعادةِ.
- تعرفينَ أنني أستخدم وضع الطير...

قاطعته ساخرة منه:

- أستخدمُ «وضع الطيران» في الحالات الآتية:

حين أكتبُ، حين أنام، حين أصلّي، في العمل..

وواصلت ضاحكة:

- لكنك نسيت أن تستخدمه أيضًا أثناء دخولك للحمّام. أخبرني متى يُتاح هاتفك.. لأتحصّلُ عليكَ دون جَهد.

ردّ عليها بعدما فرغ من ضحكته الدائرية:

- خفّة دمكِ تساوي الدّنيا في عيني. وما شُغلي عنكِ إلا لأكون معكِ في الغد.
- تكذب.
- بل أصدقكِ القول.

- تهرف.
- بل أنزف.

2

حملقت إليه وأعلى وجهها تشاركُ حاجبيها في اقتضابها منه..

على وقع أغنية لكاظم الساهر همّت بالحديث فطلب منها مُشيرًا برفق أن تنصت لها..

«لا تزيديه لوعة

فهو يلقاكِ لينسى لديكِ

بعض اكتئابه..

قرّبي مُقلتيكِ

مِن وجهه الزّاوي

تري في الشحوبِ

سرَّ انتحابهِ..

وانظري في جبينه

صرخة اليأسِ

وأيّامَ غابرٍ من شبابهِ..

لهفةٌ تسرقُ الخُطى

بين جفنيه

وحلمٌ يموتُ في أهدابه».

3

- كُفّ عن تقديم الأعذار، لو لم أكن راغبة فيكَ.. لم أقدّم لكَ مساحة حتّى سبعين عُذرًا.. ما جئتُكَ الآن وطرتُ إليكَ فرحة

بلقائك.

سألها مدهوشًا:

- لماذا استخدمتِ الرقم سبعين تحديدًا؟

فأجابته باندهاش أشد:

- حديث المُصطفى خير خلق الله.. «التمس لأخيكَ سبعين عُذرًا».

قاطعها:

- وأنا أخوك؟

سحبت ثورته الخفية على أخوّتها:

- بل أنتَ حبيبي وبدل السبعين أمنحك ألفًا ومليون عذر.

شرد لوهلةٍ فباغتته:

- دِيننا!

عاود الشرود وأمسكت هي بزمام تحريك ما بينهما من غموض أوشك على العصف بهما:

- لم أخبرك، بعدها سألتني بتول.. «لِمَ سافر إلى إسبانيا»؟...

ظللتُ أبكي حتّى كسّرت «الريموت كنترول» الخاص «بالريسيفير» لغيظي منكَ وحزني، فخرجت أمّي على الفوضى التي أحدثتها قذفتي، إذ اصطدم بالمزهرية الخاصة بها والتي تضع فيها يوميًا الريحان الطازج ليُعطّر المكان قائلة فرحة..

- «شكرًا يا الله. روح وريحان وجنّة نعيم، بهيك يكون عنّا الروح هو ابنتي العزيزة ياسمين والريحان الجميل».

استرسلت بحُزن وهو ما زال شاردًا..

- أتدري شعرتُ أنني كسرتُ معها فرحتها، يجب عليك أن تشتري لها واحدة مُميزة غيرها فأنت السبب في كل هذا، ولتكن حجّتك عيد الأم في الشهر القادم.

4

شعرت بذهابه بعيدًا عنها، وانفصاله التّام عن حديثها، فاسترسلت بألم:

- أتحبّني؟

أجابها بطريقة غريبة كالتي في مُحادثات وسائل التواصل الحديثة.. «فايبر ولاين وسكايب» حينما تكون سُرعة شبكة الإنترنت ضعيفة، فيجد الإنسان أعلى الشاشة كلمة فقير «poor» مما يجعل الكلام يصل إلى أحد المُتحدثين أو كلاهما مُتأخرًا:

- نعم سأشتري لها واحدة بالطبع.

اشتعل غيظها:

- ما عن هذا سألتك.

أجابها بالطريقة المتأخرة نفسها:

- أعتذر منكِ كثيرًا، ولصديقتك بتول.. لقد سافرت لإسبانيا لاستلام جائزة أدبية، وكان كلّ شيء أسرع مما أتخيّل، لذا لم أتمكن من إخبارك.

5

انهارت وهمّت بالذهاب، غير أن بعض الزبائن على الطاولات المجاورة أخّروا رغبتها حين تعرّفوا إلى شخصيته بعد أن أنزل نظارته الشمسية من فوق عينيه إلى الطاولة، فهرولوا نحوه طالبين توقيعه وكذلك التقاط الصور بطريقة «السيلفي» معه، ما استدعاها أن تنتظر محافظة على ماء وجهها وعلى احترام الناس له ففضّلت البقاء حتّى يفرغ منهم.

انصرفوا بالبهجة وتركوا لهما الحُزن والفجوة التي تزداد اتساعًا

بينهما لحظة تلو أخرى، تذكّر كلام العرّافة قبل قليل.. «أن لا تجعل البريق يُسيطر على الحقيقة، فخلف النور ظلام وخلف الظلام نور».

لملمت لهفتها وتوقها إليه كما استجمعت أشياءها عن الطاولة تمامًا.

كانت قد خطّت بعض كلمات العشق المُنير على ورقة صغيرة في أحد دفاترها، شفعتها بقبلة من ثغرها المعسول ونثرت عليها بعض العطر المُفضّل الذي يعشقهُ.

مدّت إحدى يديها وأمسكت بباقة الورد الذي جاءت به إليه لتهنئته.. من نوع الأوركيد.. ونزعت بالأخرى الشريط الأحمر الذي يلصقها «بالسولفان» لتنال بخفّة يد كلماتها التي رأت أنه لم يعُد يستحقها.

قبل أن تنتهي، أمسك بها ناظرًا إلى عينيها، استلتها منه بُعنفٍ أكثرَ منه:

- أوجعتني.
- أعتذر لا أقصد.

تركها بعد محاولات جذب وشدّ من كليهما:

- لا تعتذر تلك نهاية طبيعية لالتقاء الشمس والقمر.. لا بدّ أن يسطع ويشرقُ أحدهما ويتضاءل ويغربُ الآخر.

- لا تعرفين شيئًا، وجع قلبي واختناق روحي يفوق بلاغة قولكِ هذا، ثمّ لماذا لا تصل تلك الرؤية الشفيفة إلى أعماقي وتعرف ما بي؟

ضحكت باستهزاء:

- سيّد باسم.. الشاعر السّوري العالمي، أكنتَ تظنني سهلة المنال؟
- سيّد باسم! مُنذ متى بيننا كُلفة؟

- منذ اللحظة التي غدوتَ فيها غريبًا عنّي، ماذا كُنت تعتقدني، أجبني بصدق..

نزوة عابرة؟ جسدًا مُغريًا وجب التهامه؟ عقلًا غبيًّا تستحمرهُ؟ أم قلبًا خربًا تعبث فيه؟

6

صمت لحظةٍ، أخذته العبرةُ، غيرَ أنه تجلّد مُستعينًا عليها بقوة إرادته، فتلك المحنة لا بدّ فيها من صبره، وإلا حطّم ريما وحطّم نفسه لو خضع إلى ضعفه.

هدأت ثورتها قليلًا وشعرت أنّ صدره يحفل بكثير من الألم فسألته:

- لن أعيد على مسامعك أرقام حيرتي ودهشتي في عدم إرضاء فضولي في كل ما عرضتُ عليك من أسئلة، ولكنني وبشدّة ألحُّ في معرفة أمرٍ واحد، ولتعتبره آخر ما أريد الإجابة عليه.. ما الذي تخبئه في مكنونك، وهو يحول بيني وبينك؟

هل أنتَ متزوجٌ؟ هل أنت عاشقٌ لغيري؟ هل أنتَ تُريد فراقي؟ هل أنت مريضٌ بأحد الأوبئة المُهلكة.. حفظك الله؟ هل أنت!.. هل أنتَ!.. هل أنتَ!

- ولا شيء من هذا.
- مه إذًا؟
- لا تعرفين ماذا تُمثّلين لي.
- أريد أن أرى ذلك فعلًا لا أقوالًا. أنا أضيعُ منكَ يا باسم.
- أعرفُ.
- بل لا تعرف شيئًا على الإطلاق.
- أعرفُ، هاتفني مازن وأخبرني فور عودتي.
- مازن؟

- أين كان ومتى ظهر فجأة، ثمّ بماذا أخبرك وكيف؟
- قصّة طويلة أخبرك بها لاحقًا.
- نعم كالعادة.
- دعينا الآن في شأننا، قد أعلمني بأنّ عمّك يريد تزويجك بابنه.

تفاجأت، انفتح فوها الصغير مُشرّعًا على مصراعيه، وبدت على وجهها اسبهلالة عالم فلكي أدهشته نجمة تتراقص في المدار اللامُنتهي، وكأنها لاعب كُرة قدم ماهر يتخطّى مُنافسيه واحدًا تلو الآخر بإيقاع مُتناغم.

- لا يسعني سوى قول المصريين «إيه اللي جاب القلعة جنب البحر»، وكما نقول نحن «شو اللي جاب زيد لعبيد». عمّي وأنتَ وابن عمّي الشيخ رضوان ومازن زيدان!.. بعد قليل ستقول لي أنك على علم بالثورة التالية في الربيع العربي بعد تونس ومصر وليبيا.
- بل أقول: هل ترغبين في الزواج به حقًّا؟

احمرّ وجهها بلون حبّة طماطم مُهجّنة:

- تُريد قتلي بإهدائي لغيرك، هل أنا سبيّة بين يديك؟ الرفق بقلبي فهو لم يعُد يحتمل. لا تستغل محبّتي الخالصة لكَ، «فالقلوب بين يدي الرحمن»، فاحذر أن يولّي الدبر ويتقلّب بعيدًا عنك.
- أنتِ لا تعرفينَ ماذا تُمثّلين لي!

7

ساد الصمتُ بينهما.. مِثلَ سكون إحدى الغابات الاستوائية وقت حلول الليل ونوم كل المخلوقات، إلا مَن يحضر ولائم السادة والترتيب لمكائد الصباح التالي.

تدخلت لتُعبّر عمّا أرادت قوله له.. معزوفة فيروزية جديدة بعد مخطوطة بدر شاكر السيّاب لا تزيديه لوعة وما تلاها من أناشيد ساحرة:

«سألتك حبيبي لوين رايحين..
خلينا خلينا وتسبقنا سنين..
إذا كنا ع طول
التقينا ع طول..
ليش منتلفّت خايفين».

فهمها من نظرات عينيها وفكّ الهدوء بثورةِ عشق:

- معك حق في تساؤلك المشروع، وخوفك الموجوع.

شفعت فضولها بشوق البوح بما لديه من كلام سواء كان فرحًا أو ترحًا.

- والعمل؟

قاطعهما النادلُ بفنجانَي قهوة فرنسيين، فكادا أن يقتلاه بنظراتٍ من الاستنكار، وأحاديث حول تعكير الصفو، وأن الجوّ بينهما في السابق ساده البرود والنفور وأنّهُ ما كان يجب أن يحضر وهما على وشك أن يتوصلا إلى حلٍّ يمنحهما جسرًا من الأمل، ليعودا حبيبين عاشقين حالمين بيدين مُتشابكتين ووجهين باسمين.

لم يملكا سوى شكره، ورشف القهوة مرة واحدة معًا..

وفي لحظة واحدة ناولاه الفناجين، ابتسما معًا وقد لمح تصرفهما الغريب ولم يفهم لِمَ فعلا ذلك، لكنّ غايتهما في أن لا يعود بعد قليل ويزعجهما بحمل الفنجانين فارغين، بررت وسيلتهما في معاملتهما الفظّة له على غير العادة. فانصرفَ النادل مُتمتمًا..

أبحر باسم مارديني مُسترسلًا عن مكانتها في حياته وقلبه:

- من المُمكن أن أتنقلُ من واحدة إلى أخرى، لكن كيف لي نسيانك؟

ما جمّعنا اللهُ لنفترق يا حبيبتي، ولو أرادَ ذلك فلِمَ قام بخطّ أقدارنا على هذا النحو من الجمال المحفوف في كل خطوة بالألق والنور رغم تعثّره.

لو أنّ الربّ أراد قتلنا عبر اختيارنا للابتعاد بكامل وعينا الإنساني والفكري، فلمَ بصدفةٍ جمعنا في أول لقاء بأرض غير أرضنا، وكأن الإمـارات كانت جنّة جمعتنا في ساعة سُرقت من أوجاع الأرض وصراعاتها المُضنية.

قاطعته:

- وما الذي حدث إذًا.. أينبغي علينا أن نعيش هُناك لأنك في سورية لا تهتم بي، وتنساني وكأنني لم أكن؟

ابتسم وأمسك يديها محاولًا امتصاص عتبها، فأبعدته برفق مصحوب بعناد:

- أحبُّكِ.. وأعرف أن التفكير مُجرّد التفكير في حقيقة غير تلك يقلقنا.

قاطعته مُجدّدًا:

- يُقلقني وحدي، أما أنت فتعيش حياتك عرضًا وطولًا، ولا تعبأ بي وكأنّي سراب.

- غير صحيح يا عُمري.. السَّرابُ أن أمسك بقلمي محاولًا كتابة إحدى قصائدي، وتعصى الحروفُ أمري لأنها لم تأخذ الإذن منكِ، ولم ترَ إطلالتك.

السّرابُ أن تلمح عيني امرأة غيرك، فتضحك ظنًّا منها أنّي مفتون بمحاسنها، والحقيقة أنّي رأيتُكِ في انعكاس جمالكِ عليها.

السرّابُ أن تولد في كل يوم المطارح التي تغزوها طلّتي وتفتح

طرقًا غير مقصودة منّي وتمهّد لعشقي من قبل النساء الحاضرات، فأصبح الفارس الوحيد في دُنيا قلوبهن الحالمة.

السّرابُ، أن تشتهيني آلهة الجمال على الأرائك فأحذو بأعراف يوسفَ، ولا أخضع لقوانين الجسد وحُسن امرأة العزيز الصَّارخ، أن أشتهي ولا أطأهُن لأنّ في اللحظات الأخيرة انقطعت كيمياء الحُبّ من صورهم المُزيفة.. ليردعني طُهرك.

السّرابُ، أن لا تفهمي أن في الكون ملايين الشموس، لكن لا شمس كأم مجرّتنا التي تسكنها الأرض، فالشمسُ الأم هي أنتِ.

السّرابُ، أن أكونَ طفلًا بين يديك رغم شبابي وفتوّتي، أن أتعلم منكِ فنون اللغة والمُفردات وأنا الأديب، وكأنكِ خُلقتِ لتعلميني.

السّرابُ، أن تظنّي مُجرّد الظن أنه يُمكنني الاستغناء عنكِ، والتفكير مُجرّد التفكير في غيرك، يتألم قلبي وتدمعُ عيناي..

رُفِعت الأقلامُ وجفّت الصحفُ.

8

قاطعته بانتشاء وكأنها وُلِدت من جديد ونسيت كلّ ما كان منه:

- ولِمَ إذًا تتجدّد بيننا جبالُ الجليد في كلّ مرّةٍ.

أجابها بألم:

- الواقع.

سألته بدهشة:

- مؤسفٌ.. معاودة اللعب على وتيرة أعصابي.
- يا حبيبتي تذكّري معي.. الرّب.. دينكم عظيم.. إلخ إلخ..
- وماذا في كلّ هذا أبن لا تدعني مُشتتة هكذا.

تجتاحه كلّ الأفكار السوداوية التي وجدت في العالم، بات عاجزًا

عن إطفاء نارها، تمنّى القفزَ من جبل قاسيون الآن، لينتهي كلّ ذلك، غير أنه خاف عليها من بعده.

فكّر في كيفية تلقّيها الكلمتين اللتين سينطق بهما مُعذّرًا، وماذا سيكون رد فعلها؟

كلمتان.. يساويان حياته وحياتها.. وربما ما هو أكبر..

حُبّهُ وحبّها.. كلمتان عجيبتان.. قاتلتان.. هادمتان.. خلقتا من نار ودُخان.. لوّاحتان للبصر.. وللنظر.. وللقلب والشّريان والوتر..

ولكن لا بُدّ أن يقولهما مُتذكّرًا مِن جديد قول العرافة:

«الصدق، ثُمّ الصدق، ثمّ الصدق».

تمتم بصوت مُرتفع:

- الصدق ثُمّ الصدق، ثم الصدق.

استغربته، ونهرتهُ فقد بدأت في التململ وهددته غاضبة بإلقاء نفسها من هذا العلو لترتاح منه على إحدى الصخور المسنونة.

9

بعد برودة أعصابه واشتعال ثورتها.. نطق كلمتيه بوتيرة هامسة:

- أنا مسيحي، وأنتِ مُسلمة.

أصيبت بصمم رُبما من هول المفاجأة:

- أعِد ما قُلت.

بوتيرة جهورية مُنخفضة:

- أنا مسيحي.

للمرة الثانية تطلبُ الإعادة:

- أنا مسيحي.

للمرة الثالثة والأخيرة قبل أن تذهب في غيبوبة مؤقتة من هول

الصدمة، لكنها لم تطلبها منه شفاهة بل إشارة فقد انعقد لسانها كرقّاص الساعة الذي تعطّل عن العمل وأصيب ضجيجة بالموت.

حتى أن طلبها المُتكرر يُعدّ في حدّ ذاته دهشة، وكأنها لا تُريد أن تصدق ما قاله، أو يقوله.. ما كانت بالنسبة لها قبل لحظات مُجرّد شكوك لا محلّ لها من الصحة.

وبصوت جهوري مُرتفع يشوبه التردّد وكأنّهُ يُعلّم طالبًا علمَي الأصوات والعَروض.. قضى عليها:

- أنا.. مَا.. سِي.. حيٌّ.

(21)

1

الزمان: ليلة وصباح 26 فبراير/ شباط لعام 2011..

المكان: مدينة درعَا السورية وأعراشها ونواحيها..

شاعت في سورية وكثير من البُلدان العربية حالة من الفوضى الأمنية، نتيجة قُصور الرؤية المجتمعية والسياسية لدى الحكّام والحكومات والساسة. فأصبح الجهاز الأمني يعمل على حماية من تؤول إليه السُلطة فحسب وعائلته وكبار رجال الدول كما يُطلق عليهم دائمًا الصفوة وما هُم من الصفاء والنقاء في شيء، لتعمّ حالات من الفراغ الأمني المجتمعي، فكثُرت الجرائم التي تُهدد المواطن البسيط بشكل مُباشر وساد «الزعران». وظهرت مافيا تُعرف باسم «التجارة بالأعضاء البشرية»، ويغريهم على الخصوص ما عند الأطفال من نقاء وخلو من الأمراض وبكارة المناعة وحداثة العضو المرغوب فيه.

2

في ليلة الخامس والعشرين وصباح السادس والعشرين.. وتحديدًا في أعراش مدينة درعا أراد طفلان شقيقان، أن يُنفّثا عن نفسيهما قليلًا بالتنزه بعد يوم شاق من العمل في إحدى المزارع القريبة. فلم يذهبا إلى البيت مُباشرة وراحا يتجوّلان على الطريق السريع يفترشون الأرض فاردين كامل جسدهما المُتعب، ناظرين إلى السماء في هذا السواد

البوهيمي المُطعّم بأنوار جلال الكون من كواكب وأجرام ونجوم وشموس ألهبتهما بالراحة والسكون.

رسمت على وجهيهما ابتسامة أبدية لا يسرقها واقعهما المُعاش، وراحا يتهامسان حول مُشاغلة إحدى النجمات لكليهما، فقال أحدهما للآخر مُتسائلًا:

- «ليش هاي خيي نجمات يعني صبية، وإمّي بس تيجي تحكي إلنا قصص وهي عم تمشط شعراتنا.. تقول لكل واحدة منهن اسم رجال.. الدب القُطبي، سُهيل، كيف هيك يعني عن جد شي كتير كتير عجيب».

يضحكان معًا بصوتٍ جهوري يُحدث أصداءً على قارعة الطريق الخالي الذي لا يشاركهما فيه أحدٌ.. اللهم إلا الطيور والحيوانات السّاكنة في الأوكار والأعشاش، التي قامت مفزوعة من أحلى أحلامها على ثرثرة هذين الطفلين وكادت أن تطوّقهما منتقمة منهما، إلا أنّ حداثة السنّ جعلت الشفقة تتسلّل إلى قلوبها.. فاجتمعت من خلال نوافذها تشاهد هذين الأحمقين.. وتحتفل بالسمر مثلهما. وبعض الحافلات التي تمرُّ من حين لآخر ويتنبّهان عبرَ أضوائها الكاشفة البعيدة التي تقترب رويدًا رويدًا.. فيتدحرجان مُفترقين إلى داخل العريش كُلٌّ في اتجاه لحين رحيلها، ويعودان مُجدّدًا ليتشابكا بالأيدي ويلتصقا شقيقين متحابّين.

يردُّ عليه باستفهام مُشابه:

- «شو بعرفني خيي، متلك أنا ما رحت شي مدرسة ولا شي كُتّاب لحكيلك عن هاي النجمات ليش بنات ورجال، هلأ المهم إن السما كتير حلوة، ليش عن جد الأرض ما تكون حلوة هيك، ليش نحن صغار وعم نتعب كل ها الأد، ليش ما نروح نتعلم، ليش البَي

كتير تعبان من زمان، واليامو عم تشتغل متلنا لتربية كل الإخوة، ليش الناس ما عم تحب بعض وكل يوم في مَشكل ووو».

3

تضيع بهجتهما وتخفت ابتسامتها تدريجًا حتّى تنطفئ بنزولهما من باحة الكون السماوية والتجرّد منها سقوطًا إلى الأرض البائسة. يتفاجآن بسيّارة أطفأت مُحركها أمامهما، لم يلحظا أنوارها الكاشفة من بعيد، أو ربما شرودهما للحظة واختلاط الصراع الكوني فيهما قد فصلهما عن الواقع. نهضا من حالة الاسترخاء ووقفا على رجليهما ليجدا أمامهما عملاقين من الرجال، يلبسان المعاطف الجلدية الطويلة السوداء قد نزلا من السيارة. ابتسما لهما بمكرٍ، إذ شعرا أن بإمكانهما الهرب منهما فتفلت من بين أيديهما صفقة خيالية ما كانت على البال، فقد كانا مخمورين ولن يتمكنا من اللحاق بهما في حالة الركض.

فقال أحدُهما بدهاءٍ محاولًا استمالة الطفلين البريئين:

- لماذا تجلسان في هذه العتمة وحدكما، احمدا الله أننا لم ندهسكما بالسيّارة.

وأردفَ الآخر مُحبكًا الشراك ليوقعا بهما:

- هيّا تعالا معنا نوصلكما للبيت، الوقت متأخر وقد يخرج عليكما أي وحش من الغابات ويلتهم أحدكما أو كليكما.

أدخل الرعب في نفوسهما على الرغم من أنهما ليس غريبين عن تلك النواحي ويعلمان جيدًا أنه ما من وحوش بريّة في الأحراش التي صباحًا تعجّ بمزارعي الزيتون والفواكه، غير أن النعاس قد سيطرَ عليهما فاضطّرا أن يستجيبا لهما بكامل إرادتهما.

4

أجلساهما في المقاعد الخلفية، وأغلقا البابين إلكترونيًا من لوحة التحكّم الرئيسية في القيادة وكذلك النوافذ.

قدّما عصيرًا يحوي مُخدّرًا حتّى يُدخلاهما في نوبة تستمرُّ لساعاتٍ، غير أنّ القدر كان له اليدُ العُليا في الأمر، فواحدٌ قد استجابت معدته وشربَ العصير وغشيه النوم على الفور، فابتسما وقال عبر إشارات العيون:

- صبيّان في عُمر الزهور، بين العاشرة والخامسة عشرة، تخيّل كم ستساوي كليتاهما وقلباهما حين نبيعهما بالدولار.

الصبي الثاني لم تستجب مناعته لذلك العصير المغشوش بقلة الضمير وموت الإنسانية في هذين الرجلين القاتلين، فتفاعلت مع أمعائه لتطرُدَ محتوياته على الفور.. ليقذف ما في بطنهِ على قفا قائد السيّارة الذي اشتعل غيظًا وأبطأ قليلًا.. فتح الباب الخلفي المجاور للصبي الذي أنقذه الله منهما ورماه إلى الخارج بعنفٍ، وانطلق بأخيه مُكتفيًا بتلك الغنيمة.

5

استجمع الطفلُ المرمي قواهُ، إذ لم تكن إصابته بالغة اللهُمَّ بعض الخدوش في وجهه ويديه إثر خبطة بأسفلت الطريق وشجّة بالرأس مع إحدى الشجيرات. ظلّ يصرخ ويصيح فلم يُجبه أحد، ظلّ يركض لدقائق قطع فيهما بضع كيلومترات لعله بذلك يلحق بهما وينقذ أخاه منهما، غير أن السيف سبق العذل.

فكّر في أن يميل نحو إحدى الضِّيع المُضاءة على بُعد منه بعدما تجدّد الأمل في اللحاق بهما، لعل أحدًا يستجيب له. دخل مهرولًا

باتجاه هذا المكان يقفز من فوق بركٍ للماء وجسور من الأحجار، حتّى وجد نفسه أمام سور عالٍ من الحديد المُزبرج المدهون بالأسود، عاليه مصابيح خافته داخل كور زجاجية لم يشهدها من قبل. ظنّ لوهلة أنه أصبح خارج سورية. غير أنّ اليأس ما تسلّل إليه، وراح يبحث عن منفذ أو بوابة تجعله يمرّ إلى الداخل حيث سمع أصوات كلاب وزئير أسود. اعتقد أنه قسم للبوليس فازداد إصراره.

وصل أخيرًا إلى بوابة إلكترونية عملاقة مؤصدة تمامًا، لا تظهر ما في داخلها فقد كانت مكسوّة بزجاج كثيف السّماكة. هرول باتجاه آخر وبعد لحظات وجد بابًا صغيرًا من الحديد.. لا يتجاوز المترين طولًا والمترين عرضًا، دخل من خلاله ووجد نفسه في طرقة مُحاطة بالصفيح من كُل اتجاهاتها وكأنّها ماسورة ماء أو ممرٌّ عسكريٌّ في أحد الخنادق الحربية.

شعر بالخوف وبانقباض في قلبه.. تبدّدت خُطاه الجريئة وتبدّلت إلى خطواتٍ على رؤوس الأصابع، وبإحدى يديه كتم أنفاسه المرتعشة المتصارعة والمسرعة نتيجة ركضه قبل قليل. استندَ باليد الأخرى على قطعة عملاقة من الحديد.. جلسَ راكعًا يلتقطُ ما تبقّى له من شهيق وزفير، تحكّمَ في أعصابه، وبدا الممر الطويل مُضيئًا بعدما كان مُظلمًا.

6

وجد «كلودير» ماء، اختبر صلاحيته والكوب الموضوع في مجراه، اطمأنَ فشربَ ثلاثًا في هدوء وحمدَ الله كما علّمته أمُّه. واستمر في طريقه الذي لا يعرف متى سينتهي وإلى أين سيودي به الحال. حتّى مرّ على نافذة صغيره، ظنها للوهلة الأولى لوحة كهربائية فتجاوزها، وما إن فعل حتّى لمحَ أنها مواربة قليلًا فعاد..

شبّ على أطراف أصابعه ليتمكن من النظر خلال تلك الفتحة العمودية المُستطيلة فقد كانت النافذة أعلى منه ببضعة سنتيمترات. ليرى عالمًا غريبًا عليه، أطلّ على أصوات صاخبة استرق السمع على بعضها، ونساء عاريات بعضهن يسبحن في حمّام مُسطّح كبير لم يشهد مثله، وقد ظنّه للوهلة الأولى بحرًا، وبعضهن يجلسن على شاطئه، وأخريات إلى جوار رجال أو في حجورهم أو بين أحضانهم أو يُقدّمن له مشروبًا في كؤوس لألوان غريبة.. هي الخمور بكل أنواعها.

إنه حفلٌ بهيج أعدّه أحد كبار رجال الدولة، وذاك قصره المُشيّد على ربوة من الجمال الذي حباه الله لسورية.

7

فجأة وجده أحد الحُرّاس في كاميرا موضوعة بالممر الذي هو فيه، فأمسكه بعنف من كتفه.. واقتاده إلى حيث يجلس كبيرهم في الحفل.

صمتَ الجميع ونظروا إلى هذا الطفل الذي يرتدي ثيابًا رثّة مُتسخة مُرقّعة، لا شبيه لها إلا في أذهان بعض الحضور الذين مرّ عليهم مثل ذلك الولد عند إحدى إشارات المرور طالبًا بعض القوت الذي يُعينه وأهله على المعيشة عبر بيع الفل والياسمين أو المناديل الورقية، أو ماسحًا زجاج السيّارة الفارهة. وكالعادة كانوا يتأفّفون.. ويرفعون إلى أعلى زجاج نافذة الباب المجاور لهم بالضغط على الزر الأوتوماتيكي حتّى تُفتح الإشارة، ليصمّوا آذانهم.

بعضهم الآخر تذكّروا على الفور فيه طفولتهم حين كانوا فقراء مدقعين، قبل أن يدخلوا طريق الحرام، مستلهمين الحيل والنفاق والسرقات حتّى تحوّلوا أغنياء يُشار إليهم بالبنان.

نطقَ أحد الحضور بازدراء:

- أخرجوا هذا المتسوّل من هُنا.

وقال آخر مُستهزئًا:

- أو ألقوه في سلّة المُهملات.

وثالث ضاحكًا بسخرية:

- أو اقذفوا به إلى المسبح حتّى يتطهر.

وأردف رابع:

- أو يغرق.

وقال خامس مُستخفًا به:

- حرامٌ عليكم.. ألبسوه ثيابًا نظيفة، ولتكُن لراقصة خليعة كالتي تستعد الآن لتُحرّك شهوتنا بمفاتنها، واجعلوه يرقص لعلّنا نمنحه بعض الليرات فيغتني من وراء أفضالنا.

قال كبيرهم بينما هم يضحكون جميعًا وفي قمّة النشوة، وقد عانقت كأسُ كلّ منهم كأس الآخر على أصوات الزجاج المُرتطم برقّة:

- في صحتكم.. استمتعوا بوقتكم الثمين.. كلّ طلباتكم مُجابة وقد أحققها جميعًا إن شئتم.

8

شعر الصبي بالمهانة ونسي تمامًا من هو.. امّحت ذاكرته الإنسانية، حتّى ظنّ أنّ هؤلاءِ نزلاء الجحيم.

قال لهم متوسلًا وقد اغرورقت عيناه بالبُكاء مُتجاهلًا ما فعلوا، لأنه لا يريد إلا أخاه:

- هناكَ من خطف أخي قبل قليل، أما يُساعدني أحدكم في استعادته، والله يجازيكم خيرًا.

صمتوا لوهلةٍ، ما تحرّك فيهم ساكنٌ حتّى بنظرة الشفقة، ثمّ انفجروا

ضاحكين.

أشارَ عليهم كبيرهم بالتوقف، وطلب بإشارة من يده الثانية من الصبي أن يقترب.

فعل مُعتقدًا أنه سيعاونه على الخير، ولكن ما إن دنى منه حتّى صفعه بقوّة. تكسّرت بعض أسنانه ووقع أرضًا مرتطمًا بالرّخام اللامع وتُدبُّ رأسه ثلاث مرات، كالملاكم الذي يسقط على الحلبة بالضربة القاضية.

عاودوا الضحكَ كالشياطين.. ونهضَ الصبي مُجددًا وبرجولة وفحولة لا يملكها أيّ حاضر، قال مُستجديًا وهو يتألم بصوتٍ اغتالته الأحزان..

- أرجوكم، ساعدوني.. أمّي لا تملك مُعينًا غيري وغيره على العيش وتلبية احتياجات بيتنا المكوّن من عشرة أفراد.. أبوينا.. وست بنات.. وأنا وهو. أرجوكم، أقبّل أرجلكم أيها المحترمون.

نظرَ كبيرهم إلى أحد حُرّاسه الشخصيين، مُشيرًا إليه أن يرمي بهذا الولد المُتعفّن إلى الخارج خشية أن يُفسد عليهم بهجة سهرتهم الخاصة، على الرغم من أنه أضفى عليها لونًا جديدًا من الاستمتاع. ربما كانت هذه آخر رسالة سماوية لاستعادة إنسانيتهم والتوبة عن اقتراف مزيدٍ من الخطايا.

أمسكه الحارس من ثيابه عند موضع خصره، ثم حملهُ ومشى به نحو الخارج.

غير أنّ الطفل تشبّث بعمود إنارة حديدي قائم بمحاذاة سُلم يؤدي إلى حديقة القصر ثمّ إلى الخارج.

دفع بنفسه مُفلتًا من قبضة الحارس، وعاد إليهم.. جثا على ركبتيه..

ثمّ سجدَ أسفل قدمي كبيرهم، وأخذ يُقبّلهما تارة وينظر إليه أخرى لعلّه يستجيب ويحن قلبه الذي خُتم عليه بختم جهنم.

لم يستجب، بل ركله ليدفع به بعيدًا، وجميع الحضور، بلا استثناء، على الحالة نفسها من هيستريا الضحك.

9

ظنّ أخيرًا أن لا فائدة منهم فقرر أن ينتقم. كان في السابق قد تعلّم فن «الكونغ فو» من أحد السياح اليابانيين الذي أقام لأيام بناحية المزرعة التي يعمل فيها.

ساعده الآن هذا الفن القتالي رغم حداثة سنّة على أن يعاود الوقوف على قدميه كالأسد في قلب المعركة ليصيح بأصوات البدء في مُباراة تنافسية:

استكملوا سخريتهم منه، وغضب كبيرهم أكثر، وأمر حُرّاسه:

- هيا أخرجوا هذه الجرثومة الآن وعلى الفور، فقد أفسد ليلتنا.

اقترب أحدهم.. فضربه الغلامُ بطريقة احترافية في صدره ليسقط أرضًا.. وقعَ منه سلاحُه، فاستحوذ عليه بسُرعةٍ وخفّةٍ. وقبل أن يفرّغ محتوياته عليهم، بادر حارس آخر بإطلاق ذخيرة سلاحه عليه ليُرديه قتيلًا في الحال، على وقع تصفيق الجميع لذلك الرجل وكأنه قد قتل عدوًا في المعركة.

دخل على أصوات الرصاص مُسرعًا أحد الخدم، وهو الذي وارب الباب لهذا الممر الضيّق الذي نفذ منه الطفل، حين كان العُمّال يحملون صناديق الخمر المستقدمة حديثًا من الخارج.. إلى الداخل.

ركض نحوهُ دونَ أن يعرف شيئًا وحمله إلى صدره وحضنه، وظلّ يبكي وهو يمسح الدم المنهمر منه على وجهه. رويدًا رويدًا تعرّف إليه

فهو ابن جاره العزيز وصديق لأصغر أبنائه.

قال كبيرهم بعنف:

- هل تعرف هذه الجثة النتنة.

فكّر في أبنائه فردّ بالنُكران مومئًا برأسه.

أردف كبيرهم بقلة أدب:

- خُذ هذا وألقه في الزبالة الواقعة في حيّكم الوسخ. لا تلطخ حيّنا الراقي بدماء هذا الطفل النجس ورائحته.

ردّ عليه مجبورًا بأدبٍ جمٍّ وقلبه يعتصر ألمًا:

- حاضر.. أمرك سِيدنا.

واصلوا سهرتهم على وقع الراقصة الماجنة.. بينما كان الخادم يلف الصبي في جلبابه ويحمله مضمومًا إلى صدره، ويمضي به في عتمة الليل البهيم إلى أسرته.

10

قام الحي بأكمله على هذا المشهد المؤلم واستيقظ من نومه وغفلته وكان الوقت يقترب من الفجر.

صلّوا عليه صلاة الجنازة، وظلّ الجميع يسألونه عن الأسباب وعن الابن الثاني، خاصة أبوه وأمّه اللذان أصيبا بصدمة عصبية من هول ما شاهداه.

كان يردّ عليهما دائمًا:

- تجلّدا والزما الصمت، والله يعوّض عليكما. فما تعرضتما له قليل بالنسبة لما قد يقع لكما ولي لو تكّلمت.

ضغطا عليه وكل من كان في الحي الدرعي آنذاك، إلى أن حكى

لهما وقصّ كل ما حضره بأم عينه.

اشتعل غضب الأهل، وغضب الفقراء والمهمشين لتلك المُعاملة من أصحاب النفوذ والطبقات الأعلى منهم معشر الطبقة الدُنيا، واشتعل غضب من لا غضب له، وغضب المُستغلين والمُستنفعين من آفة الفتنة والمشكلات، وغضب الساسة والمُتشدّدين. وتجمّعت الأسباب كلّها في بوتقة واحدة، ليزداد الحشد والحشر ويضيق الحال بالناس كما لو كانوا في حيّز أضيق من عُنق الزجاجة.. تهيأت الأسباب لوقوع كل ذلك كما أشار صاحب نظرية النسبية أينشتاين:

«لكل فعل ردّ فعل، يوازيه في القوة أو يفوقه».

وكما قال ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع في مُقدمته الشهيرة:

«إنّ الظُلم مؤذنٌ بخرابِ العُمران».

وفي درعا وسورية وبلاد العرب عامة، خَرّب الظلم النفوس قبل العُمران.

11

في صبيحة السادس والعشرين من شباط/فبراير، خرجت مدينة درعا عن بكرة أبيها بعد أن كتبَ رفقاء هذا الطفل الشهيد البائس على الجُدران:

«جاك الدور يا دكتور».

وسُرعان ما أصبح الهتاف في كل ربوع سورية اللهمّ إلا القليل من مناطق المُستنفعين:

«الشعبُ يُريد إسقاط النظام».

لتنضمّ سورية بهذا السبب وبغيره كثير إلى قائمة الربيع العربي. وتشتعلُ الثورة المجيدة عند البعض، والمؤامرة الأكيدة عند الآخر!

(22)

1

في اليوم التالي لاندلاع الثورة، عاد العقادُ أبو ريما وابنه أحمدُ إلى أرض الوطن على أول طائرة، لجلب ريما وأمها إلى دبي، ولتزويج الابنة بأسرع وقتٍ ممكن من مُديره الإماراتي في العمل، وقد وقّعَ «شيكًا» على بياض لأجل هذا الأمر.

اجتمعت العائلة لمُناقشة هذا الموضوع عند الأخ الكبير الشيخ تيسير، الذي اشتعل غضبًا من جرّاء هذا القرار المُفاجئ، فردّ عليه أخوهُ الصغير العقّاد باستنكار:

- قرارٌ مفاجئ، ألا تشعر بما يُزلزل حولك في بقيّة المُدن السورية؟.. لا تحسب الهدوء الذي تشهده دمشق سيطول، فالورقة الواقعة في منتصف الكتاب حين تشتعل أطرافه سيلحق بها اللهيب لا محالة، طالت المدة أم قصُرت.

ردّ عليه بحزم مُظهرًا نواياه:

- أنتَ تخرق عاداتنا وأعرافنا.

رمقهُ بعجبٍ:

- لماذا يا أخي؟
- لأنَّ ما أنتَ مُقدمٌ عليه يعدُّ سابقة في تاريخ عائلتنا.
- أوضح، بارك الله فيك.
- زواج إحدى بناتنا من أجنبي ليس منّا فحسب.. بل من جنسية

أخرى غير بلادنا.

يُقهقه بربع علامة تعجُّبٍ:

- كلنا مُسلمون، ولا فرق إلا بالتقوى. ليس أنا من سيعلمك الدين يا أخي، وأنتَ حامل كتاب الله وإمام مسجد.

يغضب ويُبادر بالوقيعة بينهما:

- أتسخر من الكبير؟

يردّ عليه بهدوء وحكمة:

- بل أذكّر مُعلّمنا بحكمة طريق الهُدى والنور، والذكرى تنفع المؤمنين يا أخي.

يُفحمه، فيهدأ قليلًا وهو يتفكّر ويلعب بلحيته بسبابته ووسطاه.

يتدخلُ ابنهُ الشيخُ رضوانُ محاولًا توضيح ما عجزَ أبوه عنهُ:

- يا عم، يقول المثل العربي: «جحا أولى بلحم ثوره»..

وأنا أريد الزواج من ريما، هي منّي وأنا منها وليس هناك من يحافظ عليها أكثر من عائلة بيت أخيك.

قبل أن يُكمل عرضه، يقاطعه بغضب بعدما احمرّ واصفر وجهه الأبيض المدوّر ليصبح كالقمر «السوبر» وقت الخسوف:

- أولًا: ابنتي ليست بهيمة.

ثانيًا: أنا أولى بها لا أنتم.

ثالثًا: ألمسُ جبرًا.. محاولة لفرض رأيك، لا طلبًا بذوق.

يُشارك الأخ الأكبر مُجددًا:

- لكنّك بهذا تشقُ الصف وطاعة الكبير في العائلة الواحدة.

- كفّ عن تلك اللهجة يا أخي فهي لا تليق بك. ثمّ إنني لست أوّل ولا آخر من سيزوج بناته لغريب. العام المنصرم زوّجت ابنتك لخليجي.

اعترض عليه مُقاطعًا إياه:

- هذا شيخٌ جليل من ديننا ومذهبنا، من أهل مكّة، كما أن أباه من الحجاز وأمّه سورية.

- على كلٍّ قد خرقت أنت العُرف قبلي، فلم تُحرّم ما أحلّ اللهُ لي وتحلّله لنفسك؟

قال بعجبٍ في نفسه وبخيلاء الغرور:

- أنا الكبير وكلمتي مُطاعة.

بشبه سُخرية أجابه وابتسامة خافتة تعتلي ثغره:

- وأنا الصغير.. وتمرّدي وثورتي هما الأشمل والأفهم، فأنا شخص راديكالي، وأنتَ أصولي.

فتح الأب والابن فميهما من الدهشة:

- ماذا تعني تلك الكلمة؟ لم نفهمها.

ضحك ساخرًا:

- لا شيء مُجرّد مُزحة. إنه مصطلح يُمكنكم العثور عليه عبرَ أي مُحرّك بحث.

شعرا بالحرج، فيردُّ الشيخ تيسير:

- أتسخر منا وقد علمّناك وكبّرناك حتى ذهبت إلى دبي وكنزت المال وتعلمت فوق معرفتك، لتأتي الآن مُستهزئًا بنا.

- أتعيّرني؟

- بل أذكّرك.

- وأنا أذكّرك أيضًا أن هذا البيت الجميل من ثروتي وسفري.

ردّها عليه:

أتعيّرني؟

- بل أذكّرك، إن أفضالك رُدّت إليكَ أضعافًا مُضاعفة ولا أحد يملك

على الآخر إلا حُسن المُعاشرة وصلة الرحم، فإن قطعتها بتصرفك معي، قطعتها ولا أبالي. وإن وصلتها وصلتك وكنتُ أكثر منكَ كرمًا.

تدخّل أحمد العقاد:

- ما هكذا يا أبي ويا عمّي ويا ابن عمّي تُعالج الأمور، الوقت يمر والدنيا حولنا تشتعل. نُريد اتخاذ قرار يُرضي كلّ الأطراف.

ثُمّ لوّح بالعائد الذي سيدرّه هذا النسب على الجميع من رجل الأعمال الإماراتي الثري في حالة إتمامه.

أُعجب الشيخ تيسير بالفكرة لأنه يحب كنز المال، غير أن الابن رضوان تُسيطر عليه فكرة الزواج بابنة عمه وضمّها إلى حريمه.

2

ما هي إلا لحظات حتى سمعوا قرعًا قويًا على الباب الرئيسي للمنزل. فتح أحد الصغار، فدفعه الجنود الذين كانوا وقوفًا.. ودخلوا بسرعة فوجدوهم جميعًا في المضيفة.

أحد الجنود بصوت جهوري:

- بأمر من سيادة القائد الأعلى للجيش العربي السوري ورئيس الدولة حفظه الله، يتم تجنيد كل من دون الأربعين عامًا ومن هو فوق ذلك ويرغب في التطوّع للالتحاق بالثكنات العسكرية تحسبًا لمواجهة خطر الإرهابيين الذي يحدّق بالبلاد.

ردّ العقاد الذي انتفض من مكانه مُحاولًا الوقوف أمام ابنه الذي سيقع لا محالة بين أيديهم:

- كُلنا فداء للوطن.

الضابط بمكر شديد:

- نعلم أنكم موالون وطيبّون ومنتمون، فدعْ هذا الشاب يذهب معي برفق.

لم يستطع العقاد إخفاء غضبه ودهشته:

- لكن ابني أوشك على الأربعين ثمّ إنه قد أنهى خدمته العسكرية، وهو يعمل الآن خارج البلاد وجاء في إجازة قصيرة وسيعود.

الضابط بابتسامةٍ صفراء:

- ها أنتَ قُلت أوشك.. ثمّ إننا في حاجه إلى أمثاله من المُتدربين أصحاب الخبرة القتالية.

- ولكن..

لم يصبر عليه وقاطعه وأزاحه من طريقه وأمر الجنود أن يجرّوا أحمد العقاد، ثمّ نظر إلى وجه رضوان وقال بغضبٍ:

- وأنت أرني هويّتك.

بهدوء تام، وبثقة بالغة أخرج هويته وتحتها بطاقة انتمائه لفرع المُخابرات كونه مُخبرًا للعقيد س/ س.

أعادهما إليه وأعطاه رقمه الشخصي طالبًا منه ضرورة إبلاغه عن كلّ شباب الحي، وتعميم ذلك في المساجد التي يُشرفون عليها، ثمّ انصرف بكتيبته.

3

في لمح البصر أُغشي على الأم من هول المُفاجأة، وأُصيب الأب بالذهول وجلس يبكي بحرقة. ووقع العم وابنه في حيرة من أمريهما، أما ريما فكانت تحاول استجماع قوّة أمِّها لتوقظها خوفًا عليها من أن يكون قد حدث لها مكروهًا.

في وسط هذا البُركان الشعوري، تجرّد الشيخ رضوان من إحساسه ولم يُفكّر حتى في إخماد نيران عمّه المُشتعلة وأسرته المكلومة، وقال ببرودٍ مُنقطع النظير:

- هل رأيتَ بأمّ عينيك يا عم.. الوطن غالٍ جدًا علينا جميعًا وها هو أحمد الرائع يذهب دفاعًا عنه، وأنتَ بمنتهى اليُسر تُريد إهداء قطعة منا.. أثمن بكثير من كل كنوز الدُنيا إلى رجل غريب عنّا وهمومنا.

لم يردّ على كلامه من قريب أو بعيد، لا بسلب ولا إيجاب. لا بموافقته على ما يقول أو رفضه.

بعدما اطمأنت ريما على أمها وقد كانت تسترقُ السمع منذ اللحظات الأولى وباقي العائلة من خلف النوافذ حتّى لحظة اقتحام المنزل.. دخلت عليهم وانفجرت في عمِّها وابنهِ:

- إلى متى نبقى نحن المُستضعفات في أنظاركم كالبهائم.. غنائم تُقسّم برؤيتكم وتوزّع بأهوائكم كأننا دُمى حتى في الزواج. كأننا نذير شؤم عليكم، تريدون الخلاص منّا لمن له المصلحة العُليا بيد قويّكم، أو ذاك الذي سيدفع أكثر.

انهارت بُكاءً ونفسها في زاوية إلى جوارهم. حاول عمّها ضمَّها إليه، مُربّتًا كتفها واستيعاب حنقها عليهم، غير أنها أبعدته عنها.

توجّه إليها أبوها وضمها إلى صدره فاستجابت، إذ إنّه الملجأ الوحيد أمامها الآن:

- مصابُكِ في أخيكِ، مصابي، وحزنك على نفسك حُزني.

استغل الفُرصة الشيخ تيسير محاولًا أن يجعلها مواتية له ولابنه،

أو له فقط بما سيجني من صفقة زواجها من الغريب في حال لم تكن لرضوان، ففي الحالتين هو المُستفيد. حثّ أخيه على التفكير مليًّا واعتبار ما بينهما قبل اتخاذ القرار.

(23)

1

تحوّلت المنابرُ ومآذنُها في ربوع سورية كافة إلى بوتقةٍ للحشد والتراشق اللفظي والفتنة.

لأوّل مرة مُنذ قرون زمنية خرجت الآهات المكنونة والتربُّص الدفين بكل فريق ومذهب الآخر وديانته إلى العلن.

فالعلوي ضدّ السّني وكلاهما في تحفّظ من المسيحي، والأخيرُ يتحفزّ لهما.. الكردي لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.. يسعى دفاعًا على عِرقه ونيل استقلاله.

كلُّ معسكر فيه من يوالي النظام ومن يقف ضدّ ظلمه، وهناك المُتردّد والمُستغني والمُخرّب والذي يحاول البناء. هناك الشباب الباحث عن المُستقبل بطاقة النور والنقاء اللذين يحملهما بوفاء لوطنه المُتكسِّر على أعتاب السُلطة والنفوذ والحماقة.

2

وانقسم البلد إلى بلاد، والبيت الواحد إلى بيوت، والجيش العربي السوري، إلى جيشين، ثانيهما.. الحُرُّ.

ومن النظام انفجرَ.. «الشبيحة». ومن المُعارضة وجيشها.. جيش النصرة. ثُمّ الهالِكة المُهلكة.. داعش. ووقعت البلادُ كلّها في حيص بيص.

3

اجتمع الصديقان أخيرًا باسم مارديني ومازن زيدان على مقهى الكُردي نورس أبي لؤي. وتغيّب العقيد م/م «المهندس إياد» الذي انشق عن الجيش العربي السوري لينضمّ إلى الجيش الحُر. وكذلك العقيد س/س الذي كان مُنشغلًا بكيفية السيطرة على الفورات المُندلعة بتطور في كل أنحاء البلاد. أيضًا تغيّب الشيخان: تيسيرُ وابنُهُ رضوان. فيما حضرَ على مضض الشيخ الإسكافي مُكتفيًّا بسماع نشرات الأخبار في الراديو الذي كان يحمله دائمًا معه.

دارَ حديثٌ مُلتهبٌ بين الصديقين:

- باسم، ماذا ستفعلُ بشأن حبيبتك؟
- الفُراق موجع.. واحترام كلانا للآخر سيّد الموقف.
- أتتركها إذًا لذلك العميل المُخبر.
- عمّن تتحدث يا مازن؟
- ابن عمّها هذا الشيخ رضوان.
- ما به؟
- أظنّهُ هو الذي كان مُحتجزًا معي في فرع المُخابرات. ظلّ صوته يرنُّ في أذنيّ حتى ميّزته وتأكدتُ من ذلك في آخر لقاء جمعنا هُنا.

- إنّ ما تقوله لخطير، لكنّهُ أيضًا غير مؤكد، ولا تأخذ بالشبهة فتضيع متهورًا.

- الحياة من حولنا أصبحت غريبة، من المؤكد أنه يعرف الكثير، حتّى عن صوفيا.

قهقه باسم مارديني، فرمقه مازن مُتعجبًا:

- ما الذي أضحكك، هلّم إليّ به فأنا بحاجه إلى شيء من السعادة.

- لا أحبّذ لك ذلك، إنما من سخرية الأقدار والألم المُعتصر في قلبي.
- لِمَ؟
- هل رأيتَ يا صديقي، تُحبُّ مسيحية، وأنتَ مُسلم. وأحبُّ مُسلمة وأنا مسيحي، ويعيش كلانا مُعذّبًا. لِمَ لَمْ يخطّ القدرَ مصيرًا غير هذا؟

صدّق على قوله وسأله باندهاش:

- مثل ماذا، أكنت تريد أن يتمّ الأمر.
- أين ذكاؤك يا صديقي؟ بل لماذا لم يحدث العكس: أنا أحب صوفيا وتحبّني، وتذوب عشقًا في ريما وتذوبُ فيكَ. وبهذا تُصبح المسألة عادلة، وما كنّا لنشقى ونعذّب بالمحبّة.. الشيء الذي يجب أن يكون لنا عونًا وسندًا ضدّ أزمات الدنيا ويعيننا ونرتاح فيه، لا أن نموت ببطءٍ.

يتنهدان معًا ويقول له مازن محاولًا التخفيف عنه:

- ما وقع.. وقع يا صديقي، تلك هي الحياة، ماذا نفعل؟

4

سادت لحظة صمت كسرها الشيخ الإسكافي الذي كان يستمع للراديو.. بصوتٍ جهوري:

- الله أكبر.. الجيشُ الحُر يُحرّر بعض المناطِق.

نهرهُ الصديقان، فهما على الحياد لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، كحال جُلّ المُثقفين السوريين:

- اخفض صوتكَ يا شيخنا، ألا تخشى بطش النظام وبصّاصيه؟ لِمَ انقلبت عليه فجأة بعدما كُنتَ من المُسبّحين له والساجدين ليل

نهار.

باسمُ بنصفِ ضحكةٍ مؤلمة:

- أم أنهُ قانون الشعبوية.. لأنّ العلويين يُنسبون إلى الشيعة وأنتَ سُنيٌّ لذا انقلبت.

قاطعه بُعنف:

- لا ليس لهذا، إنما لانتشار الظُلم.
- وهل الظلم واقع على السنّة فحسب؟

شاركهما مازن:

- صدقتَ يا صديقي، إن البطش يطال الجميع، والحكّام لا يفرّقون بين سُنيّ وشيعي ولا مسيحي وكردي ولا حتى يهودي وشيوعي.

5

تجاهل قولهما وتابع نشرة الأخبار. بعد لحظات دخلت قوى أمنية وقبضت عليه دون أي رد فعل منه.

حزن الصديقان كثيرًا وقال مازن لباسم بُحرقة:

- أرأيتَ إلامَ صار إليه حالنا؟
- فليجرنا الربُّ مما هو قادم يا صديقي.
- لم أكن أتخيّل في حياتي أن تتحول سورية إلى هذا البركان.
- صدقتَ، أنا أشعر وكأن كابوسًا قد سيطرَ على ملاك النوم، وأخذ يُقرر عنه أنواع الأحلام.
- لكن كلّها قتل ودماء ودمار وفتنة.
- دعكَ من هذا، أما من أخبار عن صوفيا؟

قطع حديثهما نورسُ أبو لؤي، على رسالة خطّية من العقيد م/م. وقبل أن يقوما بفتحها قال بحُزن وهو على عُجالة من أمره:

- أعتذر منكما فأنا مُضطرّ لأغلاق المقهى.

انزعجا وسألاه على لسان واحد مُتعجبين:

- لِمَ؟

- لقد بعتهُ لرجُل من حلب ولا أدري متى سيتم فتحه مُجددًا. وأنا سأتوجّه إلى عين العرب «كوباني»، تلك البلدة الحدودية تعدّ آمن المناطق الآن في مثل هذه الأجواء، كما أنّ كلّ سُكّانها من الكُردِ ولن يضرني هناك أحد.

6

احتضنهما بقوّة، فأخرجا ما فيه النصيب من النقود وأعطياه إياها.. مشيا على مهل في سوق الحميدية المُغلقة أغلب دكاكينها، والذي أصبحت حركة الناس فيها شبه معدومة بعدما كانت تعج بالزحام من كل الجنسيات. اعتصر قلبيهما الحزنُ، أسفًا على حال البلاد والعِباد.

قرر مازن قراءة الرسالة بعد خروجهما من السوق:

- «أنا المهندس إياد، وهذا ليس اسمي الحقيقي، بل لن أفصح عنه لكم. على العموم اسمي الحركي هو العقيد م/م، من أحد الفروع الاستخباراتية. في تلك اللحظة التي تقرؤون فيها خطابي هذا، أكونُ قد انضممت للجيش السوري الحُر.

لعلّ قراري هذا هو الأصوب في حياتي، ولأجل غلق صفحة الماضي التي شابها كثير من الظُلم والعوار، لنفسي ولغيري، ولأنّ ضميري ما زال فيه بعض اليقظة.

أيًّا من كان من يقرأ هذا الخطاب من رفقتنا السعيدة، فليعلم صديقي الشاعر العزيز مازن.. أن هناك في فرع المُخابرات زميلي وصديقكم المُزيّف أيضًا.. أيوب المزيّن، والذي يُعرف باسم العقيد س/س،

واسمه بالكامل «سامر سامي عبد اللطيف»، وهو أحقر المخلوقات التي عرفتها في حياتي.

بالمناسبة هو من كان يتجسّس عليك يا مازن، وأفسد عليك حُبّك بصوفيا. حبيبتك الآن بين يديه، تعيش معه كعاهرة فقد لوّثها.

سامحوني، أعرف أن الذنب عظيم بالتستر على كل هذا، ولكن هُناك حكمة تقول: «أن تصل مُتأخرًا خيرٌ من أن لا تصل أبدًا». فإذا ما رأيتموه اقتلوه، وهاكم عناوين تواجده ومواعيد إقامته فيها بالكامل...، فمثل هؤلاء سبب الخراب الذي أوقع البلاد لتنهار به».

أُصيبا بالصدمة والحيرة من كلّ الحقائق التي وقعت بين أيديهم. افترقا مودعًا كلٌّ منهما الآخر، فمازن ذاهب إلى حيث يشفي غليله وباسم قررَ وبقوةٍ أن يذهب إلى بيت ريما ويتقدّم لها ويحظى بها أيًّا تكن النتائج.

7

وصل إلى حارتها العتيقة، وما إن اقترب من منزلها الدمشقي الأموي الأنيق، حتّى وجدَ الباب مُشرعا ولقي على عتباته كثيرًا من النساء والرجال.. المُتّشحين بالثياب السود.

لم ينتظر حتى تُجيبه الهلاوس على هذا ولا أن تشفي حيرته وفضوله، وخاف عليها فقرّر سؤال أحدهم:

- ما الذي وقع لأهل هذا البيت؟

لم يجبه بما أراد:

- مصابهم كبير.. لله ما أعطى ولله ما أخذ.

ثمّ ضرب الرجل أخماسًا في أسداس وانصرف من أمامه.

بضع خطوات والتقى ريما في ملابس الحُزن، وعلى الرغم من

شحوب وجهها وكآبة المشهد، غير أنها كالعادة حلوة حلاوة العسل.

ارتجفت، وكان في يدها كأس ماء وضعتها على شبّاكٍ واقع إلى يمينها، وراحت تتأمله بشوقٍ وشغفٍ، وكثير من البوح في داخلها إليه.. شكر الرَّب على رؤيتها سالمة، وما إن اقترب منها وهمّ بالحديث، وما إن دنت منه وتضاءلت المسافة «دائمة البعد» بينهما، حتى خرج من غُرفة المضيفة الشيخُ رضوان!

لم يلحظ شيئًا عليهما إذ إنه لا يعرف قصة حبهما أصلًا. لم يظنّ غير أن صديقه باسم قد علم بالمصاب الجلل الذي وقع لعائلة العقاد الحدّاد وجاء ليُعزّي.

انصرفت، تقدّم قدمًا وتؤخر أخرى، وغابت عن ناظريه. أخذهُ رضوان من يديه وأجلسه إلى جواره مع بقيّة الناس، وبدآ يتهامسان:

- شكرًا لحضورك العزيز عليّ سيّد باسم.
- الشكر للرب، لكن ما الذي وقع؟
- فجأة جاء لعمّي العقاد رحمه الله اتصالٌ من الجيش العربي السوري، يبلغنا بأنّ أحمد العقاد ابن عمّي الغالي قد استشهد برصاص الغدر من الإرهابيين على الحواجز الأمنية.

عقدت الدهشةُ فم باسم. أراد سؤاله عن إطلاق لفظة «رحمه الله» على عمه. ما دام ابن عمه من مات فلماذا يُرددها على الأول، لكنه لا يملك إلا أن يبقى منصتًا..

- بعد ذلك توجّه المغفور له إلى هُناك مُسرعًا دون إخبارنا ومعه السيدة أم أحمد رحمها الله وطيّب ثراها.. ازدادت حيرة باسم ودهشته، لكنّه أيضًا فضّل الاستماع حتى آخر الحديث».
- وأثناء عودتهما بجثمان ابن عمّي الراحل، انفجرت الحافلة العسكرية التي كانت تقلهما وجثّة الشهيد، فاستشهد عمّي وزوجته

وبعض الجنود المرافقين لهما، ليصعدوا جميعًا إلى السماء وتبقى ابنة عمّي الفاضلة ريما وحدها هُنا.

يتنهدان من الألم وهول الصدمة، وتسود حالة صمت بينهما يكسرها باسم:

- رحمة الله عليهم، والعمر الطويل لكم.

انسحب في هدوء مُعتذرًا مُتعلّلًا بالحُزن وأنه لا يستطيع تحمّل نتيجة تلك القصة المأساوية، غير أنه أراد أيضًا أن يحاول جمع شتات ريما ومواساتها.

8

لم يتم لهُ الأمر.. ظلّ يهاتفها.. هاتفها كان مُغلقًا، ظلّ يحاول لعله يتمكّن من تغيير مسار الحياة بينهما، فهي لم تعرف نيته أو تقرأها من خلال نظرات عينيه التي كانت تعبّر عن شوقه لها لكنها لم تفطن إلى قراره بالارتباط بها وإلا لارتمت في أحضانه.

ظنّت هي أيضًا أنه جاء مُعزيًا، وأصبح بالضرورة الآن راغبًا في مُحادثتها، خاصة أنه كان على علم بالضغوط التي كانت تُمارس عليها من ابن عمّها، الذي باتت الساحة له خالية ولن يمنعه أحدٌ عن الفتك بعذريتها بصورة زواج، وتعذيب روحها وسجنها في عقد نكاح.

نادى عليها بصوت خفيض.. ثمّ مُرتفع.. ثمّ جهوري.. فلم تسمعه، إذ كان النحيب والبُكاء والصُراخ من نساء عائلتها والجيران على الراحلين أعلى بكثير من صوته.

وجدَ بقايا المزهرية التي كانت تملكها أمها وتضع فيها الريحان، وقد روت له ريما كيف كسّرتها مؤخرًا. أخرج قلمه الإنجليزي المُعاصر،

وورقة صفراء من دفتر مُفكرته الصغير، وكتب عليها مُستندًا على الجدار المُطرّز بالصفصاف والياسمين الذابل حُزنًا على أهل الدار:

«لاقني غدًا للأهمية القصوى، كعادتنا بعد شروق شمسنا، عند باب توما».

ثمّ وضعها داخل المزهرية التي اعتقد أنها ستعتني بها لأنها من بقايا أمها وستعثر على رسالته، وبخطوات بطيئة حزينة، أخرج هاتفه وكتب النصّ نفسه وأرسله إلى صندوق بريدها الإلكتروني و«الفيس بوك» وهاتفها النقال. خرجَ من باب الدار.. باكيًا على أصوات وأوجاع حبيبته ونساء الحي.

(24)

1

عاد إلى مكان إقامتهِ غير الدائم على شاطىء اللاذقيّة مُجددًا، بهوية مُختلفة هذه المرة عن هويته العسكرية. فقد أخبرهُ قائدهُ في المُخابرات بأن عليه التغيّب عن الأنظار في تلك الفترة، لوصول معلومات إليه أنه مُستهدف، وأنّ كُثرًا هُم الذين يرغبونَ في الانتقام منه نتيجة جرائمه المُتعددة والكارثية.

ولأوّلِ مرّةٍ في حياته بدا خائفًا متوترًا، فقد سحب الفرع منه الضباط والمُخبرين العاملين معه والذين يُكلفهم بحراسته جبرًا، بمعنى أنه أصبح مُستبعدًا من الخدمة وموقوفًا قيد التحقيق.

قام بجرّ كُرسيٍّ من «مندرة الشاليه» حفر في الرمل خطوطًا مُتعرجة ومُستقيمة. استغرق في مشيه بضع دقائق على الرغم من أنّ الشاطئ لا يتجاوز بُعده عنه عشرينَ مترًا.

2

ما إن وصل إلى جوارها، طالعها باستغراب وقال بعجبٍ:

- قبل أيام تركتُكِ على هذه الحالة.. شاردة، لا نائمة ولا مُستيقظة، تُشبهين المجروح بآلة حادة، شُلّت حركته فاستسلم للموت.

تجاهلته واستمرت في سكونها، لكنَّهُ بعدما جلس على خطٍّ موازٍ لها محاولًا تقليدها استدار إليها ونحّى عن رأسها قبعتها التي كانت

تسند بها شعرها الأصفر الحريري المُنسدل كي لا يطير، فطارت هي.
رمقتهُ بغيظ:

- ألن تكفّ عنّي تلك الحركات الشيطانية الطفولية؟

ثمّ قامت إليها مُهرولة برشاقة جسدها الذهبي الأنيق، وقبل أن تأخذها الريح إلى أطراف البحر ويغمرها الماء.. استعادتها، وعادت إلى مقعدها المصنوع من جريدِ النخلِ.

3

وضع جهازه اللاسلكي على الطاولة المُستديرة الفاصلة بينهما، ورجع إلى الخلف مُرتاحًا داخل الكُرسي، مُتنهدًا بوجعٍ، ثمّ صاحَ بآهاتٍ مُتقطعة الأنغام.

لم تحفل بما فعل ولم يُحرّك فيها ساكنًا. فقط أمسكت «الإم بي ثري» ووضعت سمّاعتها البيضاء الأنيقة واستمتعت ببعض الموسيقى المُهدئة للأعصاب.

استفزته كثيرًا بتلك الفعلة.. أخذ يتأفف.. ثُمّ سكن على وقع تقرير أمني في جهازه اللاسلكي الذي تناوله عن الطاولة مُجددًا..

«تتوالى سقوط الضيع والمُدن السورية بأيدي المُخرّبين! غير أنّ الجيش العربي السوري يواصل دحرَ هؤلاء المُتآمرين».

عبث بوجهه وابتسم في آن.. توتّرت أعصابه وارتجفت يداه فوقع منه الجهاز أرضًا.. من حظهِ العثر أنهُ سقطَ على صخرةٍ صَلدة فانكسر نصفين.. تناوله وظلّ يُقلبه يمينًا ويسارًا لإصلاحهِ وهو يُكفكفه برفق.

لمحت حيرته وجنونه، فأرادت أن تزيدهُ..

كان على الطاولة راديو صغير تستعين به أوقات انقطاع الكهرباء عندما لا تتمكّن من شحن جهاز الموسيقى.. قامت بتشغيله على محطة

تابعة للثورة السورية لتغيظه:

«وتتوالى انتصارات الجيش الحُر، جيش الثورة السورية المجيد، هلّموا يا ثوار تلك أيام الله في جنته سورية».

4

قرض أظفاره لعدم قدرته على تمكين ثباته الانفعالي الذي تلاشى.

حلّت أخيرًا فرصتها الذهبية للتلاعب به.

- اهدأ، ما بكَ؟

ردّ عليها بفتور:

- وكأنّ شيئًا لم يقع في تلك الدنيا.

ردّت عليه بتوهج في فكرها وسكون في نفسها:

- لا فرق عندي، إن قامت الدنيا أو قعدت.. إن تحوّل هذا اليم صحراء، أو مُستنقع وباء.
- لكنكِ لا تعرفين شيئًا، ما تسمعينه في الأخبار مُجرّد سحابة صيف وتمُر.
- يا الله، الناس انقطعوا من حولي، وأصبح الشاطئ الذي كان يعجّ بالزائرين ليل نهار، صيفًا وشتاء، خاويًا على عروشه، مهجورًا وكأننا في القبور.. ويقول لي لم يحدث شيء في الخارج! إنكَ حقًا أكبر مُكابر رأيته في حياتي.

يُصرُّ على رأيه جهرًا، ويُسرُّ في نفسه:

«والله صدقت هذه الملعونة.. كلّ شيء يضيع».

- سأوافق جدلًا أن كلّ شيء ينتهي، لكن نحن أيضًا سنتبخّر. فمن أين لكِ بكل هذه القوة على الجلد واعتبار أنّ الأمور كلها غير مهمّة عندك؟

تضحك برقّة وتُجيبه بإسهاب:

- أتعرفُ ماذا يعني هذا البحر يا سامر سامي.

يثور عليها ويُقاطعها:

- كيفَ تجرأتِ على نطق اسمي صراحًا دونَ مُناداتي بلقبي العسكري.. أنا العقيد س/ س، أيتها العاهرة.

تواصل إسهابا دون أن تعبأ بهلوساته:

- البحرُ.. ماءٌ.. ونارٌ.. وريحٌ.. وتُرابُ.. ومِلحٌ.. ومخلوقات اللهُ وحدهُ يعلمُ عددها وغرائبها..

ككلّ شيء في الطبيعة.. حتّى أنا وأنتَ تكوّنا من عناصر الحياة تلك. إلا أنّه أصبح بوسع المدى مفتوحًا..

يملكُ قلبًا حانيًا.. ترتاحُ فيه النفوس العابرة وتصفو.

ويدًا أمينة.. ترحلُ بالزائرين إلى منفاهم أو ملقاهم أو مثواهم الأخير.

وسيفًا قاطعًا.. يبطش بأشرعة المتجبّرين والقراصنة.

تخيّل أنّ هذا اليم إنسان؟ لِمَ علينا أن نتخيل، هو إنسانٌ حقًا. يثور.. يهدأ.. يَظلِمُ.. يُظلَم.. يُنيرُ.. أو يعتمُ وتسكنهُ الأشباح..

6

تصمت للحظات وتشرد، وهو يستمع لها بدهشةٍ، وتتشكل في داخله مشاعر مُختلطة كصلصال ساخن، فتسأله مُبتسمة..

- السيد العقيد المُبجّل الإمبراطور السلطان الملك.. كل ألقاب الدنيا.. هل جرّبت يومًا أن تكون إنسانًا؟

لأوّل مرَّةٍ في حياته المُتجبّرة، يبكي..

ولكن عينيه تعكسان شيئًا غامضًا فتسأله مُجددًا..

- أيبكي الوحش الكاسر؟ تُرى على نفسك أم على ضحاياك؟ أم أنّ فطرتك النقية قد تحررت من الأسر؟ أتوبة أم بطشة جديدة؟

يمسح دموعه في كمّه سريعًا، ويقول بكبرٍ:

- لقد ذُلّت نفسي كثيرًا.. تلك التي كانت تُدخل الرعبَ في نفوس أعتى رجال البلد.

ضحكت ساخرة ولم تُعقّب. فسألها التأدّب وأن لا تختبر صبره.

تقول بعجبٍ من حاله:

- على امتداد هذا الموج وفي قاع البحر.. الآن تسكن سمكة قرش صغيرة.. وسط قطيع من الأسماك الصُّغرى. والجميع يهابونها ويختبئون في كهوف العُمق، حتّى المحار والقناديل بل والقواقع يتجنّبونها، وهي تمشي أمامهم بخُيلاء مزهوة في نفسها.

تظن أن تلك الكهوف المُضاءة بالمحبة، وعبر ثقوبها وداخلها يرتجفون رعبًا ناظرين من خلفها كالبصّاصين خوفًا من بطشها. والحقيقة أن كل الكائنات الأخرى مُرتاحة الآن ويلهو كلٌّ منها مع زوجه.

حتّى أن هذا الغرور سيقود سمكة القرش تلك إلى الهلاك حين تظن أنها ملكت كل شيء. ويطلع عليها نهار بحري وتجد نفسها مُحاطة بفصيلة أقوى منها، ووقتئذٍ لا مناص للعودة أو الرحمة أو حتّى التوبة.

يُقاطعها ويبطش بجهازه اللاسلكي الذي لم يعُد صالحًا، ضاربًا إياه بالطاولة التي كادت أن تُكسر:

- تبًّا لكَ من جهاز عقيم، اذهب إلى الجحيم، فأنا لا أريدُ سَمَاعَ شيء. وأنتِ لا تتفلسفي عليّ.

تقول برغبة مُلحّة في مُفارقة جلسته:

- تلك ليست فلسفة، بل أحاول أن أعرّيك أمام نفسك لتعلم أننا لا نساوي شيئًا أمام عظمة المخلوقات الأخرى، وأنه قانون يسري

مكتوبٌ في قُرآنكم.

﴿... وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ...﴾ [آل عمران، الآية: 140].

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن، الآية: 26].

لا شيء يبقى على حاله، الخالقُ هو وحدهُ المُسيطر. آه.. نسيت أنكَ لا تقرأ القرآن.

شتمها بألفاظ نابية، وبعد أن انتهت تلك الوصلة الساقطة قال بكبر:

- لا تتحدثي عن قرآني أو إنجيلك. أنتِ مُجرّد عاهرة، وستظلّين كذلك.

وبُعنفٍ زعق فيها:

- قومي واصنعي لي فنجان قهوة.

اندهشت وقالت باستغراب:

- لأوّل مرة تطلب مني صناعة القهوة دون أن تقف فوق رأسي. فأنتَ تشكّ في نفسك، وثقتك معدومة في الجميع.

قال بهدوء:

- احرصي على أن تكون خالية من السُّكر، فمرارة الواقع تُضيّع طعمَ الحلاوة من فمي.

7

ذهبت وعادت بعد دقائق لتجلس مكانها، وتقول ساخرة:

- ألا يوجد حتّى كلمة شُكر واحدة على إعدادي ما سيقيم حصون مزاجك مُجددًا.

شكرها بقرفٍ متلذّذًا بالقهوة:

- شُكرًا شكرًا، يا روح أمك المُقدسة.

وسألها ساخرًا:

- أخبريني، لماذا في أفلام الرعب الأمريكية تخرجون دائمًا الصليب للوحش فيخاف، وأحيانًا لا يرتدع؟ إنه أمرٌ يُحيّرني كثيرًا.

ردّت عليه باشمئزاز:

- لا تكُن رخيصًا إلى هذا الحدّ، دع الأديان وشأنها، ثمّ إن أمريكا أساءت للمسيحين وللسيد المسيح بتلك الأفكار، فاذهب واسأل هوليود ولا تسألني.

ساد الصمت بينهما نصف دقيقة ثمّ جذب انتباهه خازوقٌ من الحديد مُنتصبًا باستقامة أمامهما بالقُرب من الشاطئ فسألها:

- أوّل مرة أرى هذا الخازوق هُنا.

أجابته بضحكة ماكرة:

- دقَّهُ بُعمقٍ قبل أيام ربّان إحدى السفن العملاقة قبل رحيلهم.

صدّقها ولم يلتفت إلى كلامها، رغم عدم دقّته.. كَوْن الشاطئ يعدُّ ملكية خاصة وليس ميناءً ترسو فيه السفن التُجارية أو السياحية، ثمّ قال ساردًا عليها:

- أسمعتِ بسليمان الحلبي الذي أعدمته السُلطات الفرنسية بمصر على مثل هذا الخازوق.

من المؤكد أن واحدة مثلك جاهلة كيف لها أن تعرف بمثل هذه القصص من التاريخ، على كل حال ها أنا أخبرتك، وقد كان سوريًا وسافر الأحمق للجهاد، كما ظنّ، لمُحاربة الاحتلال.

ردّت عليه بمكر:

- قصة جميلة.

ثم قالت في سرّها:

«أعجبتني الفكرة كثيرًا. كُنتُ أبحث عن طريقة لقتلكَ أيها الشيطان».

8

لحظات وبدأ يشعر بثقل في رأسه، وراح يُتمتم بكلمات غير مفهومة. لسانه ثقيل لا يقوى على نطق الكلمات كاملة، كالسكر أو أشدّ وطأة كانت القهوة عليه. قال وهو لا يكاد يملك عشرة بالمئة من طاقته، وقد راح الكون في نظره يتحوّل أكوانًا عدّة والشمس المائلة للغروب ثلاثًا أو أربعًا، والبحر بحرين:

- ماذا جرى؟

ردّت عليه بثقةٍ واتزان وانتشاء:

- رملُ البُنّ حملَ خلاصك.

- مم صنعتِه؟

- مِن طلاسم وأسرار الأبدية.

وقعَ الفنجان من يديه أو ربما هو الذي أوقعه بعد ارتعاشة يديه وارتجافة جسده، أمسك بطنه بكلتا يديه.

قهقهت بمزاج وأردفت تُعنّفه:

- أيها الأحمق لم أضع لكَ سُمًّا لتمسك معدتك، فتلك أوهام نفسيه، ذُق ما أذقته للناس من تعذيب، ومما سببته لهم من أمراض.

ردّ بحيرة:

- ماذا وضعتِ إذًا؟

ردّت بفرح ثُمّ بتهجئة الحروف:

- الأحرى بك أن تمسك رأسك الشيطاني فسوف يتساقط بعد لحظات.

وضعتُ لكَ: مُ خَ دِّ رًا

وبالفعل أمسك رأسه وانتصب مكانه وأخذ يترنّح.. أطاح بالأشياء.. الطاولة الشمسية.. مقعده ومقعدها.

قامت مُنتصبة وظلّت تشاهدهُ بتشفٍّ واضعة يديها في جيب «شورتها» الجينز القصير، وابتسامة راحة وسعادة تعلو وجهها.

قال كآخر كلمات له قبل أن يسقط أرضًا جُثةً هامدة:

- اقتليني برحمة.

ردّت عليه بحنقٍ:

- لم ترحم حتّى تُرحم. كُنتُ أريد قتلك بسكينة وأقطّع شرايينك.. أو أغرقك في البحر.. أو أحرق جسدك..

ردّ عليها بدهاءٍ محاولًا إثارة شفقتها:

- كُنت غبيًا وأتوب الآن.

وأضمر في نفسه:

«لماذا جعلتها تصنع القهوة دون أن أشهدها بنفسي».

شعرتْ بما أسرّ فقالت ساخرة منه:

- أنتَ لستَ أحمق فحسب، بل أخرق أيضًا. ولا تفقه شيئًا على الإطلاق في ديمومة الحياة، وعجلة الأقدار وكتابها الثمين.

عند أهل الخير: لكلّ جواد كبوة..

وعند أهل الشر: لا بدّ أن تأتي لحظة سقوطك، وقد أتت.

قهوة أبدية هنيئة لكَ أيها الشيطان.

لن أفعل مثلك وأخيّرك في الموت.

فقط أقول لكَ بما أضمرتُ..

قصتك جميلة وأعجبتني فكرة الحلبي وستموتُ مثله.

ألقاكَ في الجحيم أيها اللئيم.

سمع تلك الكلمات النازلة عليه كصاعقة، وبعدما كانت صورتها أمامه ألف صورة، تغيب عن ناظريه نهائيًا وتُقفل أحداقه صفحته في الحياة الغَرور، وبما قدّمت يداهُ يلقى مصيره.

9

أتت بحبال رتبتها من قبل، ربطت يديه وأقدامه بإحكام، ووضعت شريطًا لاصقًا على فمه. احتاطت فلربما يكون هذا المُخدّر مغشوشًا كحال أكثر الأدوية، ولربما يقوم قبل ساعتين فيتمكّن منها وتجلس هي على الخازوق لا هو.

شيء وحيد لم تحسب حسابه... كيفَ يُمكنها أن تتمكّن من حمله ما يقرب من عشرة أمتار، تلك المسافة الواقعة بين الطاولة والخازوق قُرب الشاطئ.. كيف يُمكن أن تقعده عليه وتمتّعه وتستمتع بتلك الميتة الشنيعة؟

مرّت نصف ساعة.. ساعة.. وهو جثة هامدة أمامها وهي جاثية على ركبتيها؛ فكّرت أن تخرج وتهرب لأنّ ساعة واحدة تفصله عائدًا للحياة وتفصلها عن الذهاب إلى الموت.

فكّرت في استئجار أحد الأشخاص من الخارج ولو دفعت له كل ما ادّخرته من وراء هذا العقيد الشقي..

غير أنّ كلّ محاولاتها دائمًا كانت تبوء بالفشل نتيجة تردّدها.

دنَت منه.. أحيانًا تصفعه وأحيانًا تلكِمْهُ وأخرى تُكلّمه مُعاتبة ولائمة.. وأحيانًا تشتمهُ.. وهو الميتُ لا محالة.. الحيّ رُبّما.

10

عقارب الساعة هربت.. بقي ربع ساعة من الساعتين.. غشيها النعاس من الألم واستسلمت.. لحظات وربّت كتفها.. فانتفضت مصعوقة..

اختلطت مشاعرها وأخذت تتقاذفها، بين أن تركض نحوه وترتمي

في أحضانه كطفلة وجدت أمها بعد ضلالة، أو تفرّ منه من سوء ما عليه حالها، فهي خجولة من نفسها أمامه.

أخذت، وهي قاعدة أرضًا، ترجع إلى الوراء وتزحف بمؤخرتها وقدميها ويديها كالطفل الذي يهرب من موج الشاطئ الذي يغتال في كلّ مرة بيته الرملي.

انعقد لسانها.. مشى ببطءٍ نحوها.. آخر المطاف أمسكها من يديها ثمّ طواها في كفّيه وقال لها مُبتسمًا لتطمئن:

- صوفيا.. ما جئتُ مُنتقمًا منكِ.. إنما أنا هُنا لإنقاذك وقتل هذا الملعون.

ودون أن ينتظر قرارها.. توجّه إليه وأخرج من جيبه مُسدسًا اقتناهُ لتلك اللحظة الخالدة. وقبل أن يضغط على الزناد صاحت فيه برجاء وبصوتٍ أسمع البلدان الأخرى على الشواطئ المُقابلة:

- مازززززززن.

ثم أشارت برأسها نحو الخازوق.

ابتسم ثمّ قهقه للحظات أتمّ بِهنّ الساعتين.

11

بدأ العقيدُ سَامِرُ يستفيق من تأثير المُخدر.. أصابته صَدْمَةٌ لوهلاتٍ حين رآهما يُطوّقانه كملكين للعذاب.

صرخَ.. استجارَ.. استجداهما.. تجاهلاهُ بفخر!

كانَ الوتد مُحكمًا فحمله وهو يحاول أن يفلت من قبضته كحيّة تتلوى قبل الموت.. لكن دون جدوى. وأقعده على الخازوق ليموت في دقائق ومؤخرته تنزف دمًا نجسًا.. بصرخة مكتومة تُزهق روحه الخبيثة.

قالت له بعدما اقتربت منه وهي تحوم حوله ولا يسعها الكون من

السرور، وقبل أن يلفظ آخر أنفاسه:

- انتقمت اليوم لكل من ظلمتهم ولنفسي ولمازن حبيبي..
  حتّى انتقامي أسكن روح سُليمان الحلبي.
  ففرنسا حين احتلت مصر لم تكُن تملك سُلطة..
  إنما هُم غاصبون، وأنتَ وأمثالك أيها الملعون..
  ما اختلفت عنهم كثيرًا..
  باسم الربّ إنكم أشد قسوة علينا من المحتل الخارجي..
  أنتمُ وباءٌ وسرطانَ الدَّاخل.

كانت قد أوشكت على الانهيار، بشعورين مُختلفين: راحة لشمِّها نسيم الحُريّة بعد ندرة الأكسجين، وتعبِ من أعياه القيد. أحاط مازنُ زيدان بها، وضمها إلى حُضنه ضمًّا عنيفًا حانيًّا بذراعٍ ومشّط شعرها ليُذهب عنها الخوف والرجفة بذراعٍ أخرى، مُهدئًا مِن روعها.

(25)

1

تخطّت ريما العقّاد أحزانها مؤقتًا، في محاولةٍ منها للمُحافظةِ على ما يُمكن إنقاذه مما تبقى لها من وميض أملٍ في حياتها البائسة. لجأت إلى ابن عمها الآخر.. وهو أصغرُ سنًّا من رضوان.. زياد تيسير. وهو يملكُ معملًا للغزل في قلب الشام.. يتنقل بين سورية ولبنان مسوّقًا ومُصدّرًا أعماله.

كانت بينهما مودة واحترامٌ كبيران، وتعتبرهُ بمثابة أخيها الراحل أحمد، بل كان أقرب إليها منه. يزورها من وقت لآخر يُلبي طلباتها ولا ينساها أبدًا في هداياه لأسرته، فهو متزوجٌ ولديه ثلاثة أبناء.

هاتفته في المنزل، فأخبرتها زوجته أنه في بيروت مُنذ اشتعال الأحداث وهو عالقٌ فيها بسبب المشاكل الواقعة على حدود البلدين. وأخبرتها بأنها ستحثهُ على الاتصال بها في المرة القادمة حين يحدثها من هُناك.

قرأت رسالة باسم على الهاتف، ورغبت في الردّ عليه لكنها متردّدة فلا تجد ما تقوله، إذ إنّ كثيرًا من خلائج نفسها يسكنها الضبابُ ويُسيطر على كل مراكز قواها الفكرية. باتت لا تعرف ما الذي يجب عليها فعله، فأجّلت قراراتها وردّ فعلها إلى حين تتواصل مع مُستشارها النفسي زياد فهو دائمًا ما يوجهها إلى الصواب.

2

بضعة أيامٍ أُخر.. وتشتعلُ البلاد ويعمّ الخراب كل الأرجاء عدا بعض الأحياء المُحصنة في قلب دمشق. اضطّر باسم مارديني للسفر إلى مدينة الضباب لندن على إثر دعوة عاجلة من إحدى المنظمات الحقوقية لفهم ما وقع في سورية تحديدًا ما يتعرّض له المسيحيون.. لكونه من مُثقّفيهم المرموقين والأكثر شُهرة في سورية.

وحين كان هُناك أخبره أحد المُقرّبين باستحالة عودته حاليًا إلى البلاد فقد تفاقمت الأوضاع، وعمّت الفوضى مناطق ريف دمشق التي كان يُقيم فيها مع أفراد عائلته الذين سُرعان ما هاجروا إلى أمريكا عند أخته المتزوجة والمقيمة هُناك.

وجد نفسه فجأة بلا وطن، ولا تاريخ ولا هويّة.. مُغتربًا بلا روح ولا عنوان ولا قلب..

انقطع الاتصال بينهما تمامًا.. ريما التي طال انتظارها لابن عمّها قررت أخيرًا أن تتواصل مع باسم على رقمه السُّوري غير أنّها لم تعثر عليه لأنه لم يعتقد أن عودته غير ممكنة، لذا لم يأخذ معه ما يربطه بأرضه بما في ذلك هاتفه الحامل لأرقامهِ المحلية معه.

اتّسعت الفجوة بينهما. حاول مرارًا مُراسلتها عبر البريد الإلكتروني ومواقع التواصل الإجتماعي لكنّ شبكة الإنترنت كانت قد قُطعت عن منطقتها نتيجة القصف المُتبادل على أطراف الشام، وانقطاع الكهرباء المُستمر عدا ساعة أو ساعتين في اليوم بأكمله.

تذكّر الصديقة العابرة بينهما فيروز سُليمان.. راسلها وذكّرها بنفسه وأنهما التقيا من قبل عبر برنامج تلفزيوني.. روى لها قصته وأنّ البنت التي اهتمّت بقضيتها تكون حبيبته ريما. فتألمت فيروز كثيرًا وظلّت في محاولة دؤوبة للوصول إليها لكنها أيضًا باءت بالفشل في مدّ أي جسرٍ

للأمل بينهما.

3

كان رجل الأعمال الإماراتي الذي اشتغل عنده والدها وأخوها.. قد نزل رغم تردّي الأوضاع إلى سورية وتوجّه مُباشرة إلى بيتهم للوقوف على سرّ اختفائهما فجأة وانقطاع الأخبار.

دقّ الباب برفق وأدبٍ جمّين، وبعد دقائق قامت ووقفت وراءه مرتدية ما يسترها ولفافة شعرها:

- «مين».
- «هلا ريما، كيفك زينه؟».

استغربت في نفسها: «من ذا الذي يعرف اسمي وما الذي أتى بذلك الخليجي»، لم يخطر بفكرها أن يكون هو ربّ عمل والدها:

- «شو بدك، ومين أنت».
- «أنا شخص وايد والدك وأخوك يعرفونه زين».

فور نطقه بتلك الكلمات تذكّرته من الموقف النبيل الذي كان منه من قبل، حين تم القبض عليها مع باسم بسبب مازن حين كانت في الإمارات.

سمع صوت فتح القفل، فدقّ قلبه مُرفرفًا فرحًا برؤيتها. غير أنها واربته رُبع فتحة، يعتلي نصف وجهها الظاهر له.. فُتات ابتسامةٍ مُتّشحة بالحُزن.

اندهش وقال بخجل:

- أهكذا يُعامل من يقطع المسافات في بلادكم؟

ردّت مُبررة:

- بل هكذا تُعامِل الوحيدة في بيوت الشام الأضياف، باستحياءٍ

ومنعة.

أسرَّ في قلبه سروره، زاده كمال أخلاقها افتتانًا بها، وقال وهو لا يعرف المأساة:

- ولِمَ هذا الأسود؟ وأين والديك وأخوكِ هل هم في مكان آخر فنذهب إليهما؟

قطرة واحدة كانت تنتظر سؤال أحدهم، فبادرت ودُفنت أرضًا لتموت بعد السقوط من عينيها مُنتحرة من شدّة الألم:

- نعم ذهبوا جميعًا إلى الرفيق الأعلى.

نظر إلى أعلى البيت واندهش، إذ لا دور ثان ولا مُلحق علوي له، ثمّ أعاد النظر إليها، إذ إن بصيرته لم تستشفّ الوقوف على حكمة ما قالته، ولم يُعقّب عليها.. أوضحت له أخيرًا:

- ماتوا جميعًا، سيّدي الفاضل، في حوادث مؤلمة. أطال الله في عُمرك.

تسمّرَ في مكانه كدبٍّ قطبي أصابه الجليد بسحر الشتاء فجمّدهُ الثلج المُتجمع حول كوخه من كل اتجاه.

لم تترك المُفاجأة لسمعه وأعصابه أي محاولة للنُطق. خافت عليه كونها تعرف كم كان يحُبّ أهلها، فبادرت قائلة:

- هوّن عليكَ.. تلك الحياة الدنيا تفعل بأهلها، كُلّنا راحلون.

إن شئتَ ابق هُنا حتّى أهاتف بيتَ عمّي ليحضر، أو اترك لنا ما يدلّنا على عنوانك المُقيم فيه بأرضنا، وسوف نُرتب موعدًا لزيارتك مُجدّدًا، واستضافتك بما يليق بك على مائدة الطعام.

4

قبل أن ينطق بما لا يعرف، حضرَ ابنُ عمها الشيخ رضوان الذي

كان قد عُيّنَ بصّاصًا على مُراقبتها ومراقبة بيتها أحدَ الأطفال من اليتامى. كان يدفع له بانتظام بعض الليرات ليشتري طعامًا لنفسه.

أقبل عليهما بحنق وغضب، إذ إن الهيئة من مسافة بعيدة لم توضّح له من يكون ذلك الرجل.. كان يرتدي سروالًا وقميصًا عاديين يمتاز بهما أهل الحضر بالشام، وما كان يتلفّح لا جلبابًا ولا عُقالًا كهيئة أهل الخليج.

ما إن اقترب، حتّى بادر الرجل بالإفصاح مُعرِّفًا كي لا يُعرّض نفسه ويعرّضها للقيل والقال:

- أنا مُدير والد السيدة ريما بالعمل.

رحّبَ به مومئًا رأسه وعَلتْ وجهه ابتسامة دهاء، حيث توقّع قدومه إليهم لإعطاء ريما مُستحقات والدها وأخيها.

أشار عليها بترتيب المضيفة فاستجابت على الفور. دقائق معدودات ونادت بأدبٍ على ابن عمّها مُعلنة إذنَ الدخول.

تقدّمه مُنحنيًا، مُشيرًا بيديه وابتسامة خفقان في قلبه، إذ أخذ يُفكّر بالأموال التي ستدرها عليه تلك الجلسة، كما أنه لن يُنفق شيئًا على عُرسه الذي يحلم به من ريما، وأنها ستصبح عروسًا مُتكاملة.. الجمال.. المال.. الدين.. النسب..

قدّمت لهما مبتدئة بالضيف، عصير التوت وصحنًا من الفاكهة وسألته باستحياء:

- هل أعدّ لك طعامًا شاميًّا؟

ردّ بسرور مُتجاوزًا ابن عمها، مُفصحًا عمّا في داخله:

- بلا شكٍّ إنّي جائعٌ لما تصنعه يداكِ، ولكن أكتفي بما قدّمتِ الآن.

وواصل على وقع نظرات الدهشة والغضب التي تسلّلت إلى عيني الشيخ رضوان مما سمع:

- من فضلك اجلسي معنا فلديّ ما أقوله في حضرة ابن عمّك.

تجاوز الشيخُ رضوانُ ما طرأ قبل لحظة، وهو في شوقٍ لما سيقول. حتمًا إنّ خزائن الخليج المملوءة ستفتح أمامه، وبعد ذلك وظيفة مرموقة محلّ عمّه وابن عمه.

استجابت ريما وقعدت في الجهة المُقابلة بالقرب من ابن عمّها، ثمّ أسهبَ بوضوح واختصار، مُطعمًا فضولهما الذي نضح من نظراتهما:

- كُنتُ قد عرضت على المرحوم والدك..

ورفع يديه إلى السماء ودعا بصوته الأجش جهرًا: «اللهم أنزله وأسرته منزل صدق وارض عنه وارضِه».

وواصل حديثه بعد تأمينهما على ابتهالاته:

- أن أتزوجكِ سيّدة ريما، بما لا يُخالف شرع الله.

عقدت الدهشة ملامح الياسمين، وتوقّفت يد الشيخ رضوان عن العبث بلحيته الكثة التي كان يُداعب شُعيراتها.

مرت دقيقة دون أن ينطق أحد من الثلاثة. غير أنّ ريما، التي كانت تعلم بالموضوع مُسبقًا قبل أن تأتي من دُبي، أرادت أن تضحك من شعورين مُتناقضين أصاباها: شدّة الألم من دناءة ما طرح الرجل، وحال ابن عمّها الذي كاد أن ينفجر، إذ هو يتحين فرصة الحصول على الأموال منه والزواج منها، لا أن يمنحها المال ويتزوج بها الخليجي.

كرّر العرض مُجدّدًا وضحكة تُزيّن وجهه وتُظهر أسنانه الصفراء من ثغره نتيجة التدخين.

علّل رضوان عليه بتهكّم:

- أترى الوقت مُناسبًا، لمثل هذا القول ولم يمرّ أربعونَ يومًا على موتى هذا الدار؟ حتّى أن صاحبته ما زالت مُتشحة بالأسود.

ردّ عليه بموضوعية:

- لم أكن أعرف بالواقعة، على كُلٍّ لننتظر.. على الرغم من أن خوفي على ريما سيكون كبيرًا نتيجة أن الأحوال في سورية لا تبشّر بالخير والقتل يُحيط بها من كل اتجاه.

اغتاظ كثيرًا بما سمع فقال ساخرًا منه:

- وهل ستخاف عليها أكثر منّا نحن آل بيتها؟ ثمّ انظر إلى حالك في مرآةِ الحقيقة. أنت تكبرها بثلاثين سنة على أقل تقدير.

ردّ عليه بتجاهل:

- أستطيع أن أجعلها ملكة تجوب العالم وأغرقها في نعيم لا حدّ له.

قال بتجاهل أكبر لُمغرياته على الرغم من أنّهُ قبل قليل كان توّاقًا لما في خزائنه، ولكنّ عرضه بدا منه الطمع، إذ أوشك على خطف ابنة عمه محبوبته التي يرغب فيها منذ زمن:

- النقود لا تعوّض السعادة.

ردّ عليه بوثوق وابتسامة غرور تغزو أنظارهما:

- بل تشتري كل شيء بما فيه السعادة. لنفترض أنك حبيبٌ لها وأن عمرك من عمرها، أخبرني هل يُمكن أن تشتري لها قصرًا الآن في باريس، أو مصيفًا في إيطاليا، أو حتّى تأخذها في رحلة إلى شرم الشيخ المصرية وتجعلها تستحم في أجمل أماكن العالم.

لم يُعقّب على كلامه، فواصل بإمعان في إظهار قوة ثرائه ووضاعة فقر الشيخ رضوان..

أنا أستطيع شراء كلّ شيء بما في ذلك كل أحياء دمشق، وإن شئت جعلتها ملكًا لها أعمّرها أو أهدّها.. وأنشئ على أنقاضها ما تشاء من قلاع وحصون وممالك.

أرأيتَ يا شيخ رضوان، هكذا يفعل المال يحوّل العبيدَ ملوكًا، والملوكَ عبيدًا.

5

انفعل رضوان ووقف ملوّحًا بيديه على المستوى نفسه الذي أهانه به:

- اخرج الآن من منزلنا.

انتصبت ريما مكانها بعدما كانت تُشاهدهما بقلق، واعتصر قلبها غضبًا وألمًا بالوجد والوحدة، فقالت لهما وقد اغرورقت عيناها:

- ما بالكما بفتاة وحيدة، أتريانني تراثًا أو عقارًا تقرران مصيره كيفما تشاءان. لا أموالك سيّدي تروق لي ولا عروضك تُغريني، لأنّك نسيتَ شيئًا ما.. أنّ الأموال مصنوعة من الأوراق.. والأوراق مصنوعة من المادة.. والمادة تُسيطر على أربابها.. عبيدها والراغبين فيها...

أمّا أنا فلروحي شأنٌ آخر لن تفهمه كلُّ ممتلكاتك وإن كانت فتيات كثيرات غيري يتمنّين عشرة بالمئة منها.

ثمّ أردفت بتقطعٍ في القول نتيجة عدم قدرة على الكلام:

- من فضلك، وبهدوء تام، احفظ لنفسك الاحترام الذي كان بيننا نتيجة خدمة والدي عندك وانصرف. انتهت زيارتك وأنا ممنونة لحضورك.

حدّق إليها بحُزنٍ، همّ باسترضائها والاعتذار منها لكنه صمت، وانسحب استجابة لها كي يظلّ في عينيها كبيرًا.. على أمل أن تتغير المُعطيات فيما بعد.

ثمّ نظر إلى الشيخ رضوان وأراد تقطيعه إربًا.. ابتسم لها وحمل نفسه وخرج من الغرفة. وقف في الخارج مُعجبًا ببقايا مزهرية والدتها وأخرج ورقة وقلمًا وكتب لها طريقة للتواصل معه، موقعًا أسفلها عبارة:

«لعلك تغيّري رأيك ذات يوم، ستجدينني أستقبلك بالورود،

وسأظل عند وعدي بأنني وحدي من يستطيع جعلك ملكة».

6

لوهلةٍ ظنّ الشيخ رضوان أن الحياة معها ستصفو له، غير أنها نظرت إليه بحنق وقالت صارخة في وجهه:

- ماذا تنتظر أنت أيضًا، اخرج من هذا البيت ولا تعد إليه مُجدّدًا، فلا تختلف كثيرًا عنه، كلكهم متشابهون، تريدون استغلالَ براءتي.

يمشي بمكر وهدوء من أمامها ويقول أثناء خروجه:

- من أجل الياسمين ننتظرُ الغيثَ، فصبرٌ جميل يا ابنة عمّي. ستلينين يومًا ما.

تزعق فيه مُجددًا، فيهرول إلى باحة البيت، وما إن وصل إلى قُرب المزهرية حتى لمحَ منها طرف ورقة، أثارت فضوله فتوجه نحوها.

أمسك بها ولم يُراعِ جبر كسرها.. أخرج منها رسالتي باسم ماارديني والخليجي، وقرأهما بغيظ، ثم همّ بالعودة إليها فخرجت إليه لتزعق فيه:

- أما زلت هُنا؟ ألم تنصرف بعد؟ استحِ يا شيخ رضوان.. «ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما».

ردّ عليها بغضبٍ مُهددًا إياها:

- لسنا وحدنا في هذه الدار، كما أن الشيطان لا يحتاج للحضور.. يوجد شيطانان أخطر منه.

ثم يرمي بالورقتين في وجهها:

- باسم ماارديني، هذا آخر ما أتوقّع.. تُحبّين مسيحيًا وتواعدينه. حتّى هذا الأخرق المُغتر بمالهِ.. مدير والدك الخليجي صالح العنزي.. كلاهما يُريد الزواج بك.

ثمّ يردف مُحذرًا:

- ابنة عمّي، أمامك يومان فقط.. جهّزي فيهما نفسك. وسأرسل زوجتي الأولى أم العيال في الغد لتبيت معك وتساعدك في الزينة والحناء.

تردّ عليه باندهاش:

- والسبب.

وبصوته المنكر يُجيبها:

- لأتزوج بكِ، أنا أولى منهما.
- لكنني لا أريد الزواج منكَ، ولا من هذا الكَهل.
- تريدين الزواج من المسيحي إذًا، أتبيعين دينك من أجل الدنيا.
- ما قُلت سأتزوج به.

قال كآخر كلمة له قبل أن يخرج ويغلق الباب بقوَّةٍ خلفه:

- هذا هو القرارُ النهائي.. وتذكّري أننا في مجتمع لا رأي للنساء فيه على الرجال. أنتُنّ ملكٌ لأهوائنا، لأنّكُنَ ناقصات عقل ودين. ولا تعرفين مصلحتك أكثر منّي ومن عمك الشيخ تيسير.

بعد أن انصرف ثارت وقذفت البابَ خلفه من الداخل بإحدى زرّيعات الياسمين.

جلست في زاوية من زوايا الباحة مُحتضنة نفسها ووحدتها باكية مُتألمة، وقد هدّها التعب وهدهد روحها المُشتتة.

(26)

1

ذات ليلةٍ عاصفة، استجمعت قواها المُحطّمة وعزمت على الهرب فارّة من هذا العالم المقيت، لعلّها تنجو على حين غفلةٍ من سجّانيه.

اختارت ساعة مُتأخّرة مِن بعد مُنتصفِ الليل كي تخترق الدائرة المحيطة بها من الأعين المُتربصة. ارتدت ملحفتها السوداء ولأوّل مرةٍ غطّت وجهها بنقابٍ سميكٍ، في محاولة منها لعدم لفت انتباه أحد، على الرغم من أنّ النوم قد سيطرَ على جلّ ساكني حيّها بمن فيهم بيت عمها وابنه المُتطفل رضوان.

سارت لا تعرفُ الوجهة، وقرّرت الذهاب إلى زوجة ابن عمّها المحبّب زياد.. لعلّه يكون ملاذًا آمنًا ولو مؤقتًا لها.

2

طرقت البابَ.. ففتحت لها بحذر وتوجّس شديدين، بعدما اطمأنت إلى أنها هي.

احتضنتها وقبّلتها أربعًا بواقع اثنتين لكلّ خدٍّ:

- والله وددت لو أكون بالقُربِ منكِ دومًا، حتّى لا تظلّي وحيدة: تعرفين كم أنت غالية على قلبي فزوجي العزيز زياد أوصاني بك حتّى من قبل الارتباط.

ثم تنهّدت مُردفة:

- الأولاد فقط! مسؤوليتهم ومدارسهم شغلتني عنك، حتّى رضيعي الصغير لا يجعل يومي ولا ليلتي هانئين، ولن تتحملي إزعاجهم جميعًا.

أدخلتها وأضاءت مصباح الصالون، إذ يقيمونَ في بُرج سكني عصري في الطابق العاشر من أصل خمسة عشر بمنطقة راقية في قلب دمشق.

- لا عليك، أعرف وأقدّر.

همّت بإحضار الطّعام لها، فأمسكتها من طرفها وأقعدتها:

- ما الأمر، ألم تأتِ لتنامي عندنا، السَّاعة متأخرة، لنأكلْ أولًا ثم نرتاح، فلا انصراف من عندي اليومَ.

أجابتها بصوتٍ حزين تكاد تموت نبراته في فمها:

- بل جئتُكِ مودّعة!

صُدمت مما سمعت، فسألتها بفضول الموشك على الموت عطشًا راغبًا في شربة ماء:

- مودّعة! والسبب؟

- بلى، إلى حيث اللامكان.. لا أعرف بعد.

بكت، فهدّأت من روعها وطلبت منها إيضاحًا، فقصّت عليها ما تعرّضت له في صباح اليوم المُنصرم.

3

أمسكت زوجة ابن عمّها هاتفها النقّال وطلبت أرقامًا بسرعة حتّى أنّ أصابعها لا تكاد تتوقف، ثلاثة عشر رقمًا.. ثُمّ اثني عشر رقمًا، ثُمّ ثلاثة عشر آخرين.

قالت ساخرة:

- «العمى بقلبُن شو ما عندن ذوق، الله يبعتلُن حُمّى».

ابتسمت باستغراب:

- ما الأمر؟ وبمن تتصلين؟

أجابتها وهي لا تكفّ عن محاولاتها المكرورة:

- «هاد زياد، قبل شوي اتصل فيني من ها الأرقام الجديدة.. موبايل وأرضي وما بعرف شو فيهن ما عم تجمع الأرقام، وخبّرني بس يطلع الضو بيتصل فيكي، وخبرته عن إنو بدك ياه ضروري، وقال هيك وخاف تكوني هلأ نايمة وما اتصل».

يشبكُ معها الخط، فتُجيب بفرح قبل أن تُعطيها الهاتف وتنصرف إلى رضيعها الذي استيقظ باكيًا في غرفة النوم.

- «هلا حبيبي، إلي ساعة عم حاول دِئلك، شوف شو بدّي ئلك، اطمن نحن مناح ما في شي، بس هيدي بنت عمّك ريما عنّا وكان بدكُن تحكو بعض ماهيك».

- ريما «شلونك» اشتقتُ إليكِ يا ابنة العم.

بصوتها المبحوح:

- أنا أضيع يا زياد، أختك الياسمين يريدون سحقها كما يفعل الخريف وأقدام المارّة بأوراق الشجر في الطُّرقات.

ثمّ تروي عليه بالتفصيل ما وقع..

تُنهي المُكالمة مسرورة وقد ردّ إلى وجهها بعض النضارة نتيجة ما قاله لها.

4

عادت زوجته على إثر ابتهاجها سعيدة باعتلاء الفرحة جوارحها

لتمازحها برقّة:

- «شو شو.. يا حلو، بشو حكي معك زياد، رح يتزوجك إلك».

ضحكتا معًا ولكمتها برفقٍ في كتفها الأيسر، قالت بأمل:

- هنأكما الله بالعيش الرغيد والحياة المديدة وحفظكما من كلّ سوء. أخبرني زوجك بأنّ الحل الأمثل لي، هو مُغادرة البلاد على الفور دون إبطاء.

- «لوين».

- إلى لبنان.

قاطع زياد حديثهما بالاتصال مُجددًا، تردّ زوجته.. مُنصتةً إليه فحسب. استجابت لما قال مستأذنة منها، دقيقة واحدة.. تعود مُحمّلة بألفي دولار أمريكي.

ناولتها النقود فاستغربت ورفضت أخذها.

قالت بإصرار:

- «حكى زياد إنو رح تحتاجي مصاري للفوتة الآمنة من الحدود، ونحن بنعرف إنو إنت ما معك أي شي.. نحن أهل ليش عم تسوي هيك، يا عيب الشوم عليكي، والله والله لو ما أخدتيهن ما رح أعرفك.. تئبُريني ما توطّي كلمة زياد، أصلًا ما في طلعة من هون ولا فوتة ع أيّ محل من غيرُن».

أخذتها مُضطرة.. بشُكر وخجل وضعت النقود في حقيبتها داخل جواز سفرها، وأوراقها الثبوتية، أيضًا دوّنت أرقام زياد ببيروت بناءً على طلبه، مُخبرًا إياها أنها بمجرد أن تصل إلى أقرب نقطة حدودية داخل لبنان عليها الاتصال به حتّى يأتي إليها.

دخلت إلى غرف الأولاد وودّعتهم بطلّةِ أسفٍ وكانوا نائمين. قبّلت الرضيع الصغير وكأنها آخر مرة ستراهُ فيها، ثم احتضنت الأم

قرابة الخمس دقائق، تداولا فيها كلمات الشُكر والأدعية وتمائم وأوراد الحفظ والسفر والتمنّى بالحظ الطيب، لتنصرف على وقع الصوت الوحيد بالحيّ، آذان الفجر في صمتِ البشر، وضجيج الرصاص المُتطاير والقذائف المُهدّمة من هُنا وهُناك عَن بُعد.

5

تقطعُ الداخِلَ السوري الممُزق.. نقطة وراء نُقطة باتجاهِ هدفها..
ومن حصن للجيش السوري.. إلى مركز تفتيش للجيش الحُر..
مِن لجنة شعبيّة للثوار الشباب.. إلى قُطاع طريق من الشبيحة والمُجرمين..
من جماعاتٍ مُسلّحة صغيرة.. إلى عصاباتٍ أصغر..
مِن مسالمين.. إلى مُغتصبين..
رأت كل أنواع المآسي، وماتت ألف مرّةٍ.

6

في هذه الأثناء، عاد باسمُ مارديني إلى بلاده، رغم كلّ المخاطر والتحذيرات من عاقبة هذا التصرّف المتهوّر، إلا أنّهُ أراد أن يفي بوعده.
وصل باب توما صباح اليوم التالي من رحيلها عن الشام كُلّه.
انتظر لساعات.. تعرّض فيها لكثير من المواقف بعضها طريف وبعضها مؤلم.
ما بين سؤال عن الهوية.. وآخر عن المذهب.. وثالث عن الانتماء السياسي.. ورابع عن الدين.. وخامس عن الجنسية لكونه يتمتع ببعض الوسامة التي يعود أصلها لأجداده اليونانيين.
أكثر ما لفت انتباهه وغرّر بأفكاره، هو هذا الوجوم المُعتلي وجوه

من رآهم، حتّى البشر العاديين الذين كان يُسلّم عليهم في السابق بفرحة وسرور، أصبحوا لا يقتربون منه، لا خوفًا.. بل يُشيرون إليه من بعيدٍ في إشارةٍ أنه ما من شيء أصبح له قيمه في عالمهم.

تذكّر للمرة المليون.. حديث العرّافة الكشّافة.. «احذر من البريق والشهرة، فقد يتحول يومًا ما إلى زيف ونقمة كبيرين لا نعمة وبهاء».

حاول الوقوف على الأسباب، وطالع كل ما حوله من أشياء. من أوّل السماء وحتّى الحشائش التي تقضي عليها الأقدام كئيبة. والمطعم الذي تمنّى يومًا أن يقدّم لها فيه الأكل الفاخر.. وصاحب تلك الذكرى تمنّعها واكتفاؤها بالجلوس على المقاعد في هذا الهواء الطلق.. فضحك بعفوية.

7

أخذته العبرة إلى الأماكن الشاغرة التي أصبحت فاترة وباهتة اللون..

ورودها تفتقرُ إلى الحياة.. مُشتاقة للأيادي المُمتدة إليها برفق، حتّى تلك التي تقطفها بُعنف، تُناشد هؤلاء الحالمين الذين يفضّلونَ الميل بأنوفهم.. ينحنون بإجلال ليشمّوا الروائح الزكيّة منها..

مئات الفراشات قتلى ما بين الأرض والأروقة والأغصان..

العُشّاق تلاشوا وكأنهم ما كانوا هُنا يومًا..

المشرّدونَ والمهمشّونَ والباعة المتجوّلون كثروا..

تبجّحَ بعضهم، وتضورَ بعضهم الآخر جوعًا..

باب توما نفسه بآثاره المُزيّنة بعبق التاريخ..

أصابها الوهن، وكأنها تنطق بألف سؤال باحثة عن إجابة واحدة..

عن سرّ كل هذا الذي وقع للناس ولسورية بكل ما فيها؟..

ملايين الرسائل يسمع أصواتها عبر الأثير..
بعضها ينتظر الخلاص وتحقيق أمنيته بما فيها رغبته..
وبعضها ينتظر الموت رحمة..
وبعضها الآخر يأتيه القتل قبل أن يعرف معناه..
ورسائل أخرى لم تُكتب بعد لأنّ أهلها ما وُلِدوا..
حجبهم القدر رأفة بهم كي لا تطأ أحلامهم المشروعة، تلك الأرض التي باتت سكنًا لكل ما هو ممنوع وغريب..
مدافع تجوب الشوارع، بأسنّة داناتها لا يعرف لمن توجّه، لصدرِ مَن أو لقلب مَن أو لأيّ عدوّ..
أخذ يسأل نفسه.. هل تحوّل كل شخص إلى مُشكّك في الآخر ومتربِّص؟..
شقّت العبرةُ طريقًا من قلبه المنفطر إلى عينه الشاخصة بمشاهد الخيبة هذه.

8

استجمعَ قواه بعد انتصاف النهار، فقد مرّ أكثر من ستّ ساعات في الانتظار، أخيرًا قرر أن يتوجه إلى بيتها. فقد قاده الشوقُ ولم يهبْ كلّ التداعيات الجديدة التي ما كانت موجودة بهذا الزَّخم في الأيام الأخيرة أثناء تعزيته لها.

بعد حواجز عدة وبين من يوقفه ويسأله عن نهاية هذا الأمر لمعرفتهم بشخصيته العامة، وبين من يتهكّم عليه محاولًا مضايقته على الرغم من سلميته ووداعته المُفرطتين، وصل أخيرًا إلى ناصية بيتها.
من بعيد وجد جمعًا يرأسه الشيخ رضوان ابن عمّها، فتردّد مُقدمًا

خطوة ومؤخرًا خطوة، بين أن يُكمل مساره أو يرجع كابتًا رغبته. فضَّل أن ينتظر مكانه حتّى يغفلوا عنه أو يجد طريقة يتسللُ إليها بعيدًا عن أعينهم، أو ربما يرحلون فتحين له فرصة مجّانية التّفكير.

لحظات ووجد مَن يُربّت كتفه.. شخصان ضخمان أمسكا به وظلاّ يتشاجرا معًا مختلفين حول هويته. يكلّم أحدهما الآخر الذي يُجيبه بدرجة الصوت نفسها، ويصرّ كل منهما على رأيه:

- نعم هو، هو.
- لا ليس هو، لا علاقة له من قريب أو بعيد بما وقع.
- بل هو، هو، أنا متأكدٌ، نظرتي لا تخيب.
- قُلتُ لك من فعلها قصير بعضُ الشيء، وهذا فارع الطول.

حاول الإفلات من بين أيديهما مُستغربًا لماذا يعاملانه بهذه القسوة والإهانة، بعدما حاول مرارًا فهم السبب منهما، لكن دون جدوى.

جرى نحوهم الشيخ رضوان الذي لمح باسم من بعيد وعرفه دونهما.

ابتسم فرحًا به:

- أغثني يا شيخ رضوان من هذين المجنونين. خلّصني من تلك الورطة.

نظر إليه بقرفٍ واشمئزاز، أدخلا في قلبه ريبة.

رضوان لكليهما:

- من أنتما، وماذا فعل هذا الزنديق؟

نزلت كلماته على مسامعه كرعدٍ ضربَ شجرة ضخمة فقسمها.

قال الذي يشتبه فيه:

- منذ ليلتين نبحث عنه. لقد قتل إمام المسجد في حيّنا وسرق محتويات صندوق الزكاة.

ردّ الثاني وعادا إلى جدالهما المُثير قبل قليل:

- قُلت لك ليس هو. أنا كُنت أقرب إليه منك حين ركضنا نحوه في ظلام الفجر ولم نلحق به. قد رأيت ملامحه كاملة من ضوء القمر.

يزعق فيهما الشيخ رضوان:

- أنتما انصرفا من هُنا فورًا، هذا ليس بلصٍّ ولا قاتل. إنه أديبٌ وسياسي مشهور ألا تعرفانه. الأستاذ باسم مارديني، شاعر المليون.

حملق إليه الذي اتهمه بالقتل، ودار حوله متفحّصًا ملامحه ومعالمه، قائلًا باستهزاء:

- هيأته لا تقول ذلك.. يبدو لي عازفًا على آلةٍ وتريّة كهؤلاء المتشبّهين بالنساء الذين يظهرون في حفلات المجون بشعورهم الطويلة.

ردّ الآخر:

- نحن نصدقك يا شيخ لكن هذا لا يشفع له.

يُخرج من جيب معطفه الإيطالي الرمادي الأنيق جواز سفره، وعليه تأشيرة الدخول من مطار دمشق صباح اليوم ليطالعانها.

قال الشيخ رضوان بصوت مُرتفع:

- ها قد انتفت التهمة عنه، وأصبحت حجتكما واهية.. فلتذهبا على الفور وإلا جعلت منكما لحمًا مفرومًا لكلاب الدرب الضالّة.

غضب المُشكّك في براءته، وانتشى بنصره الواثق منها، وانصرفا على وقع جدال رهانهما.

9

أحكم قبضته على يده التي مُدّت إليه لتصافحه، فازداد استغرابه من تلك المُعاملة العنيفة معه والتي بدأت بالإهانة اللفظية.

حاول إفلات يديه منه، فتركهما وابتسم بمكر:

- أهلًا بكَ، نوّرت أيها اللامع، أنا كُنت أمازحكَ فحسب.

لم يطمئن، إذ تبيّن له عن طريق كياسته أنه أضمر شرًّا وراء هذا الترحيب.

مشى به حتّى تجاوز بيت حبيبته ريما، فأدار رأسه محاولًا النظر إليه وكأنّ الباب وجه حبيبته الذي يستشفه من وراء الحُجب كآخر لقاء لهما.

عاود إحكام قبضته بطريقة مختلفة هذه المرة إذ أمسكه من ضلعة الأيمن، وأخذ يجرّه وقد ساعده في ذلك ثلاثة أشخاص أشدّاء ممن كانوا معه في الجمع، ليتجاوز الدار وهو على هذه الحالة، قد حاولَ التوقُّف أكثر من مرة لمنعهم والذهاب إليها.

سأله بعجبٍ:

- لِمَ تفعل كل هذا؟

ردّ بسخرية:

- من أعمالكم سُلّط عليكم.

- وماذا فعلت لك؟

- أمران.. الأوّل أنكَ غنيمة قد نساوم بكَ النصارى أمثالك على ما عندهم من أسارى من المُسلمين.

والثاني وهو الأخطر.. أنكَ أغويتَ مُسلمة وفتنتها والأشد عليك أنها ابنة عمّي. وإن لم تخبرني أين هي، فسوف أقتلك بميقات معلوم.

يتلعثم في القول خوفًا عليها لا رهبة منه:

- أين هي؟ أغائبة؟

- بل هاربة معك يا ابن الملاعين، وهذا ما سنعرفه، بالعُنف قبل اللين، لقد وقعتَ.. لي أيام على نار هُنا، أرابط في مكاني مُشتاقًا للانتقام.

ثمّ يستكمل جرّه بامتهان وعُنف.. إلى مكان قرّر أن يحتجزه فيه قصرًا.

(27)

1

بيدٍ مِن جَبرٍ أخرجت آخرَ ما تبقّى معها من دولاراتٍ، وأهدتها إلى أحد المُتمركزين على الحدود اللبنانية السورية، بتردّدٍ مصحوب باضطرارية قصوى، لتمرَّ إلى الداخل اللبناني دونَ انتظار لساعاتٍ أو أيام، وسط هذا الزحف الذي يُشبه يوم البعث؛ إذ إن كُلّ النازحين في تلهّفٍ للخروج من الجحيم. بعضهم يحملون ذكرياتهم المؤلمة وبعضهم الآخر يحملون أحلامهم على أملٍ أن يعودوا مُجددًا، على الرغم من أنهم يعرفون تمام المعرفة أنها آخر مرة ستطأ أقدامهم أرض بلادهم.

طلبت ريما العقاد من حارس الحدود أن تُجري اتصالًا هاتفيًا بزياد حتّى يأتي إليها وينتشلها من هذا المُستنقع. يساومها على دفع النقود مرّة أخرى، فتقسم له أنه قد استحوذ على آخر ما ملكت، وتذكّره بها إذ إنّ تلك الصفقة كانت قبل دقائق فحسب. فيقول إنه لا يُمكن نسيانها فجمالها مُلفت ولكن استخدام الهاتف لا بدّ له من صفقة جديدة. يعتذر منها وينصرف عنها إلى غيرها.

جلست تبكي وهي تُفتّش عن أي بنسات أو ليرات أو ذهب من زينتها. تتذكّر أنها قد جُرّدت عبر عملية الانتقال المضنية هذه من كلّ شيء وربما قلبها.

عثرت بالصدفة في محفظة مذكراتها على ورقة بمئة درهم إماراتي كان أبوها المرحوم قد شفعها بتوقيعه في عيد ميلادها الأخير حين زارته. ذرفت بعض دمعها، وتردّدت في استخدام هذه الورقة. أمسكتها بحرص طاويّة إياها في كفها، وتارة تفردها وتضمّها إلى صدرها. بين قرار الاستغناء عنها أو جزء منها.. لتمرّ من هُنا وتنتهي تلك المأساة.. وبين عدم التفريط فيها مهما يكلّفها الأمر ومهما تظلّ عالقة عند هذا المَعبر.

2

لحظات وسُمعَ دوي انفجار على مسافة لا تتجاوز بضعة كيلومترات، ففزع كل من كان حاضرًا وقرر عسكر السُلطتين الحدوديتيّن إغلاق البوابات، لحين مرور تلك الأزمة خشية من وقوع هجوم أقرب من سابقه هذه المرة.

وجدت نفسها في ربكة شديدة كحالهم. هي الآن داخل لبنان لكنها لا تعرف ماذا عليها فعله وأين ستذهب ومن ستُحدّث. فضّلت الاستغناء عن الورقة العزيزة على قلبها. ظلّت تفُتش بأنظارها المتلهفة عن ذلك الجُندي بين الجموع الباحثة عن ملاذ آمن، لمحتهُ مُقبلًا على إحدى الدرّاجات البُخارية. نادت عليه صارخة، ولوّحت بيديها حتى أغاثها اللهّ وجعله يلتفت إليها قبل انصرافه.

طلبَ منها أن يوصلها إلى أي مكان تُريده بنيّة بريئة.. رفضت مُفضّلة إجراء مكالمة مع زياد ابن عمّها.

أخرجت المئة درهم وقالت له بحذر:

- أعطني بقيّتها فضلًا.

خطفها منها وقال بمكر:

- تلك العُملة غير متداولة في البلاد. نحنُ نتعامل بالدولار الأمريكي والليرة اللبنانية فحسب، الألف وخمسمئة منها تساوي دولارًا واحدًا.

قاطعته بغضب:

- ولكنّ تلك المئة تساوي ثلاثين دولارًا تقريبًا.

بانفعال شديد وقد شغّل مُحرّك الدراجة النارية ليرهبها:

- إذًا أبقيها معكِ وابحثي عمّن سيخدمك في تلك الأوقات العصيبة.

همّ بالانصراف، فبادرت بإيقافه:

- حسنًا أعطني الهاتف، وأعطني لفافة الخُبز التي تحملها في السّلة أمامك.

قهقه ومدّها إليها مع هاتفه:

- مُساومة ذكيّة! كيف لمحتِ ذلك؟ على العموم أقدّر أنكِ جائعة. هيّا أجري مُكالمتك سريعًا سأتأخر على أولادي، وبسببك سأضطر لشراء ربطة خبز غيرها.

بُمجرّد أن فُتحَ الخطّ أمامها في أذنيها على الجانب الآخر، قذفت بكلماتها سريعًا على مسامعه دون أن تنصت وتتأكد من هوية الذي يتلقّى مكالمتها:

- السلامُ عليكم، زياد هذه أنا ريما ابنة عمّك، الآن واقفة عندَ..

ثمّ سألت الجُندي ما اسم هذه النُقطة، فأجابها بهمس..

- النقطة الحدودية تحمل اسم «المصنع» يا زياد، أرجوك تعالَ وخُذني بسُرعة فأنا خائفة جدًا ومُتعبة جدًا جدًا.

ودون أن ينتظر جوابًا ممن تُحدثه، اختطف منها الهاتف قائلًا لها وقد أدار المُحرّك:

- يكفيك هذا.. الله معك.

3

مرّت ساعة عليها، وكانت الشمس تميل على التلال الشاهقة، غير عابئة بما يجري تحت أقدامها من قتل ودمار ودُخان. وكانت هي في كل لحظة تفوتها دونَ أن يغيثها زياد.. تُخرج سيلًا من الدموع، فقد تشابهت مع السُّحب الكثيفة في قلب فصل الشتاء.

سرحت في كلّ حياتها التي مرّت وكيفَ كانت.. وأين صارت.. وإلامَ المسير والمَصير المجهول الذي ينتظرها.

وجدت شجرة أرز وحيدة قد شيّدوا وراءها غرفة للضبّاط. يبدو أن لا أحد يُقيم فيها فأبوابها مُكسرة وشبابيكها مخلوعة، وزجاجها محطّم ومنثور على الدَرج المُتهالك. لم تدخل إليها لترتاح قليلًا، بل اختارت أن تقعد على الحشائش تحت ظل هذه الشجرة البائسة مُنفردة مثلها تمامًا.

تذكّرت أحد الوعود التي بدّدها الواقع المؤلم حين تحاورت مع باسم مارديني بشأن مكان إقامتهما والشكل العام للبيت وما حَوْله قبل الانتكاسة الكُبرى بينهما.

- أين تُريدينه حبيبتي؟
- وهل غير قلبكَ يُمكن أن أحفل بالدفء.

يضحك ويقتطع ورقة بيضاء لم تزرها حروفه من دفتره الأدبي:

- انظري هُنا سنرسم معًا بيتنا وسنصنعه بأعيننا، فأخبريني بمكانك الحالم.

تفكّر للحظات وتجيب مُبتسمة، آخذة منه قلمه الرصاص المُفضّل لتكتب أعلى الصفحة:

- «كَسَب».
- كسب الواقعة بين الحدود السورية التُركيّة؟
- بلى.. هي، هي.
- يا الله.. أخبريني لِمَ اخترتها تحديدًا؟
- لأنّها ستناسبك ككاتب ومنها ستخطّ عملك الذي ستحصل به على جائزة نوبل.

يضحك فتلكمه في كتفه.. تصمت مدّعية الزعل منه. فيُراضيها بوردةٍ ينتشلها من غُصن مُترامٍ إلى جوارهما وكأنّه يتطفل عليهما أو يُشاركهما لحظة العشق:

- أرجوكِ، واصلي أمنياتك، فقد اشتقتُ للعيش فيما رتّبتِ لنا.

تواصل بتحذير بأن لا يُعيد ما بدأهُ من قبل.

- كَسب يا باسم، هي النقطة التي حصلت على جائزة أجمل أماكن العالم من حيث الطبيعة الخلاّبة، كما أنك تجد كل الموارد التي تُساعد على العيش بسكون مُتأملًا الجمال..

الخُضرة.. الماء.. الثلج.. الشمس.. الصخور.. الطيور.. الحيوانات الأليفة.. المطر.. المُزارعين.. اجتماع الفصول المناخية الأربعة على مدار العام. حياة بسيطة ومُركّبة ولا يوجد هذا التّجانس إلا في كسب.

- وأين عرفتِ بكلّ ذلك.
- زُرتها في أوّل عام دراسي لي مع فرقة الكشّافة بالجامعة. ثمّ بحثت عنها وعرفت بقيّة المعلومات وأنها من المُفضّلات عند زوّار سورية.

يُغازل غيرتها:

- وهل وجدت فيها نساء حسناوات؟

تتفوق على ذكائه:

- نعم كان هُناك فوجٌ ألماني من عشرين امرأة بين شقراء وبيضاء وسمراء، يلمعن كالثلج ويبرقن كالذهب، ويمرحن كالريش مع هبوب النسيم.

تخطف القلم منهُ مُجددًا، مُتجاهلة ما وراء كلماته حتّى لا يتشاجرا:

- أمام بيتي أريد زراعة شجرة أرز تحمل نبتها لي من لبنان خصيصًا. ليكون عندنا كل أنواع الأشجار من جُلَّ البُلدان.

4

خرجت من أحلامها المُندثرة في صندوق الذكريات على وقع «فرامل» سيّارة ماركة «جيب» تقفُ أمامها مُباشرة، ينزل منها ثلاثة رجال ورابعهم السائق بقي داخلها، يرتدون ثيابًا واحدة، عماليق، وأجسامهم رياضية، يضعون نظارات سوداء ماركة «ريبان» العالمية، مُدجّجين بالسلاح.

رآهم بعضُ رجال الحدود فيتحصّنون وراء أجولة الرمال والأحجار الموضوعة على بوابة الحدود، ظنًّا أنهم أتوا لإطلاق النار عليهم فيستعدون لُمبادلتهم العِراك.

غير أن أحد الثلاثةِ أشار نحوهم بعلامة السلام، أي أنهم ليسوا المعنيين بحضورهم، فلم تشتعل المعركة المُحتملة وخمدت نارها قبل أن تبدأ.

وفي لمح البصر اقترب منها كبيرهم.. قائلًا لها بابتسامة باهتة:

- نحنُ من طرف زياد.. تفضّلي معنا.

نهضت من مكانها، وقد توجّست خيفةً منهم.

هاتفٌ من الشجرة خلفها يُناديها بالبقاء. والحشائش تحت أقدامها

تستجير بالأرض كي ترفع نسبة حصّتها من قانون الجاذبية فتبقى ولا تتحرك قيد أنملة.

إلا أنها أخيرًا استجابت لهم، فهؤلاء من زياد وهي من زياد. حثّت نفسها على الاطمئنان لتلك الأسباب المنطقية، رُغم إشارة قلبها غير قويّة الحجّة بالريبة منهم، ومضت معهم بلُطفٍ.

5

تمّ استقبالها في حيّ الحمراء بقلب العاصمة اللبنانية بيروت. في باحةِ أحد الفنادق جلست ساعتين كاملتين، أنهت فيها الكثير من فناجين القهوة المجّانية والطعام المجّاني والعصير المجّاني، حتّى المناقيش التي كانت في توقٍ إليها، ثلاث بطعم الجبنة والزعتر والكشك التهمتها كآخر طلباتها، بعدما غلب عليها النعاسُ وبدأ الملل يتسربُ إليها وكانت في حاجة ماسّة لسرير تفرد عليه جسدها المُتعب.

قالت للنادل الذي أتى ليفرّغ الطاولة أمامها من الصحون والكؤوس المُستخدمة:

- هلاّ ناديت لي ابن عمّى زياد فضلًا؟

وقفَ مُتسمّرًا للحظة، ثُمّ اقترب منها بعدما تلفّتَ حوله بطريقة دائرية ليراقب إذا كان أحد يُشاهد أفعاله:

- أوّل مرة أرى سورية تشتاق بهذه السُرعة لما يُدبّر لها.

طار النومُ من عينيها على اندهاشٍ احتلّ معالم فكرها على وقع كلماته:

- هل أنتَ سوريّ؟
- بل لبناني، ولكنني أحبّ بلدكم كثيرًا فنحنُ وطنٌ واحد.
- إذًا ما الذي تُحذّرني منه من خلال كلماتك؟

يتلعثم ويسحب الخيط الذي بدا ليُفصح به حفاظًا على وظيفته:

- أنا؟.. لا شيء. فقط أحاول الترحيب بكِ على طريقتنا البيروتيّة. قلتُ لكِ نحن نعشقكم، وأنتم منّا ونحن منكم.. فأهلًا بكِ أيتها الدمشقية العزيزة في وطنكِ الثاني لبنان.

أضمرت في نفسها ولم تفهم شيئًا منه:

- «ما هذا الشخص غريب الأطوار».

ثُمّ أجهرت:

- من فضلك أبلغ ابن عمّي زياد أنني هُنا أنتظرهُ منذ وقتٍ طويل.
- زياد..، مَن زياد؟

استغربت وتأفّفت:

- النازل عندكم. لقد أخبرني عمّالكم الذين أتوا بسيّارة الفندق إلى هُنا أنه مُنشغلٌ قليلًا وسيحضر.

شعر أنه لا يفهم شيئًا أيضًا، وأنه قد تجاوز حدوده:

- «متل ما بدّك».. سأخبرهُ. ثمّ إننا بعد لحظات سُنهدي لكِ تلك الأغنية للسيدة فيروز فاسمعيها عبرَ سمّاعات قاعات الفُندق.. كترحيبٍ لائق بك.

6

«حملتُ بيروت في صوتي وفي نغمي

وحمّلتني دمشقُ السيفَ في القلمِ

فنحنُ لُبنان، وكرُ النسرِ دارتنا

والشّامُ جارتنا يا جيرةَ الهِمم

مِن ها هُنا نسماتُ المجدِ لافِحةٌ

ومِن هُنالكَ راياتٌ على القممِ
أنا على الدَّربِ يا وادي الحرير هوىً
بينَ الحبيبين ما قلبي بمُنقسمِ
أفدي العيونَ الشآمياتِ ناعسةً
بالنّومِ همّت على حُلمٍ ولم تنمِ
هُنّ اللواتي جَرحنَ العُمرِ مِن شغفٍ
وطِنَ بي نغمًا يبكي بِكُلِّ فمِ
قلبي مَنَ الحُبِّ كرمٌ لا سياجَ لهُ
نَهْبُ الأحبّةِ من ساهٍ ومِن نهمِ
ويا هوىً مِن دمشقٍ لا يُفارقني
سُكانكَ في البالِ سُكنى اللونِ في العلم».

7

ما إنْ عانقت الكلمات روحها، حتى شقّ على خديها البكاءُ بأمر من حنينها، وظلّت تحاول أن تستجمع قواها وتمسح قطراتها الساخنة بتلك المناديل الورقية التي تناولتها عن الطاولة أمامها.

ظلّت تُردد ثلاثًا بصوتٍ مُرتفع غير عابئة بنظرات من حولها حتّى أتاها النادل مُجددًا:

- سامحك الله يا سيّدة فيروز، أنتِ والشاعر سعيد عقل، لأوّل مرةٍ أسمعكِ في غير موضع مُحبّب إلى قلبي، لقد عززتِ جراحي بعدما كُنتِ تمنحين روحي السلام.
- ماذا قُلتِ سيدتي؟
- لا شيء، أحدّث نفسي، هل أخبرت ابن عمّي بفراغ صبري على

الانتظار.

- نعم وقد حجزنا لكِ غُرفة حتّى الصباح، إلى حين قدومه. فقط اعطني جواز سفركِ وبقيّة أوراقك الثبوتية، لإتمام الإجراءات.

تفعل بأريحية شديدة، وبمجرّد أن تدخل الغرفة تنكفئ على الأريكة مُحتضنة وسادتها الكُبرى.. تتلحّف ببطانيّة ناعمة لتخلع ما عليها من تعبٍ وتغطّ في النوم.

(28)

1

في سريّة تامّة.. يبعث برسالتين عاجلتين، واحدة إلى عائلته في أمريكا والثانية إلى وسائل الإعلام وزملائه في اتحاد الكتّاب السوريين.. لتدويل قضيّة خطفه، من داخل محبسه بين يدي جبهة «النُصرة والتي انبثقت منها النواة لعناصر داعشيّة». ساعده على ذلك أحد المُعجبين به في تلك القوة، والذي كان يُتابعه قبل أن تتحوّل البلاد إلى بُركان.

الشيخ رضوان كان قائدًا لتلك الكتيبة والتي أعلنت الاستنفار إثر أنباء عن وصول لواء من الجيش الحُر التابع للثوار، وآخر من الجيش العربي السوري التابع للنظام لدكّ هذا المكان بعد تخليص الأديب باسم ماrdيني منهم كونه شخصية عالمية وليست ملكًا لسورية فحسب.

2

وصل لواء الجيش الحرّ أولًا وكان قائدهم العقيد م/ م المُنشق عن الدولة، كرسول للتفاوض.

جلسوا ثلاثتهم إلى طاولة مُلطّخة بالدماء..

الشيخ رضوان مُتفاخرًا بسلاحه الأمريكي..

العقيد م/م مُجرّدًا من أي أداة للدفاع عن النفس فقد كان شرط الأول أن يأتيه أعزل، فوافق على مضض كون غايته النبيلة في تحرير باسم دفعته للمُجازفة.

باسم مارديني جلس مُقيّدًا بوتد متين.

قال رضوان مزهوًا بنفسه يُمشّط لحيته السوداء بمشط صغير بُنيّ:

- نُريد عشرة ملايين دولار لقاء هذا الزنديق، بالإضافة لمعاهدة بيننا ألا تعتدي قوّاتكم على قوّاتنا والعكس، وأن نتعاون ضدّ النظام فكلّنا في صفّ مُعارضة واحدة.

بضحكة ساخرة من فم العقيد م/م، وتراقص أصابعه من الغضب على الطاولة، كسنابك الخيل وقت الحرب:

- عشرة ملايين دُفعة كبيرة، سُبحان الله على الزمن. ألا تذكر حين كُنتَ تجلس أمامي مُرتعدًا في الفرع الأمني تنظر أرضًا وسروالك غارق في البول.

يخبط الطاولة بقبضته فيقعُ سلاحه أرضًا ويقول بعد استعادته، مُتمالكًا غضبه واضعًا قدمًا فوق الأخرى:

- تلك أيّام ولّت.. فلا تعش في أطلالك، وانظر حولك أيّنا أشد قوّة وبأسًا. جئتَ تفاوضني على رهينة، فافعل هذا صاغرًا.. أمّا المُكابرة قد تجعل دمي يفور وتتلاعب بي أفكار الشيطان، وأتخلص منكَ قبل أن يرمش لكَ جفن.

يبتسم م/م بثقة بالغة:

- افعلها إن شئتَ فلا أهاب الخونة والجبناء.

يضحك منه ساخرًا:

- خونة وجبناء! نحنُ في خندقٍ واحد.

ينفعل عليه ثم يهدأ مُتمالكًا أعصابه:

- خسئتَ، نحنُ أبدًا ما التقينا. هذه ثورة بيضاء نقيّة لشباب هذا الوطن الشريف الذي حاول استعادة كرامته ومحاربة الفساد ورؤيـة سورية أقوى وأجمل وفي تقدم بين دول العالم، وحوّلتموها أنتم إلى حرب دماء وفتنة ووقيعة بين الثوار، ولا أستبعد تلاعبكم بكل الأطراف، كما كنتَ تفعل في السابق، أم أذكّرك بماضيك مُجدّدًا.
- لن أجاريك في ظنّك ووهمك، عشرة ملايين.. ومُعاهدة فماذا قُلت؟

3

يُطرق عليهما باب الغرفة المُحاطة بأعوانه المُتعسكرين، ويدخل أحدهم:

- سيدي الأمير، وفدٌ من جيش النظام يُريد القدوم إلى المعسكر لمفاوضتك.

يندهش ويبتسم:

- ما هذا اليوم؟ الكل جاء ليفاوض، أدخله وبسُرعة.

تدخل عليهم حسناء بيضاء البشرة كستنائية الشعر الذي ينساب على ظهرها، ترتدي «تشيرت» صغيرة الحجم، بيضاء ذات فتحة سبعاوية على صدرها ماركة «نايك» بعلامتها المميزة على أحد الأكمام، وسروالًا من الجينز ماركة «كلفين كلاين»، وحذاءً ضخمًا ماركة «تيمبرلاند».

حدّق إليها الجميع باندهاش، فقد بدت للوهلةِ الأولى وكأنها جُنديّة في أحد الجيوش العالمية، خاصة أنّ ضابطًا من الجيش العربي

السوري كان في صحبتها.

انتفض رضوان من مكانه مُبتسمًا ببشاشةٍ:

- بسم الله ما شاء الله، سُبحان الخالق، قدٌّ ميّاس، جسدٌ ملفوفٌ بالحُسن يختبئُ خلفَ لِباس.. آهٍ على آه.

وراح يُغازلها دون مُراعاة الموقف ولا لحيته ولا حتّى وِحدتي الزمان والمكان، فقد سلب جمالها عقله تمامًا..

على الرغم من أنّ النهار يُحلّق في سمانا،

والشمس تعانق مدانا،

إلا أنّك مُضيئة كألف قمر،

وقد غطّى نوركِ على كُلّ مُنير،

فسُبحان العلي القدير.

وقبل أن يسترسل قاطعه باسم مارديني بغضب:

- ألا تستحي يا رجل.

واصل ولم يُبالِ:

- أتدرين يا سيدتي أن رشفة واحدة من عسلك قد تجعلني خالدًا حتى القيامة.

«أوووف»، قالها وكاد أن يقع أرضًا من سُكره.

سألت المرأة باسم مارديني بلكنتها الإنجليزية الصرفة فهي لا تعرف العربية ولا العامية السّورية:

- ماذا يقول هذا المجنون؟

يردّ عليها بلُطفٍ ودهشة فقد تفاجأ منذ الوهلة الأولى بدخولها عليهم:

- دعكِ منهُ إنه مريض، وهو من مُخلّفات عقود الاستبداد في الشّرق الأوسط. أخبريني ما الذي أتى بكِ إلى هُنا؟ ليس هو المجنون بل

أنتِ! كيف تُخاطرين بحياتك على هذا النحو؟

تتجه إليه، مُتخطيّة الجميعِ، مُرتمية في أحضانه باكية:

- قد علمت من الصُّحفِ نبأ اختطافك، ولا يُمكن لامرأةٍ عاشقة مثلي أن تقف مكتوفة الأيدي. لقد تكلّمت مع السفير البريطاني في دمشق ورتّب لي كل شيء، وها أنا أمامك لأنقذك.

يندهش رضوان، ويصفق بيديه ضاربًا أخماسًا في أسداسٍ، ماشاء الله زيادة الخير خيرين، إن لدينا بدل المتفاوض الواحد متفاوضين.

ثمّ يقول مُحدّقًا إلى باسم:

- من هذه أيضًا أيها الزنديق؟ كم امرأة أوقعت في شباكك؟ كم واحدة غير ابنة عمّي ريما خرّبت حياتها؟

يتجاهله.. ويقول ثائرًا:

- كاترينا.. عليك الذهاب من هُنا فورًا.. وحين يفكّ الرّب أسري سوف أهاتفك.

يُسكته رضوان زاعقًا فيه:

- ماذا تظن نفسك فاعلًا، قد أقتلكم جميعًا، فاصمت حتّى أقرر أنا لا أنت.

يحاول مدّ أحد أصابعه إلى خدها النّاعم، فتلسعه عليها بضربةٍ من كفّها:

- انظري يا حلوتي، كُنّا قد عرضنا عشرة ملايين دولار ومُعاهدة وبما أن الخيرات تنهال علينا اليوم، فإننا نُضيف إخراج كلّ المُحتجزين من أنصارنا داخل السجون السورية وفي سجن روميّة اللبناني حيث يُقيّد من تمّ اعتقالهم في طرابلس.

واعلموا.. يشفعُ له عندي أنه بالفعل لا يعرف مكان ابنة عمّي ريما المفقودة، وإنّ ما أعاقبه عليه هو إغواءهُ لها وتخريب عقلها وقلبها

وحياتها، وكذلك كونه مسيحيًّا.

يُقاطعه باسم بحُزن:

- ألا تعرف مكانها أنت؟ كُن صادقًا، أقتلتها أم بعتها؟

يصمت لوهلةٍ، يردّ عليه مومئًا برأسه:

- ياسمينة الشام كلّها لا تُباع ولا تُشترى، إنما تُعزّز وتُكرّم. والآن أخبركَ شيئًا أصرِّحُ به لأوّل مرّةٍ.. قد أحببتها مثلك تمامًا. ويشفع أيضًا لك.. في الإبقاء على حياتك حُبّك لها، وأعلم أنها كانت تُحبّك وحدك.. للأسف.

4

تهمس كاترينا في أذن الضابط المُصاحب لها، فيُقبل على رضوان ليدخل في نفسه خيفةً، وبصوت رخيم مُرتفع:

- اسمع.. عرضنا لك هو مليون دولار دون قيد أو شرط.

يرهبه، فيتذكّر ما كان يفعله به العقيد المقبور س/س من شتّى أنواع العذاب:

- بسم الله، أوافق. هلمّوا إليّ بتوقيع الميثاق لتمرّوا به من حواجزنا.

من عبد الله الشيخ رضوان أمير ريف دمشق ونواحيه، إلى كل جنودنا المُتمترسين لحمياتنا: قد أطلقنا سراح عبد الصليب باسم مارديني.

ينتقدهُ العقيد م/م، جازًّا على شفتيه:

- دع الأديان وشأنها لربّها يا رجل، فالإسلام بريء مما تفعل.

يُربّت باسمُ مارديني كتفه بعدما فكّ قيده، قائلًا بابتسامة:

- صديقي العزيز، إنّ محمّدًا نبي الإسلام أخو عيسى. وأتباعهما أخوة، وقبل كلّ شيء نحنُ بشر انحدرنا من شجرة أبونا آدم

وحوّاء. هذا وأمثاله لا يسيئون إلى الإسلام كما أن المتعصبين من المسيحيين في ملتنا لا يسيئون إلى المسيح. بل يخطئونَ في حقّ أنفسهم أمام الرّب وسيلقون جزاءهم.

مُشكلة أمتنا العربية كلّها أنه يترأس ذمامها من السياسة إلى الدين أصحاب المصالح الضيقة وأهل الفتنة.. مسلمين ومسيحيين ويهود.. بكل الفروع داخل الدين الواحد.. سُنّة.. شيعة.. دروزًا.. إلخ. كاثوليك.. أرثوذكس.. بروتستانت.. موارنة.. موّحدين.. إنجيليين.. إلخ.

واعلم أننا كمسيحيين، وهي شهادة لا يُنكرها التاريخ، قد عشنا في أبهى عصور ازدهارنا في ظلّ رايتكم، بدءًا من فتح جيوشكم للشام ومصر والقدس، والمعاهدات المتوالية في حفظ حقوقنا وعدم الإجبار على ترك ديننا، ختامًا بما يذكرهُ تاريخ الأندلس أننا بلغنا ذروة المال والمناصب السياسية والاجتماعية والعلمية، تحت حكم الأمراء المُسلمين، وحتّى اللحظة نحن أخوة لولا عقود التخلّف التي شهدت انهيار الخلافة العُثمانية وعقب سقوطها، لنعيش جميعًا في فتنة، على الرغم من أن هويّتنا واحدة والمحبة تسكن قلوبنا. فمحمّد نبيّ الرحمة والمسيح جاء بالمحبّة، وليسامح الرب من يعمل على توسيع الشقاق بين الناس وزرع الكُره بينهم.

يميلُ العقيد م/م عليه ويحتضنه:

- ليت الحياة توقّفت عند انضمامي إليكم كجاسوس عليكم في صورة المُهندس الزراعي إياد. ليت الزمان توقّف بي عند أوّل تجمُعٍ لنا بمقهى نورس الكُردي.

يوقّع الشيخ رضوان بختم الإمارة على الوثيقة، ويجلس وحيدًا

يعدّ المليون دولار وهو لا يكاد يصدّق، محملقًا إلى كل الاتجاهات.

5

يجلس باسم ماrديني مُنتظرًا إقلاعه في مطار دمشق الذي عاد للعمل استثنائيًا طيلة اليومين السابقين لحظّه الجميل وحظّ عاشقته حتّى الثمالة الإنجليزية كاترينا.

قلبُهُ يغلي كالماء في القدر وبدرجة ألف درجة حرارية في البحار المسجورة، يتصاعد من صدره زفيره المُتبخّر مُصاحبًا بآهاته.

عقله يُصارعه، وروحه تعيش في لحظات فاصلة، بين رغبتين متوهّجتين..

بقاء بلا ذهابٍ، للبحث عن حبيبته المفقودة ريما، مهما يكلّفهُ الأمرُ مُجددًا.

رحيلٌ بلا عودةٍ، لبدء حياة جديدة تفتح فيها مدينة الضبابُ له أفاقًا مُغايرة، يُخلّف فيها وطنه وحبيبته الموجوعين المعجونين بالدماء والألم والتخلّف والكُره.

لمَحت كاترينا بين جفنيه أحلامه التي تموت ومقاومته بترددٍ البقاء معها، فقالت له بهدوء العاشقة التي يبدو منها الاتزان، الممتلكة في داخلها عكس ما تجهر:

- إن شئتَ بقينا هُنا وفتّشنا معًا عنها واصطحبناها إلى لندن معنا.

ردّ عليها بعد أن أخذته من شروده بتكرار كلامها:

- أتقولينَ ذلك وأنتِ التي جئتِ إليّ لأكون لكِ وحدكِ؟

تنهّدت وزفرت آهة مُطرّزة بالوجد:

- أتيتُ إلى هذه البلاد التي تعيش على صفيح ساخن، من أجل إنقاذك من الموت. وقلبُكَ الذي ينبض هو بالنسبة لي ولك الحياة،

فلا يُمكنني أن أسجنه فيموت مُجدّدًا ولا يُمكنني أن أحتكرهُ فيعيش في جسدٍ بلا روح.

أردفتْ وقد تسابقت العبرةُ دون إرادتها للهطول بين يديه التي تُحطيها مُتكئة عليها برأسها..

- أنتَ لم تتعلّم كلّ شيء عن النساء بعد أيها الشّاعر.

يمسحها بكفّه الرقيقة وعدّل وجهها إلى وجهه:

- أتتحملين شريكة لكِ؟

قالت بابتسامة حُزن:

- بل ننتشلها مما هي فيه، وأدعكما وحدكما في بلادي بعد تهيئة كل الأوضاع لكما.

وأردفت بثقة وابتسامة محاولة من خلالها ممازحته:

- أنسيت أنّي أكبر مسؤولة ثقافية في بريطانيا بعد وزيرنا العجوز، ومُرشّحة لأن أكون محلّة لأصبح أوّل امرأة شابه تتقلّد هذا المنصب. لستَ وحدك صاحب نفوذ ولا المشهور الأكثر بريقًا في مُحيطك.

ضحك هو وبكت هي، غضب فكتمت دموعها، قالت بمنطقيّة:

- الحُبّ لا شراكة فيه. أنتَ ربّما تأثرت بالواقع العربي أن الرجل يكون زيرًا للنساء، لذا ترى في الجمع بين امرأتين أمرًا عاديًّا. لكنني أقول لكَ.. قد قطعتُ شوطًا كبيرًا في الحُبّ حتّى وصلتُ إليك. وأرى أن امتلاك قلبٍ، أصعب من امتلاك كلّ كنوز العالم. لكنّ امتلاك قلبين، أسهل من قصّة أولها فرح وآخرها حُزن. فالأمر الأول يحكمه الضمير.. والثاني يحكمه الغش والخداع. ومع هذا فإنّ العاشقين اللذين يخلصان أحدهما للآخر ينجحان في الاكتفاء الذاتي حتّى الموت.

وربّما تصعد روحاهما معًا.

سألها باندهاشٍ:

- من أين لكِ هذا الكلام.

ضحكت ساخرة منهُ:

- يا عزيزي.. تعلم أنني لم أبلغ مكانتي هذه بسهولة، فقد تخصّصت في تراجم العرب، ووجدت فيلسوفًا فقيهًا عندكم اسمه «ابن حزم» يقول بمثل هذا، فأعجبني وقررتُ الحصول عليه، لأنه حقيقة، وقد لمسته معك وآمل أن يستمر.

6

همّ بالردّ عليها.. لكنّهُ انتصب في مكانه فجأة وقد سرّ قلبه مما رأى، ركض كطفل متناسيًا أوجاعه وتعبه من الأسر.. طار كفراشة ترتمي على زهرة ربيعية وتحتضنها. بعد دقائق أتى بها سعيدًا، ممسكًا إياها من يديها. نهضت من مكانها واحتضنتها أيضًا بهدوء:

- هذه أمّي، ملاكي التي حملتني تسعًا وربّتني دهرًا.

ابتسمت وعانقتها مُجدّدًا:

- بالطبع أعرف، رأيت صورها معك في أكثر من مُناسبة أثناء تصفُّحي لصورك على صفحتك الشخصية للتواصل الاجتماعي.

رمقها بنظرة مُعاتبة.. فنهته الأمّ ضاحكة:

- اتركها على راحتها فهي تستحق كلّ الخير.

سألها بدهشة:

- وأنت يا أمي لماذا قطعت كلّ هذه المسافة من أمريكا حتّى هُنا، وماذا لو كنت سافرت، وماذا لو...

وضعت يدها على فمه وضمته إلى صدرها بقوّة وقد عطّرت سطح

ظهره على ملابسه بدمعها:

- هل كنت تريد مني الانتظار كي أستلمك جثّة هامدة.. لقد جئتُ لتسليم نفسي محلّك أو ليقتلوني معك. وحمدًا للرب، أنّي حين نذرتُ الشّمع والأمنيات للعذراء مريم.. في إحدى الكنائس هُناك، تمّت الاستجابة لي أخيرًا.

سألتها كاترينا بشغفٍ:

- وماذا قُلتِ يا ماما؟
- دعوتُ ورتّلتُ الأسفار أن أكحّل عيني منه أوّلًا عندما تطأ قدماي مطار دمشق.

وقبل مُغادرتي المطار رأيتُ محطّة تلفزيونية إخبارية تُغطّي نبأ إطلاق سراحه.

قاطعها برفق:

- نعم كانوا هُنا قبل قليل وأجروا معي لقاء.

قاطعته ببسمة:

- نعم.. رأيتُكَ وعرفتُ أنك هُنا منتظرًا طائرة لندن.

ثمّ نظرت إلى كاترينا بإعجاب، وغازلتها مملِّسة على رأسها وشعرها الحريري:

- بسم الرب عليك، إنها تُناسبك تمامًا يا باسم.

قال بخجل كي لا تُحرج كاترينا، ومحاولًا أيضًا أن يُبعدها عن التفكير بها كزوجةٍ:

- أمّي ليس هذا الوقت المناسب لمثل هذا.

بغضب في محاولةٍ منها لتغيير مسار تفكيره وإثناءهُ على قراراته المُضادة:

- إن لم يتم الإكليل الآن وفي ساحة المطار ويشهد عليك العالم

عبر القنوات التي ساندتك في قضيتك البائسة، فسوف أفارقك حتّى الموت.

وحين تصعد روحي إلى جوار الرب لن أطلب لك الغفران، ولن أقبل منك تراتيل الرحمة.

- أمّي، ما هذا الهُراء، مُحال ما أسمعه مِنكِ.
- يعني الناس تشهد معك أحزانك وأنت لا تُريد أن تشهدهم أفراحك.
- ليس بتلك السّرعة يا أمي، ثمّ أنه لا يوجد أحدٌ بابوي هُنا لإتمام الزواج.

قامت بشبك يدهُ في يد كاترينا وطلبت منهما البقاء دقيقة.

7

غابت عن الأنظار وعادت مُحمّلة بباقاتِ الورد يُرافقها الإعلامُ وقدّيسٌ كان متوجّهًا للعلاج في الخارج، استجاب مُرحّبًا بدعوة الأم قائلًا لها:

- يُشرّفني ذلك، لعلّي بذلك حين أقرّب شخصين أحدهما من الآخر، أن يجعل الربّ لي شفاءً عاجلًا، أو يتجاهل برحمةٍ خطاياي في الأبدية.

دقيقة أخرى ونودي على كاترينا وباسم في الميكروفون الداخلي لصالة الانتظار بأن الرحلة ستقلع بعد خمس دقائق متوجهة إلى لندن.

وقف ممتنعًا باكيًا، وفكّت كاترينا شبك إحدى يديها رويدًا رويدًا منه، وابتعدت عنهُ قليلًا لتجلس في إحدى الزوايا مُحتضنة نفسها حزينة.

قال لأمّه لائمًا إياها:

- ها هو يُكسَرُ قلب فتاةٍ من جديد، كما حطّمت قلب ريما.

أخبرته باتزان:

- إنّي خيّرتُكَ فاختار يا بُنيّ. فتاة من غير دينك.. لا نعرف عنها شيئًا.. ميّتة أم حيّة.. مقتولة أم مأسورة.. متزوجة أم مُغتصبة.. داخل البلاد أم خارجها.. أنتَ ما زلت داخل قلبها أم بتّ خارجه..

ثمّ بحُزنٍ شديد واصلت:

- يا بُنيّ، كُنتما معًا ولم تظلاّ معًا.. هذه إشارة من الربّ.. فلو كان بينكما نصيبٌ لما افترقتما. فلا تُضيّع هذه التي تُناسبك تمامًا.. من دينك، وتعلوك مركزًا اجتماعيًّا.. ومالًا وسُلطة.. وفوق هذا تحبّك بجنون.. جاءت مُجازفة قبل منّي لتضحّي لأجلك وتنقذك..

قال باستسلام:

- أوقعتِني بين أمرين كلاهما مُرّ. رضاكِ وردّ الجميل لمن أحبّتني دون انتظار شيء. ونسيانَ ريما العقّاد، وما أدراكِ ما الياسمين. سأعيش والجمر يسكنُ ضلوعي.

ردّت عليه بثقة:

- ستنسى يا بُنيّ، الحُزنُ يبدو كبيرًا ويزول مع عقارب السّاعة.

ذهبت لتأتي بها لتقوّمها وتبشّرها.. متفوقة على أحزانها، وشبكت أيديهما مرّة أخرى.

أجرت لهما زفافًا مهيبًا وسط جمع من كلّ من كان في المطار حتّى إيصالها إلى بوابة المرور للطائرة، مُغرّدة طقوس الزواج الشامية:

«أويها والولد الزين للبت الزين
أويها والرب يخزي عنُن العين
أويها وسوري اتزوج إنجليزية
ورح يجيب ولاد حلوين».

(29)

1

نامت من العاشرة مساءً لتستيقظ في اليوم التالي.. الثانية عشرة ظُهرًا. أربع عشرة ساعة متواصلة، دونَ أرق أو انقطاع أو كوابيس. كأنّها انتقلت بروحها إلى الأبديّة وما أرادت العودة لولا أنّ عمرها المخطوط في صحيفتها لم تتبخّر آخر أرقامه بعد.

نهضت لتقعد على الفراش نِصف قعدة.

تثاءبت مرّتين، وقالت في كلتيهما:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

ثمّ أعقبتهما:

- أصبحنا وأصبح المُلك لله، يا رب يا كريم يا فتّاح يا عليم. اللهمّ صلِّ على مُحمدٍ وآل مُحمّدٍ وصحبه الأطهار.

قلّبت ببصرها كل محتويات الغرفة..

وجدت وردًا أحمر على طاولة تبعد عنها خطوات..

هرولت نحوها سعيدة، احتضنت الباقةُ ثمّ وضعتها مكانها وأمسكت ببطاقة كانت في مُنتصفها وقرأت:

«أتمنّى لكِ إقامة ماتعة في بيروت يا حلوتي».

ظنّت بلا شكٍّ أنها مِن زيادٍ ابن عمّها.

فتحت الدولاب كحُبّ استطلاع ليس أكثر فما كان معها شيء، إذ

إنها فقدت كل حاجياتها في رحلتها الشّاقة.

تعجّبت حين وجدت منشفتين كبيرتين بلونٍ أبيض وأصفر، وملابس راقية عصريّة ذات طابع إسلامي مثل تلك التي تقتنيها دائمًا وترتديها.. استيراد تُركيا، وزجاجة عطر برائحة زكيّة لا تُثير الآخرين، وحذاءً أسود بلا كعبٍ كما تُفضّل.

ظنّت بلا شكٍّ أنّ ابن عمّها رتّب لها كل هذا للخروج فور الانتهاء من إقامتها ها هُنا.

2

اختارت المنشفة الأولى، وتوجّهت مُسرعة إلى الحمّام الذي كانت أبوابه مُشرعة يُناديها بشوق.

أغلقت على نفسها مُنتشية..

خلعت ثيابها المُتسخة قطعة قطعة.. وخلعت معها آلام الأيام السابقة.

وقفت أمام مرآةٍ كبيرة تبتسم في راحة وكأنها تُسقط عن كاهلها الهموم التي اقتحمت عالمها ولم تُفارقها بعد. هي محاولة منها ليس أكثر للنسيان المؤقّت.

تجرّدت من كُلّ شيء تمامًا..

طالعت المرآة مرّة أخرى قبل أن تشمئز من اتساخ جسدها الرشيق. دخلت البانيو بسرعة واستحمت لساعةٍ كاملة، وغيّرت الماء الدافئ والصابون أكثر من مرةٍ.

انتهت وعادت واقفة مزهّوة بجمالها الأخّـاذ، تتأمل قطعها المصنوعة بعناية من قبل الخالق.

شعرها الأملس الذي يتقطّر منه الماء.. تُنشّفه بأريحية كاملة

وبشرتها البيضاء كجبل ثلج بكر في شتاءٍ لا ينتهي.

عيناها المبحرتان في بركة ماءٍ صافية.

ثغرُها ذو الشّفتين الورديتين كلون تُفّاحة حمراء أوشكت على النضج.

بطّتا رجليها المكوّرتين نُضجًا وحكمة من الحجم المتوسط.

خصرها الرشيق المُفعم بالعسل.

حتّى قدماها اللامعتان المختلطتان باللون الكُرمُزي، تُزيّنها أصابعها كلؤلؤ البحرين.

3

كُلّ هذا كان وصفَ أحد الرجال الذين يُشاهدونها في كاميرا للتجسّس وضعت خصّيصًا لها.. كانوا يُسجّلون أفعالها بفيديو لعرضه القريب لصاحب النّصيب.

قال كبيرهُم لطبيبة تجميل لبنانيّة تجلس إلى جوارهم وتشاهدها مُتأملة إياها وقد سرحت في حُسنها هي أيضًا حتى اشتهتها لميولها الشاذة:

- ما رأيكِ؟

أجابت بدلعٍ:

- ثمرةٌ من الجنّة لم تُقطف بعد.. قطعةٌ حلوى دمشقيّة شهيّة.. دُرّة لا تقدّر بثمن.

عنّفها قائلًا:

- كُفي عن سدّ حاجتك الانحرافية الآن، وتوقّفي عن الغزل، وأفتينا برأيك من أجل العمل وإلا أبدلتك فورًا.

قالت باحترافية:

- حاضر سيدي، هي مُناسبة.. بكرٌ لم تمتد إليها يدُ أي عابث، غير متزوّجة، ولا مخدوشة من أحدهم حتى لمسًا.

سألها مُستغربًا:

- وكيف عرفتِ كلّ هذا؟

- كلّ قطعة فيها من أوّل رأسها.. مرورًا ببؤبؤ عينيها.. جسدها المُتناسق.. بشرتها غير المجروحة ولا منمّشة..

تُشبه إحدى النساء اللواتي يأتين إليّ وأجري عمليات تجميل لهُن في عيادتي.. بعد الانتهاء منهنّ طبعًا، وأجعل جلودهنَ أنعم من الحرير لو أردنا المُقارنة.

قاطعها بعُنفٍ:

- كفى.. كفى.

ثمّ أمر بطردها فورًا بعدما قذف في وجهها ألف دولارٍ ثمن استشارتها.

تجمع الورقات العشر بقيمة مئة لكل واحدة.. وتذهب سعيدة.

4

كان بقيّة الرجال يتأملون ريما خالعين الحياء من نفوسهم وضمائرهم، كلٌّ منهم شارد في كيفية النهل من أنهارها البِكر حسب قوّة تخيله واحتماله.

عنّفهم أيضًا ليعيدهم إلى صوابهم مُحذّرًا:

- هذه البنت مُختلفة تمام الاختلاف، أريد الإبقاء على عذريتها. وأريد منكم احترامها وتبجيلها، فهي من نوع ذكيّ خاص، ولا أريدها أن تشعر بالوقيعة. حتّى نرى رأي أميرنا وماذا سيفعل بها. وإلا والله لو أصابها مكروه أو عَلِمت بأمركم وفضحتنا.. لأقتلنكم

شرّ قتلة لو مسّ أحدكم طرفًا منها.

ثمّ أغلق بنفسه كاميرا التسجيل التجسّسية، بعدما أخذ بضع ثوانٍ مثلهم ناهشًا إيَّاها مُتنهّدًا مُعجبًا بجمالها عارية. مُتمنيًّا في نفسه الزواج منها بدل زوجته التي تُشبه مُخبرًا سريًّا:

– هذا يكفينا. ضعوا لي المقطع على أسطوانة مَرنة.

5

كانت فيروز سُليمان تُرتّب، على إحدى ضفتي النيل في ساعةٍ مُتأخرة، الكلمة التي ستُلقيها على هامِش فعاليّات «تطورات الربيع العربي في المنطقة وحقوق الإنسان» بإشراف من الأمم المُتحدة التي دعتها كواحدة من كبار الصحفيين والحقوقيين في الشرق الأوسط.. عبر منبر خاص تصفُ فيه حال الأمة العربية بحريّة، لما عُرف عنها من نزاهةٍ وحيادية كونها لا تنتمي لأي فصيل سياسي أو ديني، أو حتّى تُغريها الشعبويّات والمصالح الضيقة. هذه الفعاليات المزمع إقامتها بعد أيام من الآن في القمّة العربية الاستثنائية في قلب الدرّة النادرة لبنان.

جلست تكتب مقالها أو بحثها أو قصتها مُستنبطة إياه من الأشياء الواقعية التي لامستها طوال سنوات حياتها. وأثناء شرودها وغوصها في أعماق خيالها البليغ، يفاجئها شرطيٌّ من المباحِث يقطع خلوتها بهمجيّة:

– ها.. فيه إيه؟

– يي، العمى بقلبك ما أضربك فِل من هون!

– طب بتعملي إيه؟

– يا إلهي.. ما أغلظك. شو فيه يا زَلمى؟

- وكمان أجنبية، إنتِ متعرفيش القعدة في الوقت المتأخر ده على شط البحر غلط. شكلك إرهابية عميلة وعايزه تفجريه.
- يا الله شو هيدا الغبي.. نزعلي مرائي.

شوف يا عم الحج ده ماسموش بحر ده نيل وفي فرق ما بينهم.. كمان أي إنسان سوري لبناني صومالي من حقه يقعد هنا وفي أي وقت ولا لازم يكون برخصة زي بتوع «فيلم الدعارة بالهرم جهارًا نهارًا».

كمان أنا مصرية يا سيدي؛ كل الحكاية كنت متقمّصة إحدى الشخصيات اللي هتكلم عنها في مؤتمر القمّة العربية، وكلّمتك بغير لهجة.. ونسيت إن الجهلة أمثالك موديّنا في داهية.

- القمّة العربية مرّة واحدة.. وسعت منّك أوي.

تضحك متألمة من حاله وحال الواقع:

- طب تعرف صافيناز؟

يسبهل وينتشي على نفسه:

- دي الصاروخ، مكنة بنت اللذين.
- ينيّلك حيحان.
- يعني إنتِ كاتبة.. طب متغلطيش خلاص وهاتي سيجارة ولا حبّة بوني بدل ما اعملك محضر تحرّي.
- لا أستطيع إعطاءك شيئًا لا أدّخن.
- عوجتلي لسانها تاني في الليلة المش فايته دي.. دي من القاعدة دي ولا إيه.
- ولا قاعدة ولا واقفة خود دول شوية كاجو هيظبطوك في البيت.
- إيه كاجو ده فياجرا؟

- يا الله دخيلك رحمتك..
- لا يا ستّي إنتِ شكلك ممسوسة أصلًا وهي مش ناقصة ومش عايز منّك حاجه.

6

(أمين سمير.. أمين سمير).

يردّ على جهازه اللاسلكي..

- هششششش حاضر حضرة الظابط جاي اهو بس كنت في الحمام..
- متنساش تجيب كام عيّل معاك عايزين نصطبح ونقفلنا كام محضر.
- مرك ياباشا اتفضّل سيارتك.. سلام سلام سلام سلام.

والله لو عقلك كان فيكي كنتِ هتبقي أحلى محضر.. بس إنت شكلك نمرة وملكيش في الحوارات، حتّى في الدعارة شكلك بنت ناس ومش هندخّلها على وكيل النيابة.. سلام يا مجنو..

تبتسم له ابتسامة شفقة وتعاود كتابة ما بدأتهُ على ضوء القمر الخفيض وشمعة الأنوار للبوارج النيلية الشفيفة.

تردّ عليه بنيّة شكر الله على نعمة العقل.. لا شكره على تركها:

- الحمد لله.

(30)

1

تستقبلها في مطار رفيق الحريري صديقتها اللبنانية الصحفية الحقوقية ديما جُبران. تُعانقها كما لو كانت قطعة من لحمها. تُسلّمها حصتها من الورد اللبناني الطازج الملفوف بعناية وحُب.. المتأنق الرشيق ببهاء:

- هذهِ الحفاوة تُناسب الأميرات، وأنا صديقتك فحسب، نلتقي في السّنة الواحدة مرة ولا نلتقي أحيانًا.

بابتسامة بيروتية رقيقة تعلو وجهها النضر:

- وهل يليق بأهل أمّ الدنيا إلا استقبالًا ملكيًا. حتّى ستّ الدنيا بيروت قد تلومني وتعاقبني بالجلد أو النفي لو قصّرت في حق ابنة النيل.

تحتضنها بشوق وعُمق وإجلال، تقع عبرةٌ على أرضية المطار الرّخامية المُزدانة لمعانًا وجمالًا، تُغنّي لها فخرًا وإعزازًا:

- «بحبّك يا لبنان يا وطن ديما بحبّك

بشمالك بجنوبك بسهلك بحبّك».

تُقهقهان من السعادة.. تتوجهان مُباشرة إلى أحد مطاعم صخرة «الروشة» لتناول ما لذّ وطاب.

2

يدور نقاشٌ قصيرٌ بينهما:

- فيروز، أخبريني هل انتهيتِ مما ستقولينه في المؤتمر بعد أيام؟
- والله يا ديما.. أنا في حيرة من أمري، فقد أفسد عليّ أحدهم في القاهرة ما كنت أكتبه، فمزّقتهُ.. لكنّ فكرة ما تلوّح في آفاقي لأفعلها.
- وما هي؟
- البحث الميداني مُباشرة، أيوجد مُخيّمات للسوريين داخل حدودكم؟
- لا بل في الجانب الآخر، ولكن في الحالتين المسافة قريبة من بيروت، ساعة من الزمن ونكون هُناك. سورية ولبنان قطعة واحدة يفصلهما جبلٌ. لكن بماذا تُفكّرين؟
- الذهاب إلى هُناك للوقوف على مُلابسات ما نسمع في الإعلام، أريد تصديق أو تكذيب هذا بأم عيني.
- ما رأيك بالذهاب إلى مخيم للفلسطينيين؟
- لا بأس، وإن كانت لديّ تجارب كثيرة في هذا الشأن، لكن أنا أريد أهل سورية فقد سمعتُ عن مآسٍ كثيرة.
- لكِ هذا، دعينا الآن نتوجّه لفندق إقامتك، ثمّ نرى بعد راحتك في مُقبل الأيام ماذا يجب علينا فعله.
- لا تقلقي معي تصاريحي الصحفية باجتياز المعابر.

3

تشاءُ الأقدار أن تنزل للإقامة في الفندق الذي تقيم فيه ريما العقاد.

في اللحظة التي تدخل فيها إلى باحته، تهبط ريما من أعلى عبر المصعد.

تلتقيان وجهًا لوجه..

فيروز تحدّث ديما في أمور فرعيّة.

ريما تمشي برهبة، وسط الحراسة المُشدّدة تلك التي أتت بها في السيّارة الجيب وتأخذها الآن إلى مكان غير معلوم.

تتصارع نبضات قلبها بطريقةٍ لم تشهدها من قبل، وكأنهم ذاهبونَ بها لإلقائها من فوق ربوة.

غير أنها تتغلب على كل ذلك لرغبتها الأكيدة في تصديقهم.. أنّ ستُسلّم لابن عمّها زياد.

تأتي عين كلٍّ منهما في عين الأخرى دون التركيز..

لوهلةٍ تنظر ريما إليها بعمق فهي تعرفها تمام المعرفة..

وللحظةٍ تنظر فيروز إليها محاولةً استجماع ذاكرتها التي حدّثتها بأنّ وجه تلك الفتاة مألوفٌ لها.

اصطدمتا إحداهما بالأخرى برقّة سيّدتين جميلتين.. تأسفت لها فيروز..

همّت ريما العقّاد أن تحدّثها قبل الاصطدام وبعده حين مضت كلتاهما في طريقها.

غير أن «البودي جارد» الذين كلِّفوا بأوامر صارمة ألا تنبس لأحدٍ ولو ببنت شفة، منعوها بنظرات قاتلة أضاعت من على لسانها الكلمات، وبحّ صوتها الذي نطق اسم فيروز بالفعل ولكن بطريقة مهموسة لا تُسمع حتّى أذنيها.

جرّوها سريعًا إلى الخارج وأركبوها السيارة، في حين كانت فيروز وقبل أن تدخل المصعد متوجّهة لغرفتها.. لا تزال تحاول تذكّر الفتاة التي رأتها، لكن دون جدوى..

أضاعت ديما شرودها وتركيزها مع ريما التي غابت عن الأنظار.

- ما الأمر يا فيروز؟

ابتسمت قائلة:

- لا شيء صديقتي العزيزة، ثمّة عارض وانتهى.

4

بتقديمها خطوة وتأخيرها أخرى تصعد إلى الطابق الثاني لعمارة سكنّية مكوّنة من عشرة طوابق تقعُ بمنطقة «الداون تاون» ببيروت، بين زيتونة باي والمسجد الأزرق حيث يرقد رفيق الحريري.

يُقال عن هذه العمارة التي تطل على البحر الأبيض المتوسط أن فيها يسكن كبار مشاهير لُبنان، حسبما أخبرها أحد المُرافقين الذين شكّوا في ثقتها بقبول الدخول من البّوابة، فحاول جلب جزءٍ من اطمئنانها إليهم.

نظرت إلى معروضات أحد المحال التُجارية وتأكدت من كلمات الرجل حين قرأت أن سعر جاكيت وسروال وحذاء أسود من الجلد الطبيعي هو مئة وعشرون ألف دولار أمريكي.

كاد أن يُغمى عليها من السعر وحملقت شاخصة البصر واضعة يدها على صدرها، ليتدخل الحارس نفسه مرة أخرى مائلًا عليها هامسًا في أذنها:

- ألم أقُل لكِ أن هُنا كبار الشخصيات، «هيفا وهبي.. عايشة هون».

ردّت بدهشة:

- وإن كان، أتدري ماذا يفعل هذا الرقم من المال.. إنّه قد يُغني أشخاصًا مدى حياتهم. وهل يشتري من هُنا أحد.
- المجانين يا سيدتي.. المُحتالون.. المُترفون.. ممن يستولون على كل شيء ويحرمون الشعب اللبناني من كلّ ما هو جميل.
- وعامة اللبنانيين ماذا يفعلون إن مرّوا من هُنا؟

- مثلك، لو كانت أوّل مرة.. وفي المرات التالية يلتقطون الصور التذكارية إلى جانب هذه المعروضات الباهظة الثمن.

تضحك ساخرة، وتستسلم إلى مصيرها في شوق للقاء ابن عمّها.

5

أجلسوها في صالون مُذهّب، يُشبه تلك التي تراها في الأفلام والمسلسلات المُنفصلة عن الواقع الفقير.

ظلّت تُطالع كل ما حولها بعجبٍ وانبهار.. مصابيح الكريستال الزاهي.. الجدران المُزيّنة بلوحات زيتيّة عملاقة نادرة.. السجّاد الإيراني المُطرّز بالأصالة والجمال.. وقد عرفته لوجود إحداها مورّثة، أبًّا عن جد، في بيتها الشامي المُدمّر الذي فارقته جبرًا.

شعرت بالسعادة وأسرّت:

- «ربّي يوسع عليك يا ابن عمّي، شو ها الغنى».

لحظات ويدخل عليها رجُلان ضخمان.. يتوسطهما اثنان مزّهوان بنفسيهما.. أحدهُما بزّي خليجي وكرش يتقدمه من التّخمة والسّمنة.. والثاني بزيٍّ ديني أصولي ولحيّة كثّة تُشبه تلك التي تقلّد بها ابن عمها رضوان. وجوه الثلاثة مُكفهرّة والوجه الرابع لذلك الثّري مُبتسمٌ بمكر.

6

ولأنها لا تعرفهم جميعًا انتفضت في مكانها:

- أين ابن عمّي زياد؟

ظلّت قُرابة الدقيقة تنتظر أن يأتي من حيث أتوا قبل قليل. يئست في الحصول على مُرادها، وباءت محاولاتها بالفشل.. فاستسلمت مُجبرة وهم ينظرون إليها بنهم.

قال الشيخ الأصولي لسيّدهُ مُبتسمًا بإجلال:

- ما رأيك يا أمير؟

ردّ عليه بعد شرود دام لدقيقة صاحبه تمليس على أحد جوارحه السُّفلية:

- فيم تسألني «إيش هذا». ظلمها الفيلم الذي أتيت به عنها.

بدأت ترتبك وزاد خوفها وقلقها.

وواصل حديثه وقد أوشكَ على التهامها:

- إنها على الطبيعة تساوي كلّ النساء التي وطأتها في حياتي. دعني أَرَ إن كانت حقيقة أم خيالًا.

اقترب منها وحاول مسكها في مكانٍ حسّاس، فلكمته وأبعدته.

قهقه من فرط العظمة والشهوة:

- ما شاء الله، يعجبني كثيرًا هذا التمّرد وتلك القوة في المرأة.

صرخت فيهم:

- أين زيااااااد؟

ثمّ حاولت الهروب فدفعها السّلفي أرضًا، نهضت وكرّرت محاولتها فدفعها إلى مقعد في الصالون، ووقف فوق رأسها الحارسان الشخصيان لأميرهم مُحّذرين إياها من الحركة.

سأل بدهشةٍ أميرُهم الرجلَ السّلفي:

- مَن زياد هذا يا شيخ؟

- هو ذلك الشخص الذي رفض التعاون معنا، فأرسلناهُ إلى السماء.. وأرسلنا إلى دمشق مَن يُحرق معمل الغزل الذي يملكهُ، انتقامًا منه.

صعقت لسماع هذه الأنباء..

انهارت بُكاءً وحاولت الاستيضاح لعلّ كل هذا غير دقيق وعار

من الصّحة:

- ماذا فعلتُم؟
- قتلناه، وقطعنا رأسه ثمّ أطعمناه وجُثته لأسودنا التي نُربّيها في مزارعنا لنخرجها عليكم وتأكلكم يومًا ما.

وقعت أرضًا مغشيًّا عليها لأنها لم تتحمّل ما قاله.

7

أميرهم بشفقة مزعومة:

- أما كانت هُناك طريقة لائقة لتخبرها بما فعلت غير تلك الشناعة؟
- إنها الحقيقة وأنا لا أحبّ الكذب، سيدخلني اللهُ النّار!
- وكيف عثرت على تلك الفتاة؟
- حين خطفنا زيادًا هذا وكنّا نعرف عنه كل شيء، فقد كان يتعامل معنا منذ سنوات بوفاء قبل اندلاع الثورة السورية، وشهادة لله هو شخصٌ أمين وخلوق، ولكنّه زنديق، وجب التخلّص منه. وحين أتت الفرصة فعلنا. وفي اليوم الذي قضينا عليه كان معنا هاتفه الشخصي. وبالصدفة أخبرتنا بمكانها فانتهزنا الفرصة وأوقعناها صيدًا ثمينًا في الشِّباك. وسموّك تعرف بقيّة القصة. والآن ماذا تُريد منّا أن نفعل؟

ثمّ مدّ إليه بحبّة زرقاء «فياجرا»، وكأس ماء، وضحك غامزًا بإحدى عينيه:

- هل نُجرّدها لكَ من ملابسها قبل انصرافنا؟ أم نكتفي بوضعها كما هي على السرير داخل غرفة النوم ونقيّدها؟

يُفكّر قليلًا، وينطق بما استقرّ عليه:

- بل اجعلوها تستيقظ من غيبوبتها بعد إدخالها الغرفة، ثمّ أغلقوها

عليها إلى حين أتأكّد من خروجكم أيُّها الملاعين. فهذه الفتاة لن أشعر باللذة معها إلا باللين والحُسنى، لأنّها شرسة جدًا، كما أنّه من الحرام شرعًا إهانة جمالها.

ضحك الشيخ الأصولي وسأل:

- وهل ستتزوجها؟

فسبّه وسخر منه:

- أتكلّم عن شريعة الغاب لا شريعة الله.. أيّها المغفل الحمار.

8

أمر أحد حُرّاسه مومئًا برأسه للإتيان بحقيبة النقود.

أخرج منها مئة ألف دولار أمريكي. ضحك وطلب صاغرًا مزيدًا فزاده واحدة أخرى، حتى أوصلها إلى ربع مليون دولار:

- لقد جرّدتني من كل ما أملك الآن من سيولة ماديّة! كفاكَ طمعًا.

- يا أيّها الأمير، الموضوع أصبح مُكلفًا جدًّا، وها أنت ترى بأم عينيك الشريفتين، صعوبة ما نُعانيه.

سأله حائرًا:

- وماذا عن الأرباح التي جنيتها في الأشهر السابقة من الجمعيات الدينية، نتيجة بيع الفتيات السوريات اللاجئات.

قهقه وقاطعه موضّحًا:

- نحنُ لا نبيعهنّ، نحنُ نزوجهنّ على سُنّة الله ورسوله.

ردّ عليه بمكر:

- لا تخدعني، فقد أفشى لي الشيخ البعلبكي المُحترم، إمام الدين هُناك، عن حجم المأساة التي يتمّ ارتكابها.

قاطعه مُجدّدًا:

- الشيخ البعلبكي يُحبّك، ولكن الموضوع هو أنه يُريد لكلّ امرأة لاجئة سورية، في لبنان أو حتّى عبر الدول الأخرى كمصر والعراق وبعض دول الخليج.. أن تتزوج بما يليق بها وتُعامل كأيّ فتاة تحمل جنسية البلد نفسه.
- وهل يُعقل هذا!؟
- نعم يُعقل، فتلك هي الكرامة التي يجب أن يحصلن عليها، وذاك هو الإسلام.. «أحبّ لأخيك ما تُحبه لنفسك».

ثم ضحك ورمقه باستغراب:

- لكنّك لن تحصل على العذارى منهنّ في تلك الحالة بسهولة. والشرع يُحلل لك أربعة فحسب، فكيفَ سيرخّص لك المنال؟

سخر وقهقه وتراقص كرشهُ معه:

- سأتزوّج كل يوم واحدة وأطلقها في اليوم التالي أيها الأبله. على الأقل سأحميهن منكَ أيها الملعون فلا تبيعهن كسبايا بمئة دولار وخمسين باسم الشرع والدّين، وأنت تجني من ورائنا معشر الأثرياء في دول الخليج والدول العربية الأخرى ملايين الدولارات، أيّها الخسيس.
- أنا خادمك الأمين سموّ الأمير.
- سيخسف بك اللهُ الأرض، لتستّرك وراء دينه.
- أنا مسكين وضعيف، وعبدٌ صالح أستر نساء المُسلمين. أنا خادمك وعبدك سموّ الأمير.. فإن دخلتَ الجنة رافقتك.. وإن دخلتَ النّار صاحبتك.

غرقا ضحكًا، ووخزهُ في صدره لينصرف منحنيًا وهو يحاول تقبيل يديه.

- أستغفرُ الله، اغرب عن وجهي ستحمّلني ذنبًا.

يا حارسيّ، اليوم أنتما في إجازة.. اذهبا واختارا لكما حسناوين من عند هذا الشيخ الأفّاق المزعوم، لكن احرصا على عدم الإفراط في الجنس، حتّى تتمكّنا من القدوم ليلًا إليّ بعافيتكما. أمامنا سفرٌ في الغد إلى الخليج.

استجابا، بينما كان يدخل هو إلى الغرفة ليختلي بها.

9

وجدها واقفة تترقّب دخوله ممسكةً في يديها أباجورة بلاستيكية كانت موضوعة على كومدينو بجوار السرير:

- لا تقترب منّي وإلا قتلتك.

ضحك بصوتٍ مُنخفض:

- ما في يديك لا يقتل، إنما ما هو أسفل خصرك. ثُمّ إنّ الموت على يديك يُدخل الجنّة يا أيتّها الخارقة الاستثنائية.

يُحكم إغلاق الباب وراءه بثلاث تكّات كاملة.. يضع المُفتاح في جيب جلبابه الأبيض الداخلي.. وباليد نفسها يُخرج مُسدسًا مصنوعًا من الذهب.. وسيجارة من علبته الفضيَة.. فتكاد أن تموتَ رعبًا..

- لا تخافي، لن أقتلك.. فأنت خُلقتِ لتنعمي برغد العيش لا بالتهديد والتنكيل والبطش.

ثُمّ يُشعل سيجارته بالمُسدس، ويضحك ساخرًا..

- هذه ولاّعة، ولكن لا تغضبيني فقد تتحوّل إلى مسدّس.. قد أفعلها حقًا ساحبًا وعودي بالإبقاء على حياتك وإغراقك في النقود والمجوهرات، إذا كنتِ غير طيّعة لكلّ ما أطلب.

تقاومه وتدفعه أرضًا بعد محاولة خاطفة منه للاعتداء عليها، ليصطدم رأسه بسنٍّ مُدبّبٍ لدُرج بارز من خزّانة الملابس التي فتحها

ليُحضر لها منه «بيبي دول» أسود كما يفضِّل.

نزف الدم من رأسه بعد أن أُصيب بجُرح صغير، تساقطت بعض قطراته على ظهر جلبابه وعقاله ليتلطّخا بلونه الأحمر النجس...

- أغضبتِني، لكنّك أعجبتِني.. في العام الماضي التهمتُ روسية في حجمك الرشيق نفسه، كانت مُتيّبسة الرأس أولًا مثلك ثمّ لانت خاضعة لإغراء الأخضر.. الدولار يفعل كلّ شيء في الكون.

أخذ يُغنّي لها بصوته المبحوح نتيجة الخمرة التي لا تُفارق فمه:

- «معاك فلوس تبوس، الناس تُحضن تبوس». هذه الأغنية الساقطة غنّتها لي حسناء مصرية.. قبل أشهر كُنت هناك في شارع الهرم. «كانت قُطة بتخربش». هيّا ليني، «حُصاني» يكادُ ينفجر داخل ملابسي. بُركان شهوتي أوشكَ على إحداث دمار شامل في الغرفة.

ثمّ بدأ بخلع ملابسه قطعة قطعة.

10

حاصر الدمعُ عينيها وأغرقها ووجهها في بحر مُتلاطم الأمواج، وما إن علمت بوقوع قضاء الله:

- هلاّ تركتني لأصلّي قبل أن تقضي عليّ؟

ضحك باستغراب:

- مثلك يا فريستي، كافرٌ.. وستدخلين النار مُباشرة، فلماذا تُصلّين ولمن؟

- أصلّي لربّي وربّك إن كُنتَ تؤمن بقدرته، أرجوك ركعتان فحسب.

تركها وفي الركعة الثانية أطالت السجود داعية بخشوع تام وهي تضمرُ ما تقول:

- اللهمّ يا رب السماوات والأرض، يا من تقول للشيء كُنْ فيكون..

إن كان قد كُتب عليّ أن تفجعني في أهلي بفقدهم، وقد صبرتُ وشكرت، فلا تفجعني في نفسي بفقد شرفي..

وإن كتبتَ عليّ فقده مع من لا يرحم.. فانتقم لي عاجلًا لا آجلًا.. واغفر لي ذنبي.. وخُذني إليك بلا خطايا..

وقبل أن تستكمل أدعيتها، هرول إليها وجذبها من رأسها ليخلع حجابها، ويمسكها بقوّة من شعرها ويشمهُ مُنتشيًا:

- الله... تلك الرائحة غير معقولة، أنت حورية من جنّة عدن. هيّا يكفيك هذا، إلى مَن تدعي؟ قُلتُ لكِ ربّك غير موجود لأنّك كافرة.. شيعيّة بنت....
- لستُ شيعية..
- لا فرق علوية.. كافرة..
- لستُ علوية.. وإن كُنت فهذا لا يجعلك تستحل عرضي.. أنا إنسانة.. فاتقِّ الله.

قاومته مُجددًا، لتفلت من يديه اللتين أخذتا تُمزّقان ثيابها وروحها معًا قطعة قطعة. غير أنّهُ هذه المرة أمسكها بإحكام، ونزل على أعلاها وأسفلها بشراهة..

كان قد تمنّى يومًا أن يفعل ما تفعله الحيوانات.. لذا شاهد صباح هذا اليوم بعد أن رأى الفيديو الخاص بها.. واحدًا آخر عن جماع الأسد للبوةِ..

ظلّ يُقطّع بكارتها بسنّ سهمه الشيطاني.. يُصاحب صوت تأوّده كروّاد الجحيم.. صوتُ توجّعها كالأم الطاهرة المُقبلة على وضع حملها.

11

بعد دقائق.. انبجس ثُمَّ انفجرَ دمُها النقيّ الذي تنجّس به.. ليسقط جانبها يسارًا ويمينًا.. ويُدنّس ما تبقّى من نصاعة جلبابه. وكآخر التهاماته، شدّ دوائرَ بطّتيها جازًّا عليها بأسنانه.. فازداد مُتعة.. وازدادت هي ألمًا.. ثمّ استخرج أوسطه من أسفلها بعد أن عكّر رحمها بمائه العَكِر. وقام عنها ونبضات قلبه متسارعة تضرب أعماقه بقوة زلزال حطّم مؤشرات جهاز ريختر، فهو يملك فحولة واهية لبلوغه السبعينَ خريفًا.

صعد من الأرض التي تبخّرت فيها عُذريتها، إلى السرير الذي فردَ عليه جسمه. وزحفت بعد أن وطأها وسلب منها كلّ ما تملك من بهاء الإنسانية وزهوها.. ذاك الذي لطالما حلمت أن يكون في الحلال فحسب ومع مَن تُحب!

انزوت في ركُن وأوت إلى نفسها مُستجمعة إيَّاها.. حاضنة جسدها المُعذّب بدنس هذا الشيطان البشري، واضعة عليها قطعة من ملابسها النظيفة التي لم يمسح فيها ما سال من حصانه المُغتَصِب.

12

لحظات.. وخلت الغرفة فجأة من حركاته، ظنّت أنها قد انتقلت للرفيق الأعلى..

خرجت من حُضن نفسها.. فتّحت عينيها المُغمضتين من هول الصدمة، ونظرت إليه.. وجدتهُ في وضعية بائسة لا يُحرّك ساكنًا. اقتربت جاثية.. ثمّ دنت منه لتجسّ نبضه وأنفاسه جهة عُنقه.. ظنّت لوهلةٍ أنه قد نام.. ثمّ ما إن وجدت أن زفيره وشهيقه قد انقطعا.. حتّى راحت تستجمع قواها.. ولا تعرف ما الذي يجب عليها فعله..

ردّدت في نفسها.. أيكون الله استجاب لها وانتقم منه وأماته على تلك الحالة غاضبًا عليه.. وقالت ثانية: ولكن بعد ماذا.. لقد ضعتُ وفقدتُ كلّ شيء..

همّت بالانتقام.. وفكّرت قليلًا..

13

اهتدت إلى كسر زجاج نافذة الغرفة المؤصدة.. لا تبالي بجرح يديها فقد فعلت بقبضتها..

أخذت قطعة وعادت ودنت من جسده العاري.. قطعت عضوه الذكري بالزجاجة الحامية.. فسال دمه الذي ما زال ساخنًا.. فلم يبرد جسمه رغم موته.. ولم تبرد نار انتقامها رغم ما فعلت..

حشرت عضوه في فمه، مُتمنية أن يبعثه الله على تلك الحالة..

بدأت تهلوس بجنون نتيجة رؤية دمه المُسال.. إذ اجتمع بداخلها كل أنواع الأمراض النفسيّة.. لم يكُن الاغتصاب سهلًا.. ولا موته.. ولا طُرق انتقامها..

بدأت قوى عقلها تتخلّى عنها بعد أن أوشكت على فقدانها كُليًّا.. راحت الصدمة النفسية تحثّها وتغويها لفعل مزيدٍ من الشرّ.. أخرجت من جلبابه ولاّعته الذهبية التي تفاخر بها قبل حتفه.. وأخذت المُفتاحَ..

أشعلت النار من تحته.. فأطفأت بذلك نار قلبها.. رأت مشهده وهو يشوى كالذبيحة فوق الفحم.. ظلّت تضحك بهستيريا لدقيقة قبل أن يهدّدها اللهيب بالنيل من جسدها.. عبرَ ملابسها التي ارتدتها بسرعة..

14

ركضت سريعًا وفتحت باب الغُرفة، ثم باب الشقّة.. وهرولت

هاربة من الطابق بأكمله فالعمارة كُلّها، دونَ وجهة مُحدّدة تعرفها.. لم يتمكّن أحد من اللحاق أو الإمساك بها.. لكنّ الجنون وذهاب عقلها قد فعل!..

غدت كالمُشرّدة والدرويشة تهيم على وجهها في شوارع الحمراء. حتّى وصلت إلى الكورنيش قُرب «الزيتونة باي»، لتنامُ منهكة على أحد الأرصفة المُظلمة، ملتحفة العراء.. مُتمنيّة أن لا تفيق أبدًا.

(31)

1

قُبيل انعقاد القمّة العربية بيوم واحد، وفي هذا الصّباح المُشرق على ستّ الدُّنيا بيروت، التي تزدان جمالًا كُلّما كبُرت، تسرُّ الناظرين باجتماع الطبيعة الحسناء فيها، عادت فيروز سُليمان وصديقتها ديما جُبران مِن مُخيّم للاجئين على الحدود اللبنانية السورية يُسمّى «وادي حميد».

كانت قد ذهبت بابتسامة عريضة تعلو شفتيها وتحمّر خديّها المتوردين جمالًا وبهاءً. حين أضناها الشرود بل البكاء الذي كان ينقطع فقط بسبب ضغط ديما عليها:

- استمتعي بحياتك، أنتِ تأتين وتحضرين هذه المؤتمرات الفاشلة من أجل حصولك على بعض النسيم العليل وسكون روحك.
- صعبٌ جدًّا يا صديقتي.. أن أتأمل الشمس والبهاء، والسُّحب المُشكّلة بدوائر الحُب والجمال، والبحر الأبيض المتوسط الأزرق اللامع، والأنهار الجبلية الرقراقة المُنحدرة من الينابيع المُحاطة بالخضار..

بعدما رأيت ما رأيت بأمّ عيني، غدا كلّ شيء جميل في بلدكم كلوحة.

- لوحة؟
- نعم، لوحة فنيّة تنضح بالحُسن. غير أن الواقع المُحيط بها والعالم

الخارجي للناظر مضنٍ جدًا وقاتل لكل جمال. قد صدق حُكماء العرب.. «ليس من سمع كمن رأى».

- معك حقٌ بلا شكٍّ، لكن هوّني عليك قليلًا.. لتتمكني من امتلاك قُدرتك على الإبداع وقول كلّ ما اختلج في نفسك وأثّر فيك في المؤتمر. أعتقد أن ما مررنا به قبل قليل سيكون أكبر مُلهم لك.

تومئ برأسها تأكيدًا على قولها، تضعها على زُجاج السيّارة للشبّاك المجاور لها وقد أغلقته ديما حرصًا عليها، لأنّ الأمطار التي تمادت في جلد بيروت ربّما تُسبب المرض وهي لا تُريد لها ذلك.

2

تظلّ فيروز شاردة بينما تقود ديما.. ترسمُ الأولى على الزجاج من زفيرها وجوهًا كئيبة تراها الثانية.. وكلّما سنحت لها الفرصة أثناء التوقف في إحدى الإشارات المرورية، تميل عليها وتمسح الكآبة وترسم لها وجهًا تعبيريًّا مُبتسمًا.

أثناء ذلك لمحت فيروز رغم «الشبّورة» الحاجبة للرؤية إلا ما هو دون ثلاثة أمتار، امرأة مُلقاة على أحد مقاعد الكورنيش أمام مطعم «كنتاكي».

تقلّبت فجأة، فوقعت عنه أرضًا ولم تُحرّك ساكنًا.

طلبت من ديما التوقّف على الفور جانبًا بعدما تجاوزتها ببضعة أمتار..

نزلت راكضة نحوها، ولحقت بها ديما..

جثت على ركبتيها أرضًا رُغم الماء الذي يُغرق الرصيف في بحاره.

فقد كان وجه المرأة إلى جهة البلاط.. راحت تستجمع قواها لتعدلها.

قالت ديما الواقفة بعجبٍ فوق رأسيهما:

- ماذا تفعلين يا فيروز، ماذا لو هذه المرأة تحمل مرضًا مُعديًا؟ دعيها وشأنها.

رمقتها بنظرة عتبٍ، وبإحدى يديها أزاحت شعرها المُبلل إلى الوراء من فوق عينيها لتراها جيدًا:

- ماذا لو كُنتِ أنتِ؟ أو أنا محلّ تلك المسكينة؟ هيّا ساعديني في إيقاظها وحملها إلى المقعد.

- قتلتِني بحجتك ومنطقك. أحافظ على صُحبتك لأنها تُعزز إنسانيتي التي أفتقدها كثيرًا كلبنانية بوطني الذي طحنته المادة يا صديقتي.

ابتسمت لها:

- هيّا لا تضيّعي الوقت، كلنا يفتقد جزءًا مهمًا في حياته ويعوّضه من الآخر.

رفعتاها وأقعدتاها بحذر..

3

استيقظت وهي تفرك عينيها، فاندهشت ديما:

- ما بال تلك المرأة الشابة، لا تُبالي بكل ما حولها.

- على الرغم من اتساخ ملابسها وهيأتها، حسّي يقول لي إن وراءها أمرًا عظيمًا.

نظرت إليهما بعدما اكتمل وعيها. نظرت إلى ديما جُبران فنفرت منها وانزوت في نفسها.

ابتعدت عنها قليلًا رهبة منها وخوفًا عليها كي تطمئن..

نظرت إلى فيروز، ابتسمت وهي تُحرّك رأسها وتطالعها باندهاش..

فرحت ريما، ومدّت إليها يدها..

فعلت فيروز مثلها بأريحيّة تامّة..

لامست بشرة كفّها، ثمّ بشرة وجهها..

لحظات.. وقامت من جلستها لتقف فوق المقعد الخشبي الطويل، وترمي بنفسها في حضن فيروز!

حاولت ديما جُبران تخليص صديقتها..

فنهتها فيروز عن ذلك..

احتضنتها بقوّة هي أيضًا وظلّت تُربّت ظهرها وتلامس شعرها بحنان بالغ.

عقدت الغرابة لسان فيروز فلم تنطق، وتكلمت ديما نيابة عنها:

- أستغرب كيف نفرت منّي وانعجنت فيكِ، هذا سِرٌّ عجيب.
- أخبرتك أن وراءها قصّة ما..

دعينا نذهب بها إلى الفندق ونبدّل ثيابها ونحمّمها لتتضح لنا ملامحها.

ضحكت ديما باندهاش..

- لِمَ تضحكين؟
- أيّ فندق؟ لن يدخلوا تلك الدرويشة معك أبدًا.
- إذًا لنذهب إلى بيتك؟

تردّدت للحظات وعلى مضض وافقت بعد أن شعرت أن صديقتها ستزعل منها لكنها سألتها مستوضحة:

- وما الحكمة من مُساعدتها؟
- ها أنتِ قُلتِ مُساعدتها، سأعمل على الوصول إلى حقيقة أمرها، وإن عجزت سأسلمها إلى إحدى صديقاتنا هُنا اللواتي يملكن دور رعاية لمثل حالاتها المُستعصيّة.

انفكّت من حضنها، وأسندتاها حتّى السيارة..

أجلساها في المقعد الخلفي..

ازدادت حيرة ديما:

- لكن لماذا هي عاجزة لا تنطق ولو بحرف؟ ولماذا تلتفت دائمًا بعينيها الزائغتين مُحدقة إلى كل شيء حولها كالسّارقة.

ردّت عليها بثقة:

- إنّها أعراض صدمة نفسية كبيرة أذهبت جلّ عقلها أو كلّه.

5

تُرتّب الأقدارُ أحيانًا ما لا ترتّبهُ الأفكارُ.

مُنذ أن وطأت أقدامها لُبنان «لم تدخل النتّ» إلا قليلًا.. جلست فيروز تتصفّح حساباتها الشخصية على مواقع التواصل الاجتماعي من خلال الحاسب الخاص لصديقتها ديما جُبران التي تولّت مهمّة تغسيل وتزيين تلك المرأة لتزيل ما عليها من أوساخ وتخرجها في أبهى حُلّة، فقد كان آخر حمّام دافئ لها ذلك المشؤوم في الفندق!

طالعت صندوق بريدها بدقّة، فوجدت رسالة من باسم مارديني يروي لها تفاصيل ما استجدّ معه من حياة، وآلامه التي عاناها وما زال لا يستطيع التخلّص منها حتّى اللحظة. وأخبرها عن الاختفاء القسري لريما العقّاد.. وما تعرّضت له من مآسٍ قبل هروبها. وشفع رسالته بعدّة صوّرٍ لها، فلربما تُساعده عبر نفوذها الواسع في عالم الإعلام للوصول إلى أي خيطٍ يطمئنه عليها.

تألّمت لتلك الرواية كثيرًا، فعلى الرغم من أنها لم ترها ولا مرة، غير أنّ المُشكلات المتلاحقة على تلك البنت جعلتها تتعاطف معها كثيرًا وتحبّها في الله. وقعت دمعة ساخنة على لوحة الكتابة باللابتوب.. سارعت إلى منديل ورقي من حقيبتها وأخذت تحاول اللحاق بها حتى

لا تتسلل إلى عُمق الأرقام فوق مسطرة المسافة وتخرّب ممتلكات صديقتها الشخصية.

6

أثناء ميلها على الحاسوب.. انتهت ديما جُبران من إعادة هيئة المرأة إلى سيرتها الأولى وطبيعتها وجمالها المُعتاد. فقد ألبستها ثيابًا عصريّة، ووقفتا متجاورتين مُبتسمتين أمام فيروز، التي التفتت أخيرًا إليهما، وما إن نظرت المرأة في وجه فيروز المُحبب إلى قلبها، حتّى ارتمت مُجددًا في حَضنها.

قهقهت ديما:

- أدفع نصف عُمري لمعرفة ما الرابط بينكما، فكلّما رأتك ارتمت في حضنك.
- سأشاركك فيه بربع عُمري لو عرفنا السبب.

عدّلتها مُخرجة إياها من حُضنها.. لتنظر إليها وتحثّها على الاطمئنان وهي تلمس شعرها برفق، فتُصعق...

وضعت كلتا يديها على فمها المفتوح بدهشة.. عيناها شاخصتان..

خافت عليها ديما، دنت منها، عنّفتها وسألتها بلهفة:

- ما الأمر يا فيروز، ماذا حدث لك.

ظلّت فيروز على تلك الوضعية المُتسمّرة، المرأة بدأت تخاف وأخذت ترجع إلى الوراء خطوة تلو أخرى. أشارت فيروز إلى ديما أن تنظر إلى شاشة حاسوبها الشخصي.. فعلت ولم تعبأ أول الأمر، فلم تفهم ما يجري. ثمّ ما إن أعادت النظر مُجددًا في ملفٍ كان مفتوحًا وداخله صورٌ مصغّرة، كبّرت فيروز إحداها قبل قليل.. حتّى قالت بعجب:

- معقول؟ هذا شيء لا يُصدّق.

ركضت فيروز مهرولة نحو المرأة لتحضنها وتضيّع رهبتها الأخيرة.

- نعم هي تلك الفتاة التي لطالما ملأتُ الدّنيا بالحديث عنها في لقاءاتي ومقالاتي وقصصي. إنها هي ريماااا العقّاد يا ديما.

7

أجلستها وهي تحاول استنطاقها.. لكن دون أي جدوى، فقط ظلت تبتسم لها وتحتضنها.. ومن حين لآخر كانت تشعر بألم يعصفُ بداخلها، فتبكي وتظلّ في تلفّتٍ كالعادة حولها بعين مُحملقة كالذي ينتظر أن يأتيه الموت من كلّ اتجاه.

هدّأت من روعها طيلة ساعات الليل المتأخرة.. أطعمتها ولاطفتها حتّى نامت مُطمئنة.

- ألا يجب أن تنامي يا صديقتي، المؤتمر غدًا، ولا بدّ أن ترتاحي.
- أيُّ راحة تلك يا ديما، المأساة بلا أملٍ، انظري واقرئي قصّتها..
- نعم معك كلّ الحق.. شيء مؤسفٌ للغاية.. بالمناسبة هُناك خطبٌ جلل.. لم أوضّحهُ لكِ أمامها.

ترقّبت قولها بصبر مُتفلّت:

- ماذا.. أفصحي فضلًا.
- جسدها ومهبلها، كله آثار تعذيب.. أظنّ أنها تعرضت لاعتداء جنسي مُختلف من نوعه. ولربّما لم تعُد بكرًا.

تألّمت باكية:

- وسبب كلّ هذا..
- لا أعرف، حتّى إن آثار دم وسائل منوّي على جسدها وثيابها.

ظلّت مُسترسلة في رمي شعر رأسها وراءها بتوتّر:

- الآن بدأت الأمور تنجلي، إن صدمتها لشيء ما قد وقع لها.
- والحل يا صديقتي.
- العمل لتعرية كل هذه الخطايا أمام الرأي العام.. وليقضي اللهُ أمرًا كان مفعولًا.

8

صباح اليوم التالي، في كلمتها أمام الجمع الغفير للجامعة العربية والأمم المُتحدة وبعض أعضاء اليونيسيف، بدأت كلمتها بعرض بعض المشاهد الموجعة على شاشة عملاقة في قاعة المقرّ..

ومن خلال بحثها الميداني الذي أجرته في مُخيّم «وادي حميّد»، عرّت الواقع المُنحدر من موت الضمير وقسوة البشرية.

صورة لطفلٍ بعمر الزهور تعوّد أن يرفعَ يديه خوفًا كُلّما جاء أحدُ المُراسلين وقام بتصويره.. وببراءته ظنّ أن الكاميرا سلاحًا!

أمٌّ تطعم صغارها الحشائش..

أبٌ يربط على بطنِهِ الأحجار لكونه لا يجد ما يأكله، وإن وجد فأسرته أولى به.

مُنظّمة «الأونروا» لم تعد تتكفل بهم.. وكأنها قد رفعت أيديها عنهم.

التعليم قد توقّف..

يأتيهم الشتاء فيضمّ بعضهم بعضًا.. ليستيقظ الحيّ منهم على موت الآخر مُتجمّدا من شدّة البرد.

شيوع القتل بينهم.. والزنا.. والجهل..

بيعُ النساء كالسبايا في كل أنحاء العالم.. باسم الدين.. باسم الوطنية.. باسم الحاجة..

حياة تخلو من الحياة.. «كأنّهم قد ماتوا وهم على قيد الحياة ويعذّبون».

9

صمت الحضور على وقع المشاهد المؤلمة، بين من وضع كفّه على فمه من الألم. ومَن تبكي من قسوة ما شعرت.. ومن يُكفكف باحثًا في عجزهِ عن طريقة يحاول بها إصلاح ما وقع. ومُتأففٍ يتمنّى إنزالها من قمّة البؤس هذه لأنها تُضيّع له وقته.

كفكفت دموعها بمنديل ورقي، ثمّ ضغطت على الزر وعرضت لهم صورًا لفتاة ندر حُسنها في الكون وليس في بلاد العرب فحسب.

قالت بغضب وحنق:

- أتدرونَ من هذه؟

تهامسوا، فأطفأت فضولهم، وعرضت لهم صورًا أخرى التقطتها لها حين كانت على حالتها مرميّة في الشارع مُشرّدة.

تغامز بعضهم بصوت مُرتفع:

- أيُعقل أن تكون هذه هي.

ردّت مُستقرئة استنباطهم:

- نعم هي، هي نفس الفتاة السابقة.. انظروا كيف تتسع فجوة المأساة في واقعكم.

ثمّ أشارت إلى أحد الرُعاة المُنظّمين للمؤتمر بإدخال ريما إلى القاعة وهي في أبهى حُلّة..

وهذه هي الآن، على الرغم من استعادتها لجمالها. غيرَ أنّها فقدت عقلها، ولا نعرف ما الصدمة التي أدت بها إلى ذلك. ولكنّ هذا ينضح في حُزنها العميق المرسوم على وجهها وحول هالات عينيها الجميلتين

المشبعتين بالحُزن. ولولا الحياء ومخافة الله، وحرصي على أن لا أشهّر بها.. لجعلتكم تشاهدون بصمات الذئاب البشرية على جسدها الجميل.. من آثار الكدمات الموجعة في روحها قبل بشرتها.

10

كان رجل من الأمن اللبناني يُشاهد المؤتمر في التلفزيون على الهواء مُباشرة، فرأى ريما العقاد، وتعرّف إلى شخصيتها.. فقد تقدّم عقب الحادثة الشيخُ الأصولي ببلاغ يتهمها بقتل الأمير العربي وإحراق جثته. تمّ مداولة القضيّة إعلاميًا على أوسع نطاق وكادت أن تُحدث أزمة دبلوماسية بين البلد العربي المُنتمي له هذا المقبور ولُبنان.

تحرّكت على الفور قوّة يرأسها هذا الضابط، واقتحم القاعة بعد إبداء الأسباب لمدير الأمن فيها. انتشت فيروز بحضوره أولًا، ظنًّا منها أنه قد أتى بأخبار عن سرّ ما وقع لريما وأنّه قد ضبط الجُناة. لكنها تفاجأت وصُدمت بقوله:

- ابتعدي من طريقنا فضلًا، فهي مطلوبة في جرائم عدة.. أدناها سرقة بالإكراه، وأعلاها القتل والتمثيل بجثّة ميّت.

ثارت فيروز ووقفت أمام ريما التي ظلّت تصرخ باكية بهيستريا لامُتناهية. وحاولت أن تحول بينه وبينها. غير أنّه دفعها أرضًا، وجذب ريما من ذراعها بالقوة وسلّمها إلى الجنود الذين برفقته، مُعنّفًا فيروز سُليمان:

- لولا أنّك ضيفة على أحد المحافل الدبلوماسية المهمة في بلادنا.. لقمتُ بإلقاء القبض عليك، لأعلّمك ماذا يعني التأدّب مع ضابط شرطة يُنفّذ القانون.

11

عادت من صدمتها إثر تصرفه، وهزأت منه بضحكةٍ ساخرة.. ركضت وراءه محاولة مُساعدة ريما التي استحال عليها استعادتها من بين أيديهم. وعجّت القاعة بالثرثرة والأصـوات والأحاديث المُتداخلة.

عادت مكسورة إلى المنصة تجرّ خطواتها وأذيال الخيبة.. تستندُ على المقاعد رغم شبابها.. ماسكة الميكروفون العام لتقول بحُزنٍ وأسف، محاولة استجماع إرادتها:

- نعم فليحزن بعضكم.. وليفرح الآخر..

كفكفوا أيديكم أسفًا وضمُّوها فركًا.. ضخّوا بدماء قلوبكم الميّتة قليلًا من الحياة..

مـرّروا لمشاعركم بعض الحياء اللحظي ثـمّ عـودوا إلى تجبّركم..

غنّوا وارقصوا بعضكم على أشلاء بعض..

ودّعوا ضحاياكم بإكليل من الفرحة، لا عضّ الأنامل من الندم..

لتزدادوا قتلًا ودمارًا..

أقول لأهل سورية..

تقاتلوا أكثر وأكثر..

ليكسّر رأس نظامكم مُعارضتكم والعكس..

ويحطّم قويُّكم آمال ضعيفِكم..

لا تصلوا لحلٍّ واحدٍ مُشتركٍ..

أشبعوا رغباتكم العدوانية مزيدٍ من أنهار الدماء ودمار حضارتكم العظيمة..

اشربوا منها بكؤوس مصنوعة من جماجم الخاسر منكم..

12

يا أيُّها العرب..

عليكم بالشقاق والنفاق أكثر فأكثر..

فإنه لكم دواء وشفاء من مرض الإنسانية..

لا يرحم بعضكم بعضًا فإنّ هذا ضعف..

فليستمرُ حكّامكم المبجّلون في سرقتنا واستغفالنا واستعبادنا..

فنحنُ نستحقُّ سحقكم لنا..

وليستمر المُترف منكم في شراء نسائكم العربيات بثمن بخس..

ولتتاجروا فيهنّ كسبايا الحروب..

ولتغتصب زوجة أخيك أيها العربي..

ولتقتل أخاك أيها العربي..

لتذل أختك وأمك أيها العربي..

فنحن لسنا أخوة..

ورحمة مُحمّد ومحبّة يسوع لم تبعثا فينا..

13

«أحبّ لأخيك ما تحبّ لنفسك» هُرااااء..

«لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى» ريااااء..

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا...﴾ غبااااء..

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ...﴾ رثااااء..

فأنتم خير الأمم على الإطلاق في إتيان كوارث الأمم السابقة واللاحقة ولم يوفّ القرآن حقكم..

14

أوغلوا في إشعال الفتن..
يا سُنّي، الشيعي كافر فاقتله..
يا شيعي، السُّني كافر فاقتله..
يا مُسلم، المسيحي كافر فاقتله..
يا مسيحي، المُسلم كافر فاقتله..
فالجنّة والنار.. والرحمة والغضب..
والرزق.. والمنع..
والنور.. والظلام..
والهدى.. والضلال..
والحياة.. والموت..
كلّها بأيديكم ونحنُ عبادكم..
ليست بيد الله الواحد الأحد..

15

أنتم أرباب أقواتنا وفحول نسائنا..
أنتم السند لنا والعون..
يا حكّامنا من الآلهة والأنبياء..
ويا شعوبنا من المؤمنين والنُبلاء..
نحنُ معشر النساء العربيات..
مما ملكت أيمانكم..
فافعلوا ما شئتم بنا..
اغتصاب مجّاني..
قتل مجّاني..

قهر مجّاني..
ظلم مجّاني..
تهميش.. فنحن لا نُعاني مطلقًا..
سجن مجّاني..
فنحنُ لن نُعاني مطلقًا..
أنتم العُقلاء ونحن المتخلّفات..

16

أشعلوا فتيل الحرب أكثر فأكثر..
والفتنة أكثر فأكثر..
ما شاء الله فالازدهار والتقدّم يعمّان كل الأرجاء..
والتكافل يزدهر في كل الأرجاء..
والإنسانية تشكركم على التعاون المُثمر..
عدلُ ميزان الحق في احتلال بعضكم أراضي بعض..
وترك آل صهيون في مرح ودعة يشاهدون تدمير مدائنكم بفخر..

17

أوشكت فيروز أن تقع أرضًا، فقد أُنهكت من شدّة التعب والألم الذي عصف بها.

راحت تهلوس وقد قام جلّ الحضور مصفّقين لها على رنين كلماتها.

فاستجمعت قواها:

- نعم.. نعم..

صفّقوا.. صفّقوا..

فهذا هو الشيء الوحيد الذي تُجيدونه.
لكن علامَ؟.. لظلم تلك المسكينة؟
زنديقة في أعرافكم يُحلّ دمها وعرضها أليس كذلك؟
بالمنطق نفسه وأنا أدافع عنها.. أو أنتِ أو هذي أو تلك.
قد نقع في يد من يُعاملنا بالطريقة الهمجية نفسها..
ما قولكم آنذاك..
«من نطق الشهادتين، فقط عُصم ماله ودمه وعرضه»..
هذا لمُحمّد..
أقول لكم ليسَ مهمًّا كلامه..
فساستنا وشيوخنا ومراجعنا الإسلامية..
لا يريدون الاتحاد...
ليستمر بعضكم في إخراج بعضكم الآخر من ملّتهم..
فهذا لفريق علي..
وهذا لفريق معاوية وعائشة..
وهذا يسبّ عليًّا..
وهذا يسبّ معاوية وعائشة..
ألا تعقلوا أن كلّ هذا فتنة..
وأنّ نبيّكم لم يُبعث شتّامًا ولا لعّانًا..
صفّقوا، صفّقوا..
هذا كلّه ليس مُهمًّا..

18

لحظة واحدة.. سأتّصل بالراقصة «صافينار»..
لتحضر وتُكمل لكم البهجة والنشوة المرتسمتين على وجوهكم

الكالحة..

فما من داعٍ للاجتماع على كلمة سواء..

إنما الأجملُ.. رقصة سوااااء.

19

أصبحوا أمامها على أشكال وصور عدة فقد أُصيبت عيناها بضباب..

غابت عن الوعي وسقطت مجروحة القلب والروح..

تُردّد كآخر كلماتٍ لها:

- «سامحيني يا ريما، إحنا منستحقش نكون بشر، دُنيتنا دي غابة مليانة ديابة».

فلتغفري لي يا..

«حلوة كبيروت..

ومُتعبة مثل دمشق..

يا مقهورة كالقاهرة..

وتعاني مثلَ بغداد..

يا منسيّة كالقدُس..

قدرُكِ يا ريما أنَّكِ...

مِمّا ملكت أيمان حُكَّامنا العرب».

صدر للكاتب

1- رواية مايا.

2- الموناليزا الهاربة.